جامعة جنوب الوادي
كلية الآداب بقنا
قسم اللغة العربية

الأدب الأندلسي

إعداد

أ.د/ منى ربيع بسطاوي

أستاذ الأدب العربي بقسم اللغة العربية كلية الآداب

بسم الله الرحمن الرحيم

طوق الحمامة لابن حزم الأندلسي

تقديم

بقلم الدكتورة / ماريا خيسوس بجيرا (*)ترجمة /د .منى ربيع بسطاوى

السيوطى والأندلس والطوق : (*)

يعد السيوطى المولود فى القاهرة (٨٤٩هـ = ١٤٤٥م) والمتوفى (٩١١هـ - ١٥٠٥م) من أهم المؤلفين العرب وأكثرهم إنتاجًا للكتب العربية ، ويبدو ذلك واضحًا من عناوين فهارس كتبه المتنوعة والتى قام آخرون بعمل فهرسة لهـــــــــــــــــــــــــــــــا ، مثـــــــــــــــــــــــــــــــل العمل الذى قام به كل من : أحمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيبانى حول مخطوطات جلال الدين السيوطى ، وتحديد الأماكن التى حفظت بها هذه المخطوطات . (1)

لقد أفرد السيوطى للأندلس مساحة ليست بالقليلة من بين مئات الأعمال المتنوعة له ، والتى لاشك تناول فيها نكبة الأندلس ، ونهايته المفجعة ، ذلك أنه كان معاصرًا لتلك النهاية أو الكارثة ، التى جعلته يشعر باليأس ، وخيبة الأمل ، ولعل مما ضاعف هذا الشعور بالإحباط واليأس عنده أن أحدًا لم يقدم يد العون والمساعدة لذلك الوطن المنكوب موضع الحضارة المزدهرة والتقدم اللامع .

ويحين مجىء القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ، ذلك العصر الذى وصفه د. فريد خيرى فى دراسته " سقوط غرناطة ونهاية العالم العربى " بأنه كان عصرًا حاسمًا طبقًا لما جاء فى نص للسيوطى والذى تم نشره عام ١٩٩٢م بمناسبة ذكرى الكارثة فى كتاب بعنوان: " الذكرى الخمسمائة لسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م " . (2)

لقد ظلت صورة الأندلس خالدة فى ذاكرة السيوطى ، لاسيما الصورة الثقافية التى اكتنفها إعجابه الشديد بها ، غير أن هذا الإعجاب كان ممزوجًا بالحزن والكآبة ، فماذا عساه أن يفعل سوى أن يحاول جاهدًا تخليد ذكرى الأندلس ، وإعادة خلقها من جديد ، وكيف يتحقق له ذلك إلا عن طريق التذكر ، واستحضار صورة الشخصيات الأدبية البارزة فى الأندلس مع الاهتمام الشديد – قدر استطاعته – بالتركيز على ألوان النشاط الأدبى الذى كان شائعًا فى الأندلس آنذاك .

كانت مصر فى تلك الحقبة (القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) من تاريخ السيوطى ، ملاذًا وموطنًا لعدد كبير من علماء الأندلس الأفذاذ الذين هاجروا من الأندلس إلى مصر ، رغبة منهم فى الحماية والتماسًا للأمان لاسيما أثناء الاضطرابات السياسية ، والأزمات التى اجتاحت غرناطة (آخر معقل للمسلمين فى الأندلس) .

ورغم هجرة تلك الجالية الأندلسية المثابرة ، التى بدأت منذ بدايات القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) إلا أن اهتمام المشارقة بالإنتاج العلمى والأدبى الأندلسى ، كان قد بدأ فى الظهور منذ بدايات (القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى) وذلك عندما قام المؤرخ القدير الثعالبى (٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) بفتح الباب على مصراعيه أمام العلوم الأندلسية ، وذلك من خلال عمله العظيم المتمثل فى كتابه " يتيمة الدهر " ثم أعقب هذا العمل ذلك الاهتمام الواسع والكبير من قِبل مجموعة الكتّاب والمؤرخين المشارقة ، الذين وجهوا جُل عنايتهم بالكتّاب الأندلسيين والمغاربة ومؤرخيهم ، إلا أنه لوحظ أن ذلك الاهتمام كان منصبًا فى المقام الأول على علماء الأندلس ولعل ذلك يرجع إلى مكانتهم العلمية وجدارتهم من ناحية ، أو مصيرهم المؤلم وما آلوا إليه من ناحية أخرى مما جعلهم محط أنظار الجميع واهتمامهم .

وبعد مضى قرن من الزمان على عصر السيوطى ، ظهر كُتّاب السيّر الأندلسية الذين اهتموا اهتمامًا كبيرًا بالتأريخ للأدب الأندلسى بلغ ذروته فى أهم كتابين فى تاريخ الأدب الأندلسى للمقرّى التلمسانى هما : كتاب " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب " ، وكتاب " أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض " وكان قد جمع فيهما المقرّى بين الشرق والغرب كما حمل معه مذكراته حول الأندلس إلى القاهرة عندما رحل إلى الشرق .

لقد ذاعت شهرة السيوطى وملأت أرجاء الدنيا كمًا وكيفًا ، ولعل السبب الحقيقى فى ذلك يرجع إلى أصالة كتبه من ناحية وكثرة مؤلفاته من ناحية أخرى .

لقد كان للكتّاب والمؤرخين المصريين – وعلى رأسهم السيوطى – معرفة جيدة ومسبقة بالأندلس الإسلامى وذلك عن طريق العلماء المهاجرين من المغرب والأندلس والذين ظهر من بينهم – فيما بعد – رموز بارزة فى مجال الأدب والفكر والتصوف وبقية العلوم الأخرى .

(*) د. ماريا خيسوس بجيرا ، رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية فى كلية الآداب – جامعة لاكومبلوتنسى بمدريد .

(*) شاركت بعمل ملخص لهذا الكتاب باللغة الإسبانية فى ملتقى مؤسسة الحفاظ على التراث الأندلسى *La Fundacian El Legado Andalusi* الذى عقد فى غرناطة ديسمبر ٢٠٠٧م .

- كما شاركت بهذا العمل فى فاعليات مؤتمر قنا عبر العصور الذى عقد فى كلية الآداب ، جامعة جنوب الوادى فى قنا ، فى الفترة من ٢٠٠٨/١٠/١٢م إلى ٢٠٠٨/١٠/١٤م .

(١) أحمد الخازندار : دليل مخطوطات السيوطى وأماكن وجودها ، الكويت ، ١٩٨٣م .

(٢) أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية الأندلسية ، عبد الجليل التميمى زهوان ، العدد (١) ، ١٩٩٣م ، ص ٣٦١ – ص ٣٧٦ .

كما يجدر بى فى هذه المقدمة أن أشير إلى دور المصريين فى الدراسات الأندلسية ، فإليهم يرجع عظيم الفضل فى نشر العديد من الدراسات القيمة والثرية حول الأندلس ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر واحدة من بين الدراسات الحديثة فى الأدب الأندلسى والتى قام بها د. صلاح الجزار [1] ، هذا إلى جانب الكم الهائل من الرسائل الجامعية عن الأندلس نذكر على سبيل المثال أيضًا دراسة د. صالح خاطر منصور عن الأدب الأندلسي ، خلال الفترة من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد تقدم بها للحصول على الدكتوراة فى جامعة مدريد المركزية عام ٢٠٠٢م .

وإلى جانب اهتمام المصريين بالأدب الأندلسى ، وجدنا هناك اهتمامًا آخرًا موازيًا له من جهة المستشرقين الإسبان حول الأدباء المصريين وأعمالهم الأدبية ، فهناك إسهامات إسبانية جديرة بالذكر قام بها المستشرقون الإسبان على يد رائد الاستشراق الإسبانى " فرانسسكو كوديرا " ؛ وهو أول من نبّه إلى ضرورة دراسة الكتب الموسوعية العربية للمؤلفين المصريين " . [2]

وإلى اليوم مازال يواصل المستشرقون الإسبان جهودهم فى الاهتمام بالدراسات المصرية ، ومحاولة التعرف على الآراء ووجهات النظر التى يجدونها مبثوثة فى العديد من مؤلفاتهم المطبوعة فى القاهرة والتى تمدنا بمعلومات قيمة عن التاريخ العربى فى إسبانيا " . [3]

هذا إلى جانب ما قام به المستشرقون الإسبان من دراسات اهتمت بإعادة النظر واستقراء عدد كبير من الأعمال الأدبية العربية مثلما فعل (رفائيل بنيلا) الذى قام بدراسة شعراء قرطبة فى كتاب " بغية الوعاة للسيوطى " . [4]

كما قامت المستشرقة الإسبانية ماريا دولورس جواروديا ، بدراسة السيّر الذاتية لمجموعة من أعلام الأندلس ، الذين وردوا فى كتابى السيوطى [5] " نزهة الجلساء " و " بغية الوعاة " ، هذا بالإضافة إلى الدراسة التى قام بها " خوان بدرو مونفيرير " حول القرطبيين فى طبقات الحفاظ للسيوطى " . [6]

وخلاصة القول : إن الاهتمام المصرى بالأعمال الأندلسية المميزة لم يكن جديدًا ، وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته عندما قام بعض الكتّاب المصريين بعمل مختصرات موجزة لبعض الأعمال الأندلسية ، كانت مصحوبة بالشروح والتعليق عليها ، مثال لذلك ما قام به المؤرخ المصرى " ابن مماتى " فى كتابه المعروف بالكنز ، وهو عبارة عن تلخيص لكتاب الذخيرة لابن بسام ، وهذا ما أكده المستشرق الإسبانى الكبير إميليو غرثيا غومث " . [7]

وقبل أن أنتهى من تقديمى لهذا العمل القيم الذى بين أيديكم ، يجدر بى أن أعبر عن إعجابى الممزوج بكل الفخر والتقدير لهذا الجهد الخلاق ؛ لما فيه من عمق الرؤية ونفاذ البصيرة التى تُحسب للدكتورة منى ربيع بسطاوى ، الباحثة والأديبة التى تعمل فى كلية الآداب جامعة جنوب الوادى فى قنا ، وهى تقدم لنا فى هذا الكتاب رسالة بعنوان " طوق الحمامة للسيوطى " كانت قد عثرت عليها أثناء اطلاعها على بعض المخطوطات فى مكتبة دير الإسكوريال بمدريد ، عند قيامها بمهمتها العلمية إلى مدريد عام ٢٠٠٧م ، وأعتقد أنها فى هذه الدراسة ستفتح لنا آفاقًا جديدة نحاول من خلالها أن نعيد خلق الأندلسيين ، كما تسمح لنا بالتعرف على وجهات نظر ، وآراء جديدة ، كما عهدنا ذلك فى إنتاجها الأدبى المتميز . ويتأتى هذا عن طريق عدسة تخصصها الدقيق فى الأدب الأندلسى ، عندما تعرض لنا ولأول مرة الفرق بين طوق الحمامة لفقيه قرطبة ابن حزم الأندلسى ، وطوق الحمامة المصرى لجلال الدين السيوطى فى هذا العمل الشيق .

كما يجدر بى أن أشير إلى دور المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية بمدريد ، وعلى رأسه مدير المركز والمستشار الثقافى الدكتور عبد الفتاح عوض ، فقد أضاف شيئًا جديدًا بقبوله نشر هذه المساهمة التى يمكن أن نصفها بأنها " أندلسية ، مصرية ، إسبانية " لاسيما إذا حاولنا أن نجد فيها علاقة خاصة بين كتابى : طوق الحمامة للقرطبى الأندلسى ابن حزم ، وطوق الحمامة للقاهرى المصرى جلال الدين السيوطى ، كما لا ننسى تلك الروابط العلمية الرائعة التقدير كتلك التى تقوم بين العلماء الإسبان الذين قدموا دراسات خالدة حول طوق الحمامة الأندلسى ، وبين العلماء المصريين الذين قدموا ومازالوا يقدمون حتى الآن مثل هذه الإسهامات الرائعة ، الشيقة والمرحب بها حول طوق الحمامة الأندلسى والمصرى معًا .

---

(١) عناية السيوطى بالتراث الأندلسى ، مؤتمر للبحوث والدراسات ، ١٩٩٥م ، ص ١٢٥ – ص ١٦٢ .

(٢) مجلة الأكاديمية الملكية للتاريخ : العدد (٥٧) ، ١٩١٠ ، ص ٣٦٤ – ص ٣٦٧ .

(٣) مجلة الأكاديمية الملكية للتاريخ ، العدد (٦٤) ، ١٩١٤م ، ص ٦١٢ – ص ٦٢١ .

(٤) مجلة الأندلس الإسلامية : نصوص ودراسات ، ج. بوش بيلا ، و. هونرباش ، غرناطة ، العدد (الثانى) ،١٩٨٣ ، ص ١١١ – ص ١٢٤ .

(٥) مجلة دراسة الأعلام والسيّر الذاتية للأندلس ، العدد الرابع ، ل. مولينيا ، غرناطة ، ١٩٩٠م ، ص ١١٥ – ص ٢٢٤ .

(٦) انظر : خوان بدرو مونفيرير : حول القرطبين فى طبقات الحفاظ للسيوطى : مجلة المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية بمدريد ، العدد (٢٩) لسنة ١٩٩٧م ، ص ٢٩٧ – ص ٣١٧ .

(٧) ابن مماتى : مختصر الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، مجلة الأندلس ، العدد الثانى ، ١٩٣٤ ، ص ٣٣٤ – ص ٣٣٦ .

كمـــا لا يفـــوتنى أن أشـــيد بـــدور مؤسســـة الحفـــاظ علـــى التـــراث الأندلســـى بغرناطـــة ، والتى قامت بنشر ملخص لهذا العمل ضمن فاعليات مؤتمر العلاقات *La Fundacion El Legado de Andalusi* الأندلسية والمصرية فى ديسمبر ٢٠٠٧م .

أ . د / ماريا خيوسس بيجيرا مولينس
أستاذ ورئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية
جامعة الكمبلوتنسى – مدريد ٢٠٠٧م

ترجمة المقدمة /أ.م.د.منى ربيع بسطاوى

ابن حزم الأندلسى

- التعريف بابن حزم الأندلسى :

حظى ابن حزم باهتمام الباحثين عربًا ومستشرقين ، وقد درس هؤلاء جوانب مختلفة من فكره الموسوعى الذى شمل الدين ، وعلم الكلام ، والفقه وأصوله ، والتاريخ ، والحضارة والأدب ، والحب ، والسياسة والأنساب ، والفلسفة والمنطق والأخلاق . (1)

وقد بدأ اهتمام الباحثين المعاصرين العرب بابن حزم بنشر مؤلفاته ، ويأتى د. الطاهر أحمد مكى حُجة الدراسات الأدبية والأندلسية فى مقدمة الذين أولوا ابن حزم عنايتهم ، فقد عُنى بدراسة ابن حزم وكتابه طوق الحمامة عناية فائقة ، وعرفنا به تعريفًا طيبًا ، وقدم العديد من الترجمات والدراسات التى قام بها المستشرقون واختصت بابن حزم وكتابه ، كما قدم د. إحسان عباس العديد من الدراسات التى اختصت بابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، وكذلك الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، أما من المستشرقين ، فنجد المستشرق الإسبانى العظيم ميجيل آسين بلاثيوسس وكتابه عن ابن حزم القرطبى ، وأيضًا ما قدمه الفيلسوف الإسبانى الكبير أورتيخا إى جاسيت (١٩٥٥ – ١٨٨٣) وترجمته لكتاب طوق الحمامة وتقديمه لهذه الترجمة بدراسة مركزة رائعة ، قام بنقلها إلى العربية د. الطاهر أحمد مكى . أما عن هوية ابن حزم فقد كتب المؤرخ الإسبانى وهو حجة فى دراسات العصر الوسيط سانتيشيث البرنس (١٨٩٣ – ١٩٨٨) دراسة مستفيضة رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية ، ثم يأتى العالم الأديب غرثيا غومث المتخصص فى الدراسات الأندلسية فيترجم طوق الحمامة للإسبانية ويقدم دراسته التى وضع فيها ابن حزم إلى جوار عدد من قمم الأدب الإسبانى فى العصر الذهبى أولئك الذين يتجلى فيهم مزاج الشخصية الإيبرية واضحًا .

أما عن التعريف بابن حزم ، فهو أبو محمد بن على بن أحمد بن سعيد بن حزم ، ويلقب بالقرطبى نسبة إلى موطن ولادته ونشأته ، كما يلقب بالظاهر نسبة إلى المذهب الفقهى الذى اشتهر به . (2)

جاء ابن حزم إلى الحياة فى أشد لحظات الأندلس قساوة ومأساةً وحسمًا ، وشهد شمس الخلافة تنحدر نحو المغيب ، وقاوم ما استطاع لكى يبقى عليها ، ورأها تتناثر مزعًا ، وتقوم على أنقاضها دويلات صغيرة ، يحكمها أمراء صغار سوف يدخلون التاريخ تحت اسم " ملوك الطوائف " ، وعاصر هؤلاء الملوك وصغارهم ، ورأى دولهم تنتحر فى بطء ، وتُسرع نحو الهاوية فى بلادة ، المؤكد أن حياة ابن حزم وسط هذه الأحداث ، شاهدًا ، ومشاركته فيها مؤثرًا جعلت منه قمة الفكر الإنسانى فى مطلع القرن الحادى عشر فى الشرق والغرب فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء .

لقد كان ابن حزم سياسيًا ورجل دولة ، شاعرًا وكاتبًا ومؤرخًا ، مفكراً وفيلسوفًا ، وفقيهًا جدلاً ، لدد الخصومة ، عنيف الحوار . (3)

- أصله :

ينحدر ابن حزم من أصول ليست واضحة تمامًا ، وأشدها احتمالاً ، وهو أمر غير مؤكد ، إنه ينتسب إلى أسرة من المولدّين ، أى أنه ينحدر أصلاً من الأجناس التى وجدها المسلمون لحظة الفتح ، ولا يمكن الجزم بأصول هذه الأسرة ، هل هى لاتينية أو قوطية ، أو من بقية الأجناس التى مرت بشبه الجزيرة واستقرت فيها من الأفارقة والفينيقيين والسلتيين ، ولا يمكن الجزم كذلك بالديانة التى كان عليها أسلافه أهى الكاثوليكية أم ديانات أخرى ، أم الوثنية ، وكان لها عُبَّاد فى القرى النائية لحظة الفتح الإسلامى ، وليس للأسرة تاريخ عريق فى الإسلام ، فلم تكن مع السابقين إليه لحظة الفتح ، أو ما تلاها من أعوام ، كانت كملايين آخرين ، من صغار الفلاحين فى القرى النائية ، تمضى حياتها هينة متثائبة ، بلا آلام ولا أحلام ولا أمجاد ، تعيش من الزراعة ، على أرض لها ، فى ضيعة صغيرة ، كانت تسمى على أيام ابن حزم منتليشم *Montlisam* أو بدون الراء الأخيرة فى مقاطعة ولبة *Montijar* وأخذت فى الإسابنية المعاصرة صورة منتيخر *Huelva* جنوب غرب الأندلس .

---

(١) ابن حزم : الأخلاق والسير فى مدواة النفوس ، ص١٧ ، تحقيق : د. الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

(٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ص ٣٥١ ، دار المعارف ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٩م .

(٣) د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة : ص ٦٣ ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٣م .

وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم جد عالمنا أبى محمد ، والأنباء التى لدينا عن حياة سعيد هذا بقرطبة قليلة وغامضة ، وعلى العكس من ذلك أنباء ابنه أحمد ، فهى أكثر وضوحًا ، وأحمد هذا هو والد عالمنا أبى محمد بن حزم ، والمعروف عنه ، أنه كان أديبًا بارزًا وعالمًا صالحًا وإداريًا حازمًا ، وكان إلى ذلك كله ذا مهارة عظيمة فى الاتصال بالأوساط السياسية ، وكسب ثقة الحكام ، فسرعان ما تقدم إلى صفوف الإداريين ، واستمر فى تقدمه حتى أصبح وزيرًا للمنصور بن أبى عامر ، وهنا ارتفعت منزلته درجات ، وانتقل من بيته فى بلاط مغيث غرب قرطبة إلى مدينة الزاهرة فى شرق العاصمة ، حيث قصر الحاجب القابض على زمام الأمور ، فى هذا البيت ولد على بن حزم ، ونشأ فى تلك الأسرة التى تعد إحدى الأسر الأرستقراطية الجديدة التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر ، وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية . وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه ، حيث عُهد إلى النِّساء بتربيته وتحفيظه القرآن . [1]

ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى ما كان قد أصيب به وهو صغير من مرض قلبى [2] ، أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف ، أو لعله شيء غير هذا وذاك ، والذى يعنينا هو أن ابن حزم نشأ فى هذه الفترة من حياته بين حريم القصور ، وكانت نشأته ناعمة مترفة ، وكانت إلى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم ، وقد أكسبته تلك البيئة النِّسوية كثيرًا من الخبرة بأحوال النِّساء وأسرار نفوسهن ، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق ، كذلك أمدته هذه البيئة بكثير من قصص الغرام ، وأطلعته على العديد من أحوال العشق ووجهته منذ حداثته إلى البحث فى فلسفة الحب .

- طفولة بين الحريم :

ولد ابن حزم أبو محمد على بن أحمد بن سعيد – كما ذكرنا – فى قرطبة ، صبيحة يوم الأربعاء آخر يوم من رمضان عام ٣٨٤هـ - ٧ من نوفمبر ٩٩٤م ، وطبقًا لما يرويه ابن حزم عن نفسه فى مواضع مختلفة من كتابه " طوق الحمامة " صريحًا أحيانًا ، ومواريًا أحيانًا أخرى ، نعرف أنه أمضى طفولة رخية وضعيفة وكسولة ، طفولة ابن وزير ، يشب فى أبهاء القصر ، وتحت رعاية الخدم ، وبين مناغاة النِّساء ، من القيان والجوارى والإماء ، فعلى أيديهن نشأ ، ومعهن تربّى ، ولم يعرف غيرهن من الرجال حتى حد الشباب ، وكن حاضناته ، وأستاذاته ، علّمنه [3] القرآن وروّينه الشعر ودرّبنه فى الخط ، ومنهن تعلم أشياء أخرى ، لقد أظهرنه فى سن مبكرة على مناورات القصور ، وحيل النِّساء ، فنشأ صبيًا سريع التأثر ، متوقد الذكاء ، مطبوعًا على الغيرة ، سيئ الظن بالمرأة وقد خبرها عن قرب ، وأشرف من أسرارها على غير قليل . [4]

كان ابن حزم وفى الثامنة من عمره ، يطل على العالم قلقًا ، ويشق طريقه إلى الحياة فى خطى محسوبة ، وتعكس مواقفه نضجًا مبكرًا ، ففى بيتهم بدأ غرامياته الأولى مع جواريهم ، وقرأ أوليات المعارف من فقه ولغة وأدب ، ولقى كبار الأساتذة فى قرطبة ، يجيئون إليه أو يذهب إليهم ، أساتذة يمثلون كل الأفكار ، من أشد الناس ورعًا وتصونًا وزهدًا ، إلى أكثرهم جرأة وتحررًا وتمردًا .

وفى الثانية عشرة من عمره ، فى عيد الفطر لعام ٣٩٦هـ نلتقى به فى مجلس الحاجب المظفر ، يشارك فى سماع المهنئين من الشعراء بالعيد ، ولا يقف به الأمر عند هذه المجالس الرسمية ، وإنما يتجاوزها إلى الحرم نفسه ، فهو يحدثنا فى " الطوق " أن " ضنا " العامرية كريمة المظفر ، اقترحت عليه أن يصنع لها أبياتًا من الشعر ، اقترحت عليه أفكارها ، لتصنع لها لحنًا ، وتجعل منها صوتًا يُغنى . [5]

ولم يتجه ابن حزم إلى دراسة الفقه جادًا ومتمكنًا إلا شابًا مكتملاً ، فى السادسة والعشرين من عمره ، على ما يقول هو ، حين أخطأ فى صلاة الجنازة على شخصية هامة ، فكان موضع سخرية الحاضرين .

وبعدها خرج أبو محمد إلى مجالس العلماء [6] ، فتردد على ابن الجَسُور [7] ، وجلس إلى الرهونى [8] ، وانضم إلى حلقات أبى القاسم المصرى [9] ، وأخذ عن هؤلاء وغيرهم ، واتجه حينئذ نحو العلوم الدينية بنوع خاص ، وظل يواصل التحصيل فى قرطبة برغم ما فيها من أحداث أوائل الفتن ، حتى اضطرته أعمال العنف ومطاردة أنصار

---

(١) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى السقوط ، ص٣٥٢ ، دار المعارف ، الطبعة السادسة ، ١٩٥٨م .
(٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى السقوط ، ص٣٥٣ .
(1) Maria Luis Avila: "Las mujeres sabias de Al-Andalus", P. 148, Madrid, 1989.
- Asin Palacios: Abenhazam de Cordoba, Vol. Madrid, 1927.
(٤) د. الطاهر أحد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة : ص ٦٦ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨١م .
(٥) د. الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم : ص ٦٧ ، دار المعارف ، ١٩٩٣م .
(1) Julian Ribera: La enenanza entre los musu lmanes españoles, Madrid, 1928, PP. 229-359.
(٧) انظر : الضبى : ترجمته فى : بغية الملتمس رقم ١٤٣ . نشره كوديرا ، ١٨٨٤م .
(٨) انظر : ابن بشكوال : ترجمته فى الصلة : رقم ٥٩٤ .
(٩) انظر : ابن بشكوال : الصلة : جـ١ ، رقم ٧٥٦ ، طبعة مدريد ، ١٨٨٢م .

الأمويين إلى الهجرة ، فترك قرطبة عام ٤٠٤هـ [1] ، واختار مدينة ألْمرية ، وهناك واصل درسه وتحصيله الذى بدأه فى قرطبة .

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم ، بل دفعته إلى بعض النشاط السياسى فقبض عليه فى ألْمرية ، لما عُرف عنه من الولاء للأمويين ، وسجن حينًا ثم نفى ، فتوجه إلى حصن القصر ، ولما علم أن أمويًا يُدعى له فى بلنسية وهو عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى ، انتقل ابن حزم إلى بلنسية ، ولكن حركة هذا الأموى فشلت ، واعتقل ابن حزم حينًا ، ثم أطلق وتوجه إلى قرطبة عام ٤٠٩هـ ، وفيها استأنف حياته العلمية والأدبية ، ثم كانت البيعة لعبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، وكان محبًا للمفكرين والأدباء فاستوزر ابن حزم ، ولكن المستظهر سقط بعد قليل ، فقام مقامه المستكفى ، فسجن ابن حزم حينًا ، ولم يطلقه إلا سقوط المستكفى ، وخرج ابن حزم من السجن وقد عجز عن عمل أى شىء لنصرة بنى أمية ، وعلى فى شرق *Jativa* مرارة مما لاقى من السياسة ، وربما على عزيمة أيضًا قرر الانصراف إلى العلم ، فهاجر إلى شاطبة الأندلس ، وكان قد نضج علميًا وفنيًا ، وهناك ألف أعظم كتبه الأدبية " طوق الحمامة " ، ثم ألف أعظم كتبه العلمية " الفصل فى الأهواء والنحل " . [2]

- شيوخه :

كان أبو محمد على بن حزم ابنًا لأحمد بن حزم وزير المنصور ، وقد صحب فى شبابه شيخه وأستاذه أبا على الحسين بن على الفاسى .

ودرس أبو محمد بن حزم الحديث على أبى عمر أحمد بن محمد بن الجَسُور دراسة طيبة ، فتهيأ له بذلك أساس مكين بنى عليه فيما بعد معارفه بأصول الدين والشرع ، ودرس " تاريخ الطبرى " ، دراسة فهم وتمعن فأصاب من ذلك إدراكًا طيبًا لتاريخ البشر والأديان ، كذلك سمع الحديث على أبى عمر الثلمنكى المحدث النابه ، وتعلم المنطق على يدى الكتانى ، وكان طبيبًا من مدرسة مسلمة المجريطى ، ودرس الأدب على أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأذدى ، وعرف فى مجلسه أبا عبد الله محمد بن يحى بن محمد الحسين المعروف بابن الطبنى وأخاه ، وكانا من أفذاذ الشعراء ، ولابد أنه ساهم كذلك فى مجالس الأدب التى كانت شائعة فى تلك البيئة المهذبة المثقفة الرفيعة التى نشأ فيها .

وأيًا ما كان الأمر ، فقد اختار ابن حزم فى هذه الفترة المبكرة من حياته ، أن يكون واحدًا فى رفقة من الأصفياء ، ربطت بينهم صداقة وطيدة ، أقلية من الأصدقاء العشاق المصقولين ، تنتمى إلى أعلى طبقة فى المجتمع القرطبى ، عرض ابن حزم لبعضهم فى " طوق الحمامة " وأثنى عليهم كثيرًا ، يتميزون بالأناقة ، ويرتدون أفخم الثياب ، فى أحدث الأنماط ، يفتنهم الجمال ، وتستهويهم الطبيعة ، تطربهم الموسيقى ، ويفضلون الأدب ، ويتبعون فيه منهجًا ثوريًا .

- النزعة الموسوعية فى التأليف :

يعتبر ابن حزم من أكثر أهل الإسلام تصنيفًا للكتب ، فقد صنّف فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل ، وغير ذلك من كتب التاريخ وكتب الأدب والفلسفة ، والرد على المخالفين له ، نحوًا من أربعمائة مجلد ، تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة [3] ، وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله ، إلاّ لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، وبعض هذه المجلدات كما نعرف رسائل صغيرة ، ولو أن ذلك لا يقلل من جهد المؤلف ولا من قيمة الرسائل .

وقد وصف ابن حيان نزعة ابن حزم الموسوعية فقال إنه : " حامل لواء من حديث وفقه ، وجدل ، ونسب ، وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة فى كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق ، والفلسفة ، وله فى بعض تلك الفنون كتب كثيرة " . [4]

فقد ألف ابن حزم كثيرًا من المؤلفات فى فنون مختلفة ، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية ، ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم ، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك اليد

---

(١) انظر : الطوق : ص ١١٠ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٢) د. طه الحاجرى : ابن حزم صورة أندلسية ، ص١٥٣ – ص١٥٤ ، طبعة الاعتماد ، القاهرة .
(٣) محمد أبو زهرة : ابن حزم حياته وشعره وأراؤه وفقهه : ص ١٨٦ ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٤م .
(٤) ابن بسام : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة : ق ١ ، جـ ١ / ص ١٤٠ ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .

العادية ، وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث . [1]

ففى الفقه والأصول ، ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب " الإبطال " الذى وضح فيه دقائق المذهب الظاهرى ، وله أيضًا كتاب " المحلَّى " الذى يناقش أصول المذهب الشافعى . كذلك له كتاب " الخصال " الذى ضاع ، والغالب أنه كان يشرح فيه أصول المذهب المالكى . ثم كتاب " الإيصال " الذى أوجز فيه ما جاء فى كتاب " الخصال " .

وفى التاريخ له كتاب " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " وهو حافل بما فيه من تاريخ نقدى للأديان والمذاهب .

وفى الفلسفة ألف ابن حزم كتبًا فى مراقب العلوم والمنطق ، وفى نقد أبى بكر الرازى ، ولكنها ضاعت ، وبقى لنا كتاب " الأخلاق والسيّر فى مداواة النفوس " ، وفى التاريخ خلّف لنا ابن حزم عدة رسائل وكتب ، ومن ذلك : كتاب " جمهرة أنساب العرب " [2] ، و " نقط العروس " . [3]

ولابن حزم رسالة مشهورة فى " بيان فضل الأندلس وذكر علمائه " [4] ، وكذلك فى التاريخ " الإمامة والخلافة " ، وفهرست " ما كان له من الشيوخ " ويبدو أنهما من كتبه المفقودة .

هذا ولم يكن ابن حزم عالمًا مبرزًا فقط ، وإنما كان أديبًا شاعرًا وناثرًا أيضًا ، وقد مضت مؤلفات ابن حزم العلمية ، أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعًا كتابه " طوق الحمامة " والذى سنحاول التعرف على مادته ، ومنهج ابن حزم الذى اتبعه فيه فى السطور القادمة .

- كتاب طوق الحمامة لابن حزم :

يعد الطوق من أهم ما ألف ابن حزم فى باب الأدب ، وهو رسالة عن " الإلفة والأُلاّف " أى الحب والمحبين ، ويقع الكتاب فى ثلاثين فصلاً تدور كلها حول موضوع معين من موضوعات الحب ، مُرسلة كلها بطريقة متشابهة يلتزمها ابن حزم فى كل فصل منها ، فيبدأ بتعريف نوع الإلفة الذى يدور عليه الفصل أو يصف خاصية من خصائصه يتخيرها ، ثم يورد طائفة من الحكايات الواقعية ليدلل بها على صحة ما يقول ، ويتخلل الكلام قطع من شعر ابن حزم نفسه .

وقد وضع ابن حزم فصول الكتاب [5] كلها فى أقسام أربعة تجمع ثلاثين بابًا ، وقد أورد بيان تقسيم كتابه فى الباب الأول منه – عن ماهية الحب – فقال :

" وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابًا ، منها فى أصول الحب عشرة ، فأولها هذا الباب ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب التفسير " . [6]

وفى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابًا وفيها يقول : " وإن كان الحب عَرَضًا والعَرَضُ لا يحتمل الأَعْراض ، وصِفةً والصِفةُ لا تُوصف . فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصّفة مُقامَ الموصوفِ ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضًا أقلّ فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبحُ فى إدراكنا لها علمنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان ، من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزّي ، لأنها لا تشغل مكاناً ؛ وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طيّ السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت . [7]

وذكر أن الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب : " وهى باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلوّ ... " . [8]

" ومن هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر وهما باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، وباب الهجر وضده باب

---

(١) روى أبو رافع عن الفضل بن على بن حزم أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، انظر الترجمة رقم ٨٩١ فى كتاب الصلة لابن بشكوال .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، نشره ليفى بروفنسال فى القاهرة ، ١٩٤٨م .

(٣) ابن حزم : نقط العروس ، نشره د. شوقى ضيف ، القاهرة ، ١٩٥١م .

(٤) المقرّى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : جـ٢ / ص١٢٥ ، تحقيق : إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨م .

(2) El Collar de la paloma, Traduccion de Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1967.

(٦) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١١ ، تحقيق د. عبد القادر محمد مايو ، دار القلم العربى ، ٢٠٠٤م .

(٧) ابن حزم : طوق الحمامة : تحقيق : د. عبد القادر محمد مايو ، ص ١١ ، دار القلم العربى ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق : د. الطاهر مكى : ص ١٧ .

الوصل ، ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معانى الحب ، وهى باب الرقيب ، وباب الواشى ، ولا ضد لهما إلا ارتفاعهما ، وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا فى ذلك ، ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصّيناه " . [1]

ثم باب البين وضده تصاقب [2] الديار ، وفيه يقول : " وليس التصاقب من معانى الحب التى نتكلم فيها " .

وباب السلوّ وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلوّ ارتفاع الحب وعدمه .

ثم أورد بابين ختم بهما الرسالة ، وهما : " باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف " ، ليكونا خاتمة إيراده وآخر كلامه الحضُ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد أشار ابن حزم فى مقدمة كتابه إلى أنه خالف فى تريب هذه الأبواب حتى تتناسب مع بعضها البعض ، يقول : " لكنا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب ، أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجلعنا الضد إلى جنب ضده ، فاختلف المساق فى أبواب يسيرة " . [3]

كما بين لنا ابن حزم أن صور الحب كثيرة ، من الحب الإلهى إلى الهوى الذى يقصد به إلى الإمتاع والمسرة ، وأشار إلى أن أحدًا لا يسلم من مس الهوى سواء أكان من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين ، أم من كبار الرجال ودعائم الدول أم من الصالحين والفقهاء " . [4]

قدم لنا ابن حزم فى كتابه تعريفًا للهوى ، يقول : " هو اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، [لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة : الأرواح أُكَر مقسومة ، لكن على سبيل مناسبة قواها فى مقر عالمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال] ، والشكل دأبًا يستدعى شكله ، والمِثل إلى مثله ساكن ، وللمجانسة عمل } هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها {محسوس وتأثير شاهد ... [والله عز وجل يقول : [5] فجعل علة السكون أنها منه] ، ونفى ابن حزم أن يكون علة الحب هو الجمال الحسى يقول : " ولو كان علة الحب حُسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة ، [ونحن كثيرًا ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه] ، ولو كان للموافقة فى الأخلاق [لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شىء فى ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها ، فمن ودَّك لأمر ولَّى بعد انقضائه] .. " . [6]

كما وضح ابن حزم أهم علامات الحب قال : " إدمان النظر ، والعين باب النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها والمعبرة لضمائرها والمعربة عن بواطنها .. " [7] ، وبين الأسباب التى ينجم عنها الحب (كالرؤية فى النوم أو سماع الوصف وما إلى ذلك) ، ثم وضح أن هناك صفة ، واحدة ذات وقع شديد على المحب وهى الحب من نظرة واحدة ، كما حدث ليوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادى مع الجارية خولة [8] ، ثم عقد فصلاً عمن " أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها " يذكر فيه أن " للحب حكمًا على النفوس ماضيًا وسلطانًا قاضيًا ، وأمرًا لا يُخالف ، وحدًّا لا يُعصى ، ومُلكًا لا يُتعدى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفاذًا لا يرد ، وأنه ينغص المِرَر ، ويَحُلُّ المبرم ، ويُحلِّل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغاف ، ويحل الممنوع " [9] . ثم يحلل غرائب المحبين ويقول : " لقد شاهدت كثيراً من الناس لا يتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ولا اختلال بحسن اختيارهم ، ولا تقصير فى حدسهم ، قد وصفوا أحبابًا لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ، ولا يُرْضى فى الجمال ، فصارت هجّيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم ، ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن أو هجر ، أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلها " [10] . ومضى يحلل عشق الناس لهذه الصفات الخاصة ، حتى الشائنة منها ، يقول : " وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القصر فما أحب طويلة بعد هذا " ، ثم يقول : " دعنى أخبرك : إنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن أو على صورة الحسن نفسه " [11] . ثم أشار إلى

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٢ ، تحقيق : د. عبد القادر مايو .
(٢) تصاقب الديار : قربها .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٣ ، تحقيق : د. عبد القادر مايو .
(٤) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٤ – ص ١٥ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٥) الأعراف : ١٨٩ .
(٦) طوق الحمامة : ص ٢١ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٧) طوق الحمامة : ص ٢٧ ، تحقيق د. الطاهر مكى .
(٨) طوق الحمامة : ص ٤٢ ، تحقيق د. الطاهر مكى .
(٩) طوق الحمامة : ص ٤٧ ، تحقيق د. الطاهر مكى .
(١٠) طوق الحمامة : ص ٤٧ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(١١) طوق الحمامة : ص ٤٨ ، تحقيق : د. الطاهر مكى ، ص ٦٠ ، عبد القادر مايو .

خلفاء بنى مروان وتفضيلهم للشقراوات ، يقول : " أما جماعة خلفاء بنى مروان ، رحمهم الله ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف " [1] . ثم يصف حلاوة الوصل لاسيما بعد طول الهجر يقول : " ولقد جربت اللذات على تصّرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنّو من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوْبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل لاسيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر ، حتى يتأجّج عليه الجوى ، ويتوقد لهيب الشوق ، وتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب السواريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقن بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه .. " [2]

كما يذكر لنا ابن حزم فى طوقه صوراً متعددة للهوى العذرى فى باب " القنوع " والحب فى هذه الصور كلها إنما هو عاطفة نبيلة رفيعة ، يقول : " إن هناك وجوهًا كثيرة للقنوع بالحب ، منها الاطمئنان على سلامة الحبيب " ومما يدخل فى هذا الباب شىء رأيته ورآه غيرى معى ، أن رجلاً من إخوانى جرحه من كان يُحبّه بمدية ، فلقد رأيته يُقبّل مكان الجرح ، ويندُبه مرة بعد مرة " [3] . ويذكر فى موضع آخر كيف يقنع المحب بتقبيل التراب الذى وطئه قدم الحبيب ، يقول : " أخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر ، أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوماً فى بعض المتنزهات ماشياً ، وامرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أُبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه ، فجعلت تقبله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله " [4] ، وأنشد ابن حزم فى هذا المعنى الأبيات التالية على لسان تلك التى قبلت موطئ قدم الحبيب :

يلومـوننى فـى مَـوْطئٍ خُفَّـه خطـا ∴ ولـو عَلمـوا عـادَ الـذى لامَ يَحْسُـدُ

فيـا أهـل أرض لا تجـود سـحابُها ∴ خُـذوا بوصـاتى تسـتقلّوا وتُحمـدوا

خـذوا مـن تـراب فيـه موضـعُ وطئـه ∴ وأضـمن أن المَحْـل عنـدكم يُبعّـد

فكـلُّ تـرابٍ واقـعٌ فيـه رجلـهُ ∴ فـذاك صـعيدٌ طيّـبٌ لـيس يُجحـد

كـذلك فِعْـلِ السـامريّ وقـد بـدا ∴ لعينيـه مـن جبريـل أثـرٌ ممجّـد

فصيّر جوفَ العِجل من ذلك الثرى ∴ فقـام لـه مِنـه خُـوارٌ ممّـدد [5]

ومن أحسن فصول الكتاب إبداعًا الفصل الذى يدور حول " السلوّ ، فهو يدور حول الموت القاسى الذى يرد فى صورة هى أقوى من الحب نفسه ، والسلوّ أمر يعاتب فيه ، أو يصفح عنه ، حسب أسبابه ، فإذا كان سببه الإعراض ومجرد الرغبة فى التبديل فهو مذموم مستنكر ، وأما إذا كان سببه الفراق الذى لا حيلة فيه ، أو البعد المحتوم عن الحبيب (كما حدث لابن حزم فى هواه بإنسانة مجهولة) ، أو جفوة الحبيبة أو خيانتها ، فلا لوم فيه ، وإذا كان الدافع إليه أمر فوق طاقة المحبين ، كالموت أو البعد الطويل ، فلا عتب فيه على المحبين " . [6]

كما يروى ابن حزم حكايات كثيرة عن الشهادة فى سبيل الهوى ، فيذكر لنا أخبار أناس ماتوا إذ فقدوا الحبيب ، أو لأنهم لم يستطيعوا البوح بما ضمته جوانحهم ، ومن أغرب هذه الحكايات قصة رجل أندلسي : " باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً لفاقة أصابته من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع ، فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسى تخرج . [7]

وفضلاً عن الفصول المتعلقة بالحب والمحبين فإن كتاب ابن حزم هذا ، يقدم لنا تفاصيل عظيمة القيمة ، عن حياة الأندلسيين فى بيوتهم خلال القرن الحادى

---

(١) طوق الحمامة : ص ٤٨ ، تحقيق : د. الطاهر مكى ، ص ٦٠ ، ص ٦١ ، عبد القادر مايو .
(٢) طوق الحمامة : ص ٣٩ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٣) طوق الحمامة : ص ٣٠ ، تحقيق د. الطاهر مكى .
(٤) طوق الحمامة : ص ١٣١ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٥) طوق الحمامة : ص ١٣١ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٦) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٤١ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٧) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٥٩ ، بتحقيق : د. الطاهر مكى ، و ص ٢٢٥ ، تحقيق : عبد القادر محمد مايو .

عشر ، فهو يصور لنا المآسى التى كانت تحدث فى بيوت المساتير خفية تحت سُتر شتى على أيدى " بعض صنوف النَّساء ، كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصّناع فى المغزل والمنسج وما أشبه ذلك " [1] . كما أشار ابن حزم فى كتابه إلى قصص المحبين ذوى الحيلة والابتكار ، أو المستهترين والأنذال ، كما يذكر كيف أن سيدة من شريفات أهل قرطبة قضت ليلة كاملة متدثرة بملابس بعلها المتوفى ، ويحدثنا عن المنصور بن أبى عامر فى علاقاته بمن كان يهوى من النِساء ، فيذكر أنه كان ملولاً من النِساء " يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه ، حتى يملكها ولو حال دون ذلك شوك القتاد . فإذا أيقن بتصيرُّها إليه عادت المحبة نفارًا ، وذلك الأنس شرودًا ، والقلق إليها قلقًا منها ، ونزاعه نحوها نزاعًا منها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان أكثر دأبه حتى أتلف عشرات الألوف من الدنانير ... ولقد مات من محبته جوارٍ كن علَّقن أوهامهن به ، فخانهن فيما أمَّلنه منه فصرن رهائن البلى وقتلهن الوجد " . [2]

ويروى لنا كذلك الكثير من مآسى المروانيين (بنى أمية) ، ويذكر كيف أن بعضهم قضى نحبه شهيد الهوى ، والكتاب إلى ذلك حافل بالمعلومات القيمة عن حياة ابن حزم نفسه ، نتعرف منها شيئًا من أخلاقه وما عرض له من الحب ، ونلم بالكثير عن أصحابه ، ووقائع حياته السياسية ، كل هذا يتضمنه " طوق الحمامة " إلى جانب تحليل عاطفة الحب ، وما يتصل بها تحليلاً نفسياً لطيفاً ، فضلاً عما يضمه الكتاب من مقطعات شعر ابن حزم الجميل .

إذن فالكتاب سيرة ذاتية ، أو هو قريب منها ، للجانب العاطفى من حياة ابن حزم ، وهادٍ إلى الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ، ممن شغلوا مناصب رفيعة فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه . والكتاب مصدر هام لهذا الجانب من حياة فقيه قرطبة العظيم .

والخلاصة أن قيمة طوق الحمامة ليست ، فيما أشتمل عليه من قصص الحب فحسب ، وإنما أيضًا فى تلك الحكايات الكثيرة التى يرويها ابن حزم والتى تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية التى توقفنا على أسرار حكام ورؤساء ، وترفع الستار عن بيوت وقصور ، وتنبه إلى ما كان لصنوف من النِساء من نشاط فى دنيا المحبين ، كالطبيبة ، والحجامة ، والدّلالة ، والماشطة ، والمغنية ، والمعلمة ، وما إلى ذلك .

وهناك قيمتان أخريتان للكتاب ، الأولى : اشتماله على كثير من الأخبار التى تلقى ضوءًا على حياة ابن حزم نفسه . والثانية : تضمنه الكثير من شعره بالإضافة إلى نثره ، فهو عمل ابن حزم الأدبى الأول الذى يدخل به مع الناثرين والشعراء المجيدين من أوسع الأبواب .

- منهج ابن حزم فى الكتاب :

- يتضح لنا عند قراءة كتاب طوق الحمامة لابن حزم ، أن صاحبه كتبه على عجل وبإيجاز ، استجابة لرغبة طارئة ، وتلبية لشعور ملم . فليس فيه طابع الاستقصاء العلمى أو محاولة الإحاطة بكل جوانب الموضوع من ناحية التأليف ، بل هو دفعة نفسية تعبر عن جانب ذاتى واضح لصاحبها ، ويتسق هذا مع ما شاع فى الكتاب من قصد فى القول ونأى عن الاستطراد ، ومجانبة للروايات المستفيضة والأشعار المروية .
- وعلى عادة أكثر المؤلفين الأقدمين يذكر ابن حزم أن رسالته هذه تلبية لرغبة صديق أثير وأخ مجاب النداء ، ولا نستطيع أن نثبت ذلك أو ننفيه ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون الأمر كما ذكر أو يكون الصديق المذكور تعلة للإفصاح ووسيلة للبيان .
- التزم ابن حزم فى دراسته للحب جانب الحقيقة ، لا يركن إلى الخيال أو يجنح للتزيد ، وذلك لالتزامه بمنهج التجربة ونفوره من الظنون والخيالات والأساطير ، فقد جعل من العلم الصادق والرواية الواثقة سبيله لمعالجة ما يعرض له ، فاقتصر على ما شاهده أو صح عنده بنقل الثقاة ، أى ما وقع تحت حسه وما اطمأن بوجدانه وعقله إلى روايته ، ولذلك يضرب صفحًا عن أخبار الأعراب المتقدمين " فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم " [3] .
- اعتمد ابن حزم فى كتابه على تجربته وملاحظته ، وبذلك يعتبر " طوق الحمامة " فى مجموعه عملاً جديدًا لم يتابع فيه ابن حزم من سبقه على وعى منه ، وهو بذلك يخالف طريقة السيوطى فى تصنيفه لكتابه ، الذى اعتمد على القول وجمع آراء المتقدمين ، واستعراض اتجاهات السابقين ، وهذا الاتجاه يتفق مع شخصية ابن حزم ويتسق مع سمته العامة التى تنفر من التقليد وتعول على أن ينظر إلى الحياة بمنظاره ، لا يقنع بخبر ولا يثق برأى حتى يتبين له صدقه ويقيسه بمقياسه .
- يعد ابن حزم أول أديب يعرض لدراسة الحب فى كتابه دون أن يلقى بالاً للأخبار التى وردت عن عشاق العرب وأقاويل شعرائهم ، ولا يعول إلا على تجاربه ومشاهداته ، وما أخبر الثقة مما يتأكد له وقوعه ، بينما احتفلت الدراسات السابقة له ككتاب " الزهرة لابن داود " ، والتالية " كمصارع العشاق " بأخبار السابقين وأشعارهم ، واستقت قواعد العشق وأحواله من خلال سلوكهم وإحساسهم .

---

(١) أنخل جونثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ٢٣٤ ، ترجمة : د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
(٢) طوق الحمامة : ص ٤٨ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٧ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .

أما ابن حزم فقد كان له من استقلال وجهته وأصالة منهجه ما جعله فى ذلك المجال فذًا متميزًا ، فقد رفض أن يعول على جهد السابقين أو يتبع سبيلهم يقول : " وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ولا أتحلّى بحلى مستعار " . [1]

- إن المنهج الذى ارتضاه ابن حزم لكتابه طوق الحمامة ، يجعل من الممكن أن نقول : إنه تحليل لعاطفة الحب ودراسة لمعانيها فى ضوء التجربة المحدودة بظروف المكان والزمان ومن وجهة نظر ذاتية ، وليس جمعًا للآراء أو تلخيصًا للأقوال ، وليس حشدًا للأشعار والروايات الأدبية – كما فعل السيوطى فى طوقه – كل ذلك بمقاييس المجتمع الخُلقية وعقيدته الدينية .
- بالنسبة لأسلوب ابن حزم فى طوقه ، نجده يميل إلى الترسل والتحرر من الالتزام بالسجع ، فلا يعمد إليه ولا يتكلفه ، ولا نجد فى كتابه من السجع إلا فقرات قليلة جاءت عفو الخاطر لا كدّ فيها ولا عناء ، وأغلب الظن أنه أتى بها حلية وطرافة وإثباتًا لقدرته فى هذا المجال . ولا يخفى أن السجع إذا أتى عفو الخاطر دون عناء أو كد أو استكراه ، فهو من مستحسن الكلام ولطيفه ، لما فيه من جرس عذب وموسيقى موحية .

ولقد جاء سجع ابن حزم قصير الفقرات رشيق الكلمات يأتى غالبًا فى مجال الوصف لا فى مجال الشرح أو التقرير ، فيساعد على تمثيل الصورة والإيحاء بها ، فمن ذلك قوله يصف جارية ألفها فى صباه : " عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسْبَلَةُ الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة العقود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها " . [2]

فالسجع هنا لم يخرج بالكلام عن سننه ولم يعدل بنا إلى غير قصده ، بل جاء عفوًا فى سياق الكلام ليعبر عن فورة عاطفية فى تذكر ابن حزم لهذه الجارية ورغبته فى الإيحاء إلينا بسماتها الدقيقة لا يخطئ منها سمة ، وتصوير خصائصها كاملة .

- وما عدا السجع فإن ابن حزم قد يعمد إلى العبارات المترادفة يصور فكرته أو يوضح رأيه ، انظر إليه يقول : " واعلم – أعزك الله – أن للحب حكمًا على النفوس ماضيًا وسلطانًا قاضيًا ، وأمرًا لا يخالف وحدًا لا يُعصى ، وملكًا لا يتعدى وطاعة لا تُصَّرف ، ونفاذًا لا يُرد . وإنه ينقض المرر ، ويحل المبرم ، ويحلل الجامد ويخل الثابت " . [٣]

فالترادف هنا فى العبارات لم يأت لمجرد استعراض القدرة البيانية لدى ابن حزم ولا إيثارًا لجانب الألفاظ ، ولكنه يعبر عن حماسة ابن حزم لفكرته ورغبته فى تأكيدها وتوضيحها .

- برع ابن حزم فى الوصف كل البراعة وكان أسلوبه عذبًا رقيقًا يتلون بلون العاطفة التى تستولى عليه حين الوصف ، ومن أجمل ما نجده فى " طوق الحمامة " من أساليب ابن حزم الوصفية قوله يصف دور آل ابن حزم ببلاط مغيث ، بعد أن وقعت المحنة بابن حزم وخرج من قرطبة ، فهو يصف ما آلت إليه تلك الديار فى الجانب الغربى من قرطبة يقول : " وقد امّحت رسومها وطُمست أعلامها وخفيت معاهدها ، وغيرها البِلى ، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعابًا مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ومعازف للخيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية " . [٤]

فابن حزم دقيق فى وصفه ، يبرز السمات ، ويوضح الملامح ويستقصى ويتتبع ويربط ذلك كله بعاطفته ، فيلون الوصف بها ، ويعرض لنا صورة لنمو عاطفته الحزينة إزاء ما تخيله من صورة الماضى الذاهب حتى يبلغ بنا ذروة حزنه .

ويرجع جانب كبير من إبداع ابن حزم فى الوصف إلى إجادته للتشبيه ، وابتكاره فى صوره ، بعيدًا عن الصور المستهلكة والتعبيرات المألوفة ، فهو ينتزع تشبيهاته من بيئته المترفة ذات المناظر المتنوعة والصور البديعة .

- لا نجد كتابًا عرض لموضوع العشق بعد ابن حزم معتمدًا على طريقته أو سائرًا على منهجه ، حتى بين كُتّاب الأندلس أنفسهم . وتلك نتيجة محتومة لانفراد

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص١٧ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٢) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص١٢١ ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الحرم للتراث ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص١٢١ ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، دار الحرم للتراث ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .
(٤) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص١٦٠ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .

ابن حزم بمنهجه بين كتاب عصره فقد عرضه ذلك كما يشير أحد الباحثين إلى " أنه ظل غريبًا بين من تعرضوا لدراسة الحب " . [1]

ولم يأت بعد ابن حزم من يؤمن بمنهج التجربة هذا الإيمان ، ويضيق بالتقليد والنقل عن المأثور هذا الضيق الذى كان من ابن حزم .

ولم يأت بعده من أفضى إلينا بذات نفسه وكشف لنا عن بواطنه فى هذه الصراحة وهذه الجرأة ، كما صنع ابن حزم ، الذى كان لا يعول إلا على الحقائق التى لا يمكن وجود سواها .

ولم يأت بعده من يصر على أن يضع مواضعات عصره وملامح بيئته أمامه وهو يكتب فى هذه العاطفة التى عولجت من وجهة نظر الأدب أكثر مما عولجت من الجانب الاجتماعى الواقعى .

لذلك ظل " طوق الحمامة " فذًا فى اتجاهه غريبًا فى منهجه ، حتى يومنا هذا ، لم يشبه كتاب ولم يسلك طريقه مؤلف .

ولا ينفى هذا أن يكون لطوق الحمامة تأثير جزئى فى خبر يُنقل عنه أو إشارة إلى معنى فيه ، ولكن هذا ليس التأثير المطلوب ، ولكننا نعنى به تأثير المنهج والاتجاه ، وتأثير الأفكار والمعانى ، فتلك أمور ظل فيها ابن حزم علمًا بارزًا بين من تناولوا عاطفة الحب بالدراسة والتحليل .

فالكتاب دراسة فى النفس الإنسانية ، فيما تحب وتألف ، وقد اعتمد ابن حزم فى طوقه على الاستقراء والتتبع ، وما وصل إليه من فلسفة اليونان . [2]

ولقد تعرض الباحثون لكتاب طوق الحمامة ، على أنه دراسة فى الحب والمحبين ، فضلاً عن أنه أضاف إلى معارفنا ، صورة عن الحياة الاجتماعية فى الأندلس ، خلال النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، كما قدّم صورة عن المرأة فى قرطبة ، حيث تمتعت المرأة وقتها بقدر من الحرية ، وهى حرية تتحرك فى نطاق تقاليد العصر ، لم تتمتع بها مثيلاتها فى الشرق ، ومن خلال قراءة فاحصة – لما اطلعت عليه من مراجع كُتبت عن طوق الحمامة – لم أجد من تعرض لمسمّى الكتاب ، ولم أجد من أهتم بالبحث عن مدى مطابقة عنوان الكتاب لموضوعه باستثناء د. الطاهر مكى ، فقد كان معنياً بدراسة الكتاب ، وترجمته وتحرير نصه وهوامشه ، ومناقشة ما أدلى به المستشرقون من آراء ، حول العالم الفقيه القرطبى ابن حزم ، وحول كتابه طوق الحمامة ، وقد وفق فى ذلك كثيرًا ، وقد ذكر د. الطاهر مكى رأيين فى تسمية الكتاب وقد رجح أحدهما :

أما الأول [3] : فيشير فيه إلى رأى المستشرق الإسبانى غرثيا غومث الذى يرى أن كلمة الطوق تعنى العِقد فى حين أن د. الطاهر يرى أن الترجمة الصحيحة والمعنى الراجح لكلمة " الطوق " هى " العنق " وقد شاعت هذه الكلمة عند الغرب منذ الإغريق بمعنى عنق ، ويرى أن ابن حزم استخدم الكلمة هنا بصورة رمزية ، فهو يرمز بها لثروة لا تنفذ من الألوان كما أن موضوع الكتاب يتحدث عن أفكار فلسفية مختلفة عن الحب ، ويدلل على ذلك بقول ابن حزم نفسه فى الطوق حين يقول :

" إنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمور الحب فقط ، وهذا أمر كان يطول جدًا ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرًا " . [4]

وأما الرأى الثانى فهو : " أن رسائل إخوان الصفا دخلت الأندلس على يد العالم الرياضى مسلمة المجريطى ، وكان مسلمة معاصرًا لابن حزم ، وقد قرأ ابن حزم الرسائل التى حملها مسلمة ، وقد رجح د. الطاهر أن هذه الرسائل ، كانت وراء اختيار ابن حزم " طوق الحمامة " عنوانًا لكتابه ، ذلك أن إخوان الصفا أخذوا اسمهم من باب " الحمامة المطوقة " فى كتاب كليلة ودمنة وليس ببعيد أن يكون ابن حزم استلهم عنوانه من هذا الباب ، متأثراً بكليلة ودمنة مباشرة ، أو عن طريق إخوان الصفا ، وقد أعانت فلسفتهم ابن حزم فى تكوين نظرته الفلسفية عن ظاهرة الحب وتفسيرها " . [5]

ولكن ما نراه فى هذا العنوان لابد أن يدرس فى ظل الظروف التى مرّ بها ابن حزم ، لقد خط ابن حزم كتابه وهو فى ريعان شبابه ، يفيض تحدّيًا وحماسة ، وقد اعترضته أحداث من شأنها أن تجرف فى طريقها الخلافة نظامًا وأشخاصًا ، بعد أن كان يراها شرعة يلوذ بها الخائف ، ويحتمى بها الضعيف ومعها تقوم الدولة وتطمئن الجماعة ، وتتطور الحياة ، فدافع عنها ووقف ينظر انهيار الخلافة التى كان فى انهيارها إنهيار لكل القيم الجميلة ، ليس فى قرطبة فحسب وإنما فى الأندلس بأكمله ، لقد سقطت الخلافة ، ومعها أخذت حياة ابن حزم وجهة أخرى ، فقد لونت فكره بظلال قاتمة .

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد : دراسة الحب فى الأدب العربى ، جـ٢/ص٣٠٩ ، دار المعارف ، ١٩٧٢م .
(٢) محمد أبو زهرة : ابن حزم حياته وشعره وآراؤه وفقهه : ص ١٨٦ ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٤ .
(٣) د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ص ١٨٢ ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٣م .
(٤) ابن حزم : طوق الحمامة فى الإلفة والأُلاّف : تحقيق : د. الطاهر أحمد مكى ، ص ١٠٩ ، دار المعارف .
(٥) د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم ، ص ٢٤٣ .

ولهذا جاء كتاب طوق الحمامة كما يرى د. شوقى ضيف : " ليربى الفتاة والفتى بالأندلس موطنه ليكون حبهما نقيّا بريئًا من كل دنس " . [1]

ونظرًا لأن ابن حزم لم يكن يثق فى المرأة كثيرًا ، وهى نتيجة طبيعية لما مرّ تحت عينيه من تجارب وأحداث ، حين كان صبيًّا ، فقد جعل عنوان كتابه " طوق الحمامة " وهو فى الغالب يرمز بالحمامة للمرأة القرطبية ، فهو ربيب حجورهنّ

وقد شب وهو يعرف الكثير من أسرارهن ، وفى ذلك يقول : " لقد شاهدت النِّساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى ربيتُ فى حُجورِهنّ ، ونشأتُ بين أيديهن ولم أعرف غيرَهُنّ ، ... وأصل ذلك غيرة شديدة طُبعت عليها وسوء ظن فُطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل " . [2]

وهكذا ، أراد ابن حزم ، وهو يدفع إلينا بذكرياته أن يضع قيمًا معينة على المرأة ، يجب الالتزام بها ، وأن تتحرك فى حياتها العاطفية داخلها ، ومما يدلل على رمزية العنوان الذى يحمله الكتاب ما قاله ابن حزم عن نفسه فى الطوق ، يقول : " ... وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنًا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت فىّ " . [3]

ومن ذلك أيضًا ، أنه أمسك عن ذكر أى إشارة ، تتصل بحياته الأسرية ، ولم يعرض لأية أحداث ، تتصل بعائلته ، فلم نعرف شيئًا عن زوجه أو أمه ، خارج اعترافاته الذاتية عن غرامياته ، وحتى فى اعترافاته نجده يقطع السبيل على كل راغب فى النيل منه ، فكان بيانه القاطع : " يعلم الله وكفى به عليمًا ، أنى برئ الساحة سليم الأديم ، صحيح البصيرة ، تقى الحجزة ... " . [4]

أما فى اعترافاته وحديثه عن الآخرين فلم يترك نفسه على سجيتها فى رواية الأحداث ، لأنها تمس الجانب الشخصى البحت ، وهى فى نفس الوقت ملك لأصحابها وحدهم .

وعندما يتحدث ابن حزم فى كتابه عن المرأة فى قرطبة ، فإنما يفعل ذلك خبيرًا بهن ، عالمًا بأمورهن ، فهو فيما يحدث عن نفسه يقول : " شاهدت النِّساء ، وعلمت من أسرارهن ما لا علمه غيرى ، لأنى ربيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب " . [5]

لقد اهتم ابن حزم فى طوقه بالبحث عن النِّساء ومعرفة أخبارهن ، وقد أنسن منه الكتمان فكشفن له عن أسرارهن ، وأطلعنه على غوامض أمورهن ، وأشرف من أسبابهن على غير قليل ، فشب يعرف الكثير من دخائل القصور ومؤامرات النِّساء ، وحيل الجوارى ، وأكسبه ذلك شكًا فيهن ، وسوء ظن فى جهتهن ، ولكنه لم يورد لنا كل ما عرف ، ولم يحدثنا بكل ما سمع فأبقى على عورات يستعاذ بالله منها فى طى الكتمان .

وأول ما نلحظ فى حديث ابن حزم أنه يقف عند نساء الطبقة العالية ، أى فتيات الأسر التى ينتمى إلى طبقاتها ، وحتى الجوارى منهن كان يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ولم يعرض لنِّساء مشرقيات إلا نادرًا .

كما لم يتعرض ابن حزم للمرأة فى الطبقة الوسطى أو الدنيا ، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة ، حتى ولو من بعيد عن المرأة المستعربة أو اليهودية ، وهو أمر طبيعى من رجل لا يكتب بحثًا ، وإنما يدفع بذكرياته ، ويحكى ما رأى أو سمع من خلال دراسته عن الحب .

وبما أن الكتاب يهدف إلى تحليل المشاعر العاطفية ، ومواقف العشاق ، جاء الحديث عن المرأة فيه بوصفها طرفًا فى هذه القضية ، ولكى يدعم ابن حزم آراءه قدم عددًا من الوقائع الغرامية ، حدثت فعلاً ، ولو أنه يصعب علينا فى أحوال كثيرة أن نحدد نوع المحبوب : أهو فتاة أم غلام ، أو نعرف ظروفه الاجتماعية ، وأحيانًا ترد القصص فضفاضة ، يعسر علينا أن نستنتج منها شيئًا محددًا ودقيقًا ، وربما تعمد ابن حزم ذلك ، حفاظًا على أسرار الناس ، واحترامًا لحياتهم الشخصية ، وكثيرًا ما كان يُكنى عن الأسماء ، لأنها " إما عورة لا يجب كشفها أو للحفاظ على صديق ودود ورجل جليل ، كما أشار إلى ذلك واكتفى بأن يسمى من لا ضرر فى تسميته ، ولا يلحقه والمسمّى عيب فى ذكره ، " إما لاشتهار لا يغنى عنه الطى ، وترك التبين ، وإما لرضا المخبر عنه بظهور خبره ، وقلة إنكاره منه لنقله " . [6]

نجد أن القصص التى أوردها ابن حزم فى كتابه ولاسيما المتصلة بالجوارى أكثر من تلك التى أوردها وفيها ذكر للحرائر ، إذ أن حياة الحرائر تكسوها الخصوصية أكثر من حياة الجوارى .

---

(١) د. شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات ، ص ١٦٥ ، دار المعارف مصر ، ١٩٨٩م .
(٢) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ٧٩ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق : د. الطاهر مكى ، ص ١٦٥ .
(٤) ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق : د. الطاهر مكى ، ص ١٦٥ .
(٥) ابن حزم : طوق الحمامة ، تحقيق : د. الطاهر مكى : ص ٧٩ .
(٦) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ٤٥ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .

أما فيما يتصل بالأحداث العاطفية المتصلة بالجوارى ، فنحن بإزاء لونين منها : حالات ينص فيها ابن حزم صراحة على أنهن جوارى تجرى عليهن أحوال البيع والشراء أو يدعنا نفهم ذلك يقيناً ، وفى حالات أخرى كان يصمت ويتركنا فى حيرة .

وقد عرض ابن حزم مرة واحدة لحالة فى أسرتهم ، وذكرها بالاسم ، حين حدثنا عن الحب العفيف المتبادل ، بين أخيه أبى بكر وزوجه عاتكة بنت قند ، التى شغّفها حبه وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به ، وكانا فى حدد الصبا وتمكن سلطانه فلما توفى فى الطاعون الذى اجتاح قرطبة عام (٤٠١هـ - ١٠١١م) وهو ابن اثنين وعشرين سنة ، لفها السقم والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام ، ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ؟ [1]

استطاع ابن حزم أن يفصّل القول فى كل باب من أبواب كتابه عن الحب وعوارضه ونتائجه ووقعه فى القلب ، وضرب لنا الشواهد من حياته نفسها ، ومن أحداث وحكايات صحبه ، ووشّى أبواب الكتاب ، بأبيات من شعره ، منشدًا ومتذكرًا ، ولعله فى هذا المسلك كان مستجيبًا لدافع منهجى بحت ، فقد أومأ فى مقدمة طوقه إلى أنه ضائق بتجارب الآخرين التى سبقت ، وفى مكان آخر من الأرض ، ويود أن يرى الأشياء عبر ذاته ومن خلال أحاسيسه ، حتى يفى بما أخذه على عاتقه ، بألاّ " ينضى مطية سواه ، وآلا يتحلى بشعر مستعار " . [2]

لم يذكر ابن حزم فى كتابه ، غير كتاب واحد استقى منه مادته العلمية وهو كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى (٨٦٨ – ٩١٠م) .

وفى مقدمة الكتاب وجدنا ابن حزم يتهيأ ، ليبرر تناوله لموضوعات قد لا تبدو جادة ، مشيرًا إلى الحديث الشريف " أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد " . [3]

وقد صنّف كتابه فى هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث إليه من مدينة ألْمرية ، يسأله أن يصنّف له رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة . [4]

وقد يكون الكتاب قد كتب فعلاً بناء على طلب هذا السائل ، وقد يكون ابن حزم ، كما أشرنا فى السابق قدم ذكر هذا الطالب كتسويغ لتسطيره هذا الكتاب ، وهو ما أرجحه . فإن ابن حزم كان معروفًا بين الأندلسيين كفقيه لا كباحث فى الحب ، فغريب أن يسأله سائل أن يحدثه حديثًا مفصلاً عن الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه لا عن الفقه الظاهرى والأصول والتوحيد وما إلى ذلك مما من شأنه أن يُسأل فيه .

بالنسبة لمجموعة الأشعار التى جاء بها فى " الطوق " فإنها تُكوّن ديوانًا كبيرًا ، والجانب الأكبر منها يظهر فيها أثر الفلسفة والحكمة ، وقد كان ابن حزم مشاركًا فى هذين العلمين وله فيهما نتاج .

وإذا كان كتاب طوق الحمامة لابن حزم كتاب عن الحب والمحبين والحب وثيق الصلة بالشعر ، كلاهما يصور عن عاطفة رقيقة متدفقة ، ويعكس صورة عالم داخلى متوهج وشفاف ، فلا غرو إذن أن يوشى ابن حزم كتابه بالكثير من أشعاره التى بلغت (١٧٩) قطعة بين قصيدة ومقطوعة تتضمن (٧٨٩) بيتًا يتراوح عددها بين البيت الواحد والثمانية والثلاثين بيتًا ، باستثناء القصيدة الأخيرة ، فى الباب الأخير : " فضل التعفف " ، فقد جاءت فى (٨٦) بيتًا ، وهى أقرب ما تكون إلى طبيعة ابن حزم فى شعره .

لم يورد ابن حزم فى كتابه أشعارًا لغيره من الشعراء إلاّ فى حالات لا تتجاوز الثمانى ، جاء فى موضوع منها بأبيات قليلة منسوبة لأصحابها فى ستة مواضع ومجهولة القائل فى موضوعين . فهناك سبعة وعشرون بيتًا فحسب ، تناثرت عبر الكتاب كله ، فى ثمانية مواضع لشعراء غيره ، ويرى د. الطاهر مكى أن هذا القدر من الشعر يعد قليلاً مقارنة بما ورد من أشعار لابن حزم فى ثنايا الكتاب يقول : " وهى لعمرى شىء قليل بجوار ما قال من شعر لا يخلو منه فى الكتاب إلا باب : (الإشارة بالعين) و (المساعدة من الإخوان) فلم يورد فيهما شعرًا له ، ولا لغيره ، وأغلب الظن أنه كان فيها شعر لابن حزم نفسه ، ولكن الناسخ بتره فيما بتر من نصوص الكتاب " . [5]

ويقف المرء مترددًا إزاء الباعث على اقتصار ابن حزم على شعره فحسب : أكان ذلك إعجابًا منه بنفسه وافتنانًا بقدرته الشاعرية ، ورغبة فى أن يسجل إبداعه ، وأن يدفع به إلى ذواكر الناس عبر صفحات كتاب يمثل الآن ، وفى

---

(١) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ١٣٧ ، ترجمة : د. الطاهر مكى .
(٢) د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن حزم وكتابه طوق الحمامة : ص ٢٩٧ .
(٣) التربريزى : مشكاة المصابيح ، جـ١ / ص٤٩٠ ، رقم الحديث ٢١٦٨ (وهو حديث ضعيف) ، تحقيق : د. محمد ناصر الدين الألبانى ، الطبعة الثالثة ، مطبعة المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٥ .
(٤) طوق الحمامة : ص١١ – ص١٢ ، تحقيق : د. الطاهر مكى .
(٥) د. الطاهر مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة : ص ٢٩٥ ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .

عصره ، درة فى عالم الفكر الإنسانى ؟ هناك ما يرجح هذا التفسير ، فإشاراته فى الطوق تؤمئ إلى إعجابه بنفسه ، وافتنانه بمواهبه ، فهو يقدم لأية قصيدة أو مقطوعة ، أو حتى بيت مفرد ، بما يؤكد فى جلاء أنها له ، ولو تكرر ذلك فى الموضوع الواحد عدة مرات ، كقوله :

- ولى أبيات جمعت فيهاً كثيرًا من هذه العلامات .
- وفى ذلك أقول شعرًا .
- وفى مثله أقول فى كلمة طويلة .
- وأقول من قصيدة لى ... وغير ذلك كثير .

ومن المستبعد أن يكون مرد ذلك فقر فى حفظه لشعر غيره لأن التربية فى الأندلس ، كانت تقوم بدءًا على أن يأخذ الطلاب ، وهم صغار بحظ وافر من الشعر ، ينمو مع حياتهم [1] ، وهو نفسه يعترف بأنه درس الشعر صغيرًا ، إلى جانب أن كتبًا أخرى سبقته فى التعرض لدراسة الحب ، وعرف ابن حزم بعضها على التأكيد ، مثل كتاب " الزهرة " لابن أبى داود الأصفهانى ، وهو ظاهرى كابن حزم وكتابه حافل بالأشعار الجاهلية والإسلامية ، وكلها تدور حول العشق .

الأقرب ، فيما أرى أنه كان مستجيبًا لدافع منهجى بحت ، فقد أومأ فى مقدمة الطوق إلى " أنه ضائق بتجارب الآخرين التى سبقت ، وفى مكان آخر من الأرض ، ويريد أن يرى الأشياء عبر ذاته ، ومن خلال أحاسيسه ، حتى يفى بما أخذه على عاتقه ، بألا " ينضى مطية سواه ، وألاّ يتحلى شعر مستعار " وأن يتجاوز أخبار القدامى مهما كثرت ، لأن سبيله غير سبيلهم " .

واستطاع ابن حزم فى كتابه أن يعرض رأيه فى الشعر حين عرض فى باب " السلوّ " للشعراء الذين يدمنون البكاء على الأطلال ، ويطرون المثابرة على اللذات ، وأن أبا نواس من بينهم أكثر فى هذا ، وافتخر به ، فلما نظم ابن حزم أبياتًا كلفته بها " ضنا العامرية " ابنة " المظفر عبد الملك " الحاجب ، لتقوم بتلحينها ، قالها على طريقة أبى نواس ، ذمّ فيها بكاء الأطلال ، وابتدأها بالدعوة إلى الشراب بين الرياض ، على نغمات الموسيقا ، ثم عقب على رأيه هذا قائلاً : " ومعاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعًا ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقًا ، وكساد الهمة لنا

ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم {صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدق من الله قيلا فى الشعر : [2] فهذه شهادة الله العزيز الجبار لهم ، ولكن شذوذ الشاعر عن مرتبة الشعر خطأ [3] . أى أن {يقولون مالا يفعلون من يقول الشعر عليه أن يلتزم بقواعده وقوانينه ، ونهجه وطرائقه .

جاء الشعر فى طوق ابن حزم مكملاً لنثره وتوشية للمعانى التى احتواها ومتممًا للأفكار التى نثرها ، وبالتالى تعددت أغراض شعره فيه بتعدد موضوعات الكتاب وكان ابن حزم قد تناول فيه الحب ودواعيه ، والوصل ومتعته ، والنفس ونوازعها والحزن وأسبابه ، والتضحية ومواطنها ، والصبر وثماره ، فقد غطى شعره كل هذه القضايا ، وما اتصل بها من وصف ومدح ، ورثاء وحكمة ، وما من خبر إلا واستشهد عليه ابن حزم بأبيات من الشعر ، تأكيدًا لرواياته ، و إظهاراً لشاعريته أو استجابة لدوافع داخلية فى القليل .

كذلك حفل طوق ابن حزم بالنثر إلى جانب الشعر ، وإذا وازنًا بين الشعر والنثر رجحت كفة النثر فنيًا ، فقد حفل النثر بالصور البيانية الجميلة ، وجاء موفقًا فى جُله ، كما جاء سجعه فى موضعه ، طبيعيًا وغير متكلف ، وجمله قصيرة ذات نغم موسيقى ، وكان يلح على المعنى مستقصيًا حتى يأتى على جميع جوانبه ، وربما خرج به هذا الاتجاه إلى لون من الإطناب الملحوظ ولكنه غير مستكره ، فتتوارى الجمل لتؤدى فكرة واحدة فى عذوبة وتناسق ، كما حفل نثره بألوان من الطباق والمقابلة ، وجاء الجناس عنده قليلاً .

لقد خرج ابن حزم بالنثر فى طوق الحمامة على القوالب الموروثة , وقدم عملاً أصيلاً بدت فيه شخصيته واضحة ، وعبر فيه تعبيرًا صادقًا عن أحاسيسه ومشاعره ، وأفكاره وانفعالاته ، على حين جاء الشعر تقليديًا محضًا متكلفًا فى كثير من الأحيان ، يسير على خطى الشعراء قبله معنى وشكلاً وأغراضًا ، مباهيًا بأنه يجاريهم ، ويحاول أن يتفوق عليهم ومجرد التصريح بهذا القول ينزع عنه صفة الابتكار ويضعه فى دائرة التقليد ويقعد به عن التحليق عاليًا فى سماء الخيال والتعبير .

لقد درس ابن حزم فى طوقه ، حالة المحبين ، مبينًا ما ينبغى أن يكونوا عليه من صفات وأخلاق ، حتى يكون الحب كريمًا ، وقد استبعد د. إحسان عباس أن يكون للكتاب غايات أخلاقية ، لأنه قائم – فيما يقول – على التجريب [4] والحقيقة أن اعتماد الكتاب على التجريب يؤكد صلته العميقة بحياة الإنسان وسلوكه وأخلاقه ، ويرى أحد الباحثين أن

---

(١) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ص ١٧٢ ، ترجمة : د. محمود على مكى ، دار المعارف مصر .
(٢) سورة الشعراء : الآيتان : ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٣) ابن حزم : طوق الحمامة : تحقيق : د. الطاهر أحمد مكى : ص ١٥٠ ، دار المعارف ، ط ٦ .
(٤) د. إحسان عباس : رسائل ابن حزم : جـ١/ ص ٥٣ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

" كتابة ابن حزم ، لم تكن أوصافًا جامدة ، بل هى تقييم للحب الذى يتحدث عنه ، من منظور أخلاقى " [1] ، كما مثلت عناوين الكتاب التى وضعها ابن حزم صفات أخلاقية ، يجب على المحبين أن يلتزموا بها ، فهى بمثابة تنظيم وتهذيب ، لحالة ضعف ملازمة للإنسان بما هو إنسان ، أما خاتمة الكتاب فدعوة أخلاقية صريحة لتأسيس تجربة الحب على القيمة الخُلقية حتى لا تتحول التجربة إلى شقاء .

الفرق بين طوق الحمامة المصرى والأندلسى

قد يتفق الكاتبان فى العنوان " طوق الحمامة " عند كل من ابن حزم والسيوطى ، ويختلف المحتوى ، فالإثنان اتخذا من " طوق الحمامة " عنوانًا لكتابه ، ولكن شتان ما بين المحتوى والمعالجة عند كل منهما .

فمن العرض السابق للكتابين يتبيّن لنا أن " طوق الحمامة لابن حزم " كتاب فى الحب وما يتعلق به من أمور بين المحبين كأعراضه ومعانيه ، ودواعيه ، وأسبابه وغيرها .

أما كتاب السيوطى فهو مختص بالحمام واقتنائه وصفاته وأحواله ، وحبسه وغيرها من الأمور المتعلقة بالحمام .

من المعروف أن السيوطى عاش بعد ابن حزم الأندلسى ، بحوالى خمسة قرون من الزمان ومن الأرجح أن يكون قد قرأ كتاب ابن حزم لاسيما وأن العديد من المؤلفات الأندلسية كانت قد انتشرت فى مصر والمشرق عن طريق الأندلسيين والمغاربة الذين وفدوا إلى بلاد المشرق ، وربما أخذ عنوانه من عنوان ابن حزم مباشرة .

وعند مطالعة كتاب طوق الحمامة للسيوطى تجد أن العنوان وثيق الصلة بموضوع الكتاب ، فالعنوان يدل دلالة حسية على ما ورد فى الكتاب الذى تناول الحمام ، وطباعه ، وأحواله ، واقتنائه ، وصفاته ، وغيره من الأشياء التى لها علاقة به .

أما كتاب ابن حزم فعنوانه يدل دلالة رمزية ، ولعله اختار هذا العنوان لما فى العبارة من رقة تتناسب مع محتوى الكتاب ومادته عن الحب ، لهذا بادر بإضافة عبارة " فى الإلفة والأُلاّف " إلى العنوان ، وربما يكون عنوان " طوق الحمامة " قد لاقى استحسانًا عند ابن حزم لما ينطوى عليه من رقة وجمال ، وهى صفات تتفق مع ما تتمتع به الفتاة الجميلة من صفات تجعلها مهبط الأعين ، ومرعى القلوب ، فتتهادى زهوًا وعجبًا ، وخُيلاء ، كأنها الحمامة وداعة واتزانًا ودلاً ، وقد برع ابن حزم فى طوقه أن يصف وداعة ، ورقة ، واتزان الفتاة الجميلة بالحمامة فى مشيتها ، يقول :

- كأنّ مشيتها مشىْ الحمامة لا ∴ كدٌ يُعابُ ولا بطء به باس [2]

كما أن الدافع وراء تأليف الكتابين كان متشابهًا لدى الإثنين ، ولو إنه تشابه بسيط فابن حزم ألف كتابه ردًا على رسالة ردّ بها إلى أحد أصدقائه الذى طلب إليه بأن يكتب له رسالة فى صفة الحب ومعانية وأسبابه وأعراضه ، وقد أشار ابن حزم إلى ذلك فى مقدمة كتابه إذ يقول : " وكلفتنى – أعزك الله ، أن أصنّف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيّدًا ولا مفتنًا ، لكنْ موردًا لما يحضرنى على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعه باعى فيما أذكره ، فبدرتُ إلى مرغوبك " . [3]

---

(١) د. حامد الدباس : فلسفة الحب عند ابن حزم ، ص٣٠ ، الطبعة الأولى ، دار الإبداع ، عمان ، ١٩٩٣م .
(٢) ابن حزم : طوق الحمامة : ص ٩٢ : تحقيق : د. الطاهر مكى ، ط ٦ ، دار المعارف .
(٣) ابن حزم الأندلسى : طوق الحمامة ، تحقيق : د. عبد القادر محمد مايو ، ص ٩ ، دار القلم العربى ، سوريا ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤م .

وكذلك الحال بالنسبة للسيوطى فقد ألف رسالته ردًا على سؤال كان قد سُئله من أحد تلاميذه وقد أشار إلى ذلك أيضًا فى مقدمة الرسالة ، يقول : هذا تأليف فى الحمام يسمى : " طوق الحمامة " دعا إلى تأليفه سؤال سئلته : " هل ورد أن رجلاً شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم الوحشة ، فأمره أن يتخذ زوج حمام " .

والأرجح أن ذلك – ربما – لم يكن على وجه الحقيقة بل ابتدعه السيوطى ليشبع نهمه جريًا على عادته فى طريقته الموسوعية فى كتبه ، فأراد أن يضم حباتِ العقد المفروط من معلومات ذُكرت عن الحمام وصفاته وأحواله واقتنائه فى كتب الحديث والأدب من خلال هذا السؤال الذى جاء بمثابة الخيط الذى نظم فيه حبات ذلك العقد المنفرط ، وهذا ليس بمستبعد عن السيوطى فى تأليفه لكثير من كتبه ، فعادة ما يذكر فى مؤلفاته أن هناك سائلاً سأله سؤالاً .

كذلك نجد ابن حزم فى كتابه قد فصّل القول فى كل باب من أبواب كتابه عن الحب وعوارضه ونتائجه ، ووقعه فى القلب ، وضرب الشواهد من حياته نفسها ، ومن أحداث صحبه ، ووشى هذه الأبواب بأبيات من شعره منشدًا أو متذكرًا ، ولعله فى هذا المسلك كان مستجيبًا لدافع منهجى بحت فقد أومأ فى مقدمة الطوق إلى أنه ضائق بتجارب الآخرين التى سبقت ، وفى مكان آخر من الأرض ، ويود أن يرى الأشياء عبر ذاته ومن خلال أحاسيسه ، حتى يفى بما أخذه على عاتقه ، بألاّ " ينضى مطية سواه ، وألا يتحلى بشعر مستعار [1] وأن يتجاوز أخبار القدامى مهما كثرت لأن سبيله غير سبيلهم ، وحتى حين عرض لقناعة المحب بزيارة طيف الحبيب ، وأورد لنفسه شعرًا بهذا الموضوع ، وازن بين نفسه وآخرين ممن عرضوا للقضية ذاتها ، فأتى على معانى أبياتهم فحسب ، دون أن يذكر أشعارهم ، كما تتطلب الموازنة .

أما السيوطى ، عند معالجته لموضوع الكتاب ، فنجده قد غرف من مختارات شعر الآخرين وآرائهم ، ولم يقدم لنا رأيه هو أو أشعاره ، على حين وجدنا ابن حزم عندما عرض لأبوابه فى جوانب مختلفة عن الحب ، قدم لنا على ذلك شواهد من عصره ، ومختارات من شعره ، فقص علينا فى كتابه تجاربه الذاتية ، وتجارب أصدقائه وشخصيات أخرى سبقته ، وكلهم فى كثرتهم الغالبة أندليسون .

عندما عرض السيوطى لموضوع كتابه نجده ألقى بمحتوى رسالته ، فاستهلها بمقدمة ، ثم مقصد ، فخاتمة ، ثم مضى إلى ما استعذب من شعر الآخرين – جريًا على عادته والتزامًا بمنهجه – فيذكر أبياتًا وراء أبيات دون تعليق منه أو حتى إبداء الرأى .

وقد ذكر ابن حزم فى طوقه كتابًا واحدًا ، وهو كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى (٨٦٨ هـ - ٩١٠م) . على حين ذكر السيوطى أسماء العديد من المصادر الأدبية واللغوية البلاغية التى استقى منها مادة كتابه .

كذلك استشهد السيوطى بكثير من الأحاديث النبوية الشريفة . ونفس الشىء نجده عند ابن حزم فلقد استشهد بالعديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وإن كانت كثيرة مقارنة بما أورده السيوطى فى كتابه .

من بين الأحاديث التى أوردها ابن حزم " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف " ، وهو حديث متواتر عن سلسلة من رواة الحديث ، رواه البخارى ومسلم . [2]

والحديث الثانى " حُبك الشىء يعمى ويصم " ولم يشر ابن حزم على أنه حديث وذلك لأنه حديث موضوع [3] ، أما الثالث فهو : " من عشق فعف فمات فهو شهيد " ولم يشر إلى أنه حديث نبوى ، واكتفى بقوله : " قد جاء فى الأثر " .

كذلك اقتصر ابن حزم فى كتابه على الاستشهاد بأشعاره فقط ، ولم يورد أشعارًا لغيره من الشعراء سواء أكانوا سابقين عليه أم معاصرين له ، وكأن الكتاب كله تعبير عن رأى ابن حزم وحده فى الحب .

بينما نجد السيوطى فى كتابه لم يورد بيتًا واحدًا من أشعاره ، ولم يصرح برأيه فى الإجابة عن السؤال الذى سُئله عن اقتناء الحمام ، ولكنه اقتصر على أشعار وآراء المتقدمين ، وممن كانوا معاصرين له . وبعد هذه المقارنة يتضح لنا أن التشابه بين الكتابين هو تشابه فى العنوان فقط .

---

(١) د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة : ص ٩٥ .

(٢) انظر : صحيح مسلم : جـ٤ / ص٢٠٣١ ، رقم الحديث ٢٦٣٨ ، الحديث فى كتاب البر والصلة والآداب ، باب الأرواح جنود مجندة ، تحقيق د. محمد فؤاد عبد الباقى ، مطبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

(٣) انظر : الألبانى : السلسلة الضعيفة : جـ٤ / ص٣٤٨ ، رقم ١٨٦٨ ، مكتبة المعارف ، الرياض .

منهجنا فى تحقيق كتاب طوق الحمامة للسيوطى

فى عام ٢٠٠٧م أتيح لى أن أحصل على مهمة علمية إلى جامعة الكمبلوتنسى بمدريد ، وذلك بغرض البحث والاطلاع ، وأثناء زيارتى لمكتبة الإسكوريال ، وعند مطالعتى لبعض المخطوطات ، وقفت على مخطوطة بعنوان " طوق الحمامة " لجلال الدين السيوطى ، فاسترعى انتباهى للوهلة الأولى العنوان ، إذ لا يخفى على أحد من الدارسين لاسيما فى حقل الدراسات الأندلسية أن " طوق الحمامة " هو عنوان كتاب لفقيه قرطبة المشهور ابن حزم الأندلسى ، ووجدتنى مدفوعة إلى هذا العمل ، فقمت بتصوير المجموع بالكامل لأن الكتاب ورد ضمن مجموع كبير يحتوى على العديد من الرسائل المتنوعة للسيوطى .

وبعد مطالعتى لرسالة " طوق الحمامة " وجدت أنها تدور حول الحمام ، وما جاء فى شأنه من أحاديث نبوية ، تدور حول اقتنائه فى البيوت للمؤانسة به من الوحشة ، إلى جانب العديد من آراء العلماء حول صفاته ، وطباعه وأحواله ، وحكم حبسه ، وتطييره وغيرها من الأمور التى لها علاقة بالحمام .

وما انتهيت من قراءة الرسالة حتى وجدتنى أعزم على تحقيقها ونشرها لاسيما وقد علمت أن هناك نسخة أخرى للكتاب محفوظة بدار الكتب المصرية . [1]

وذلك حتى تكون النسخة المحققة إحدى لبنات ما يتعلق بالسيوطى فى تراثنا القديم وما أكثرها .

فلدينا من الكتاب نسختان :

١ـ الأولى نسخة فائقة بخط واضح ، وهى محفوظة بمكتبة الإسكوريال بمدريد تحت رقم (١٥٤٤) ، وقد جاءت هذه النسخة ضمن مجموع كبير بدأت برسالة طوق الحمامة من صفحة (١) إلى صفحة (١٢) وانتهت برسالة " ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون " من صفحة ١٦١ – إلى صفحة ١٩٣ . وقد احتوى المجموع على ١٩٣ ورقة من الورق الكبير ، واحتوت كل ورقة على صفحتين .

وكان ترتيب رسالة " طوق الحمامة " للسيوطى هو الأول من بين الموضوعات المتنوعة التى احتواها المجموع ، وقد احتوت الرسالة على (١٢) ورقة ، وكل ورقة احتوت على صفحتين بدأت من صفحة (١) إلى صفحة (١٢) ، واحتوت كل صفحة على ٢٣ سطرًا فى المتوسط ، وعلى هذه النسخة كان اعتمادنا فى المتن ، وقابلت ما فيها على النسخة الثانية فى حاشية الكتاب ، أما بالنسبة للخط فى نسخة الإسكوريال فقد كتبت المخطوطة كلها بخط النسخ العادى ، باللون الأسود ، ويكاد يكون الخط الموجود فى بقية المجموع هو نفسه الذى كتبت به رسالة طوق الحمامة ، أى أن الناسخ الذى كتب هذه المخطوطة هو شخص واحد .

٢ـ النسخة الثانية : وهى محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٦ طبعات تيمور ، وهى تقع فى (٤٧) صفحة ، لم تسلم من التصحيف والتحريف ؛ كما تبين لنا عند الرجوع إلى النصوص المنقولة فى مصادرها ، شعرية كانت أم نثرية .

وهناك فرق تام ما بين النسختين من حيث الجودة والرَّداءة ، إذ أن بينهما تباينًا تامًا ، فالنسخة الأولى نسخة الإسكوريال صحيحة ، والأخرى سقيمة ، وهذه واضحة الرسم بينة الحروف والإعجام ، وتلك سقيمة الخط رديئة الإبانة . ولعل الأصل الذى ترجع إليه نسخة دار الكتب المصرية هو النسخة الأولى أى نسخة السيوطى نفسها ، لأنها لا تزيد بما فيها من أحاديث عن الحمام ، وما احتوت عليه من آراء العلماء ، وما جاء بها من نثر وشعر على ما ورد فى نسخة الإسكوريال ، وربما يكون ناسخ المخطوطة المصرية ، قد نقلها عن أصل أُخذ من ذلك الأصل الذى صنعه السيوطى .

أما الناسخ فى المخطوطتين فلم يذكر اسمه ، ولم يعين لنا مكان النسخ ، كما لم يحدد لنا تاريخ النسخ .

ويتضح مما سبق إننى اعتمدت فى التحقيق على مخطوطتين ، الأولى مخطوطة الإسكوريال ورمزنا لها بالرمز (أ) ، والثانية مخطوطة دار الكتب المصرية ورمزنا لها بالرمز (ب) .

أما بالنسبة للتوثيق فقد قمت بضبط الأبيات ، وشرح ما رأيته غامضًا من الألفاظ والعبارات ، والتعليق على ما يحتاج إلى تعليق ، مع مراعاة علامات الترقيم والرسم الإملائى الحديث ، كما قمت بتوثيق ما جاء فى الكتاب سواء أكان يتعلق بالأحاديث النبوية أم بالفنون الأدبية من شعر ونثر له صلة بالحمام وطباعه ، وصفاته ، وأحواله ، وذلك بالرجوع إلى الكتب المتخصصة ، ودوائر المعارف ، وكل هذا مثبت فى الهوامش .

---

(١) اعتمد عليها الأستاذ : مصطفى عاشور فى تحقيقه للكتاب ، طبعة مكتبة القرآن ، ١٩٧٨م .

نعم ، لقد جمع السيوطى فى هذا الكتاب ، فأحسن الجمع ، واختار فأجاد الاختيار ، اختار عنوان كتابه " طوق الحمامة " .

وبعد ...

تُرى هل كنا نظفر بمثل هذه الباقة من الأحاديث النبوية الشريفة ، أو المجموعات الشعرية والنثرية الجميلة التى تأخذنا فى عالم " الحمام " حين يحط وحين يطير ، وقد جاء ذلك مبثوثًا فى ثنايا الكتاب فى أسلوب رشيق تعرفنا من خلاله على طباع الحمام ، وصفاته ، وأحواله مع أنثاه ، ووقفنا على حياة الحمام وما يحدث فيها ، وكيف أن الحمام يتغزل فى أنثاه ، وكيف أن حمامة تتزين لذكرها ولا تفارقه ، إلى أن يهلك أحدهما أو يفقدها ، وفى هذا إشارة لصفة حميدة وهى الوفاء بين الحمام . أليس حرىّ بنا بعد مطالعة هذا الكتاب أن نتعلم الوفاء من هذا الطائر الرقيق . وهى صفة من حميد الغرائز ، وكريم الشيم ، وفاضل الأخلاق فى الحب وغيره ، وأنها لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين ، على طيب الأصل ، وشرف العنصر " .

حقًا إنه ظريف الحمام هذا الطائر الرقيق الذى علم الإنسان الغزل من خلال رقته وغزله ، فانظر إلى الذكر كيف يدعو أنثاه فتمتنع عنه ، ثم تُجيبه وتلوى عنقها ، ثم يعودان فيتعاشقان " فيتعاشقان ويتطاوعان " ثم ما شئت منه من رشف وتقبيل ، ثم ما شئت منها من تيهٍ ودلال ، ثم ما شئت منهما من فرح ومرح ووصال !!

فى الحقيقة ، إن معايشة السيوطى فيما جمعه فى " طوقه " متعة ، وحسبه أنه قدم لنا باقة عن أحوال الحمام ، تحمل بصمات عصر ذهبى للأدب فى المشرق والمغرب ، تألق ثم مضى وذهب .

فالكتاب بين يدى القارئ ، ولست أقول إننى بلغت به كل ما أريد ، ولكنى أزعم أننى تقدمت به على طريق الصواب خطوات .

ولعل فى قادم الأيام ما يعيننا على أن نبلغ به حد الكمال ، والله ولى التوفيق .

د. منى ربيع بسطاوى مدريد فى ٢٠٠/٨/٨

" تاريخ افتتاح الأندلس
لابن القوطية
وكتاب أخبار مجموعة "

تأليف المستشرق الإسبانى

خوليان ريبيرا

ترجمة ودراسة

أ.د. مني ربيع بسطاوي

نشر المستشرق الإسباني الكبير خوليان ريبيرا هذه الدراسة مقدمة لكتاب "افتتاح الأندلس" عندما ترجمه إلى الإسبانية ، ونشره مجمع التاريخ الملكي في سلسلة الكتب التاريخية والجغرافية التي تولى نشرها وكان ترتيب هذا الكتاب الثاني بينها ، ونشر في مدريد عام١٩٢٦ م.

إذا تمكنا الآن من أن نعطى تصوراً للمكان والزمان الذي عاش فيه ابن القوطية وتعرفنا على الصفات الخارجية لهذه الشخصية ، وألممنا بالجو الاجتماعي الذي أحاط به ، ربما كونّا عنه ، وعن المجتمع الذي عاش فيه فكرة خاطئة إلى حد ما .

يمكن أن نزور هذه الشخصية المسلمة التي حملت اسم محمد في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، في ضيعته الجميلة التي كان يملكها في وادٍ مورف ، تتناثر على بساطه بيوت ريفية مطمئنة تحت سفح جبل العروس الحالم ، وحوله تنتشر قصور ضخمة فخيمة ، فقد أصبح

من المظاهر الأرستقراطية منذ أسس عبد الرحمن الناصر الحى الملكي الرائع ، الذي حمل اسم الزهراء ، أن يملك الشخص مزرعة في هذه النواحى .
ذات أصيل هبط صاحبنا محمد في ملابسه الشرقية الفضفاضة المهيبة من مزرعته إلى المدينة ممتطيا صهوة جواده فصادفه أبو بكر ابن هذيل ، متوجهاً إلى مزرعة له بسفح جبل قرطبة أيضاً فحياه بيت من الشعر :

مِن أينَ أقبلتَ يا من لا شبيهَ له ومَن هو الشمسُ والدنيا له فلكُ

فتبسم صاحبنا ، وأجاب على البديهة :

من منزلِ تُعجب النَساك خلوته وفيه سترٌ على الفتّاك إنْ فتكوا

ولم يتمالك ابن هذيل نفسه ، فقبل يد ابن القوطية إعجاباً ، ودعا له فقد كان تلميذه واحتفظ لشيخه بإجلال وقور :
وفي الحق كان صاحبنا محمد واحداً من كبار علماء المسلمين في قرطبة ، واسع المعرفة مهاباً " عالماً بالنحو ، حافظاً للغة ، متقدماً فيها على أهل عصره لا يشق غباره ، ولا يلحق شأوه " ، ولا يبلغون حتى موطئ نعله بتعبير النقاد في عصره ، وفيما يتصل بهذه العلوم ألف كتباً كانت مادة الدرس في كثير من معاهد العلم لقرون طويلة ، ونشرت في وقتنا هذا بين أمهات كتب التراث .[1]
وكان جيد الشعر ، صحيح الألفاظ ، حسن المطالع والمقاطع ، إلا أنه تركه ورفضه، وكان فقيها متمكناً واسع العلم بالحديث والسنة ، ولكنه تربوياً لم يسر في تدريسها على مناهج الفقهاء في عصره فاتهموه بأنه " لم يكن بالضابط لرواية في الحديث والفقه ، ولا كانت له أصول يرجع فيها، وكان ما يسمع عليه من ذلك إنما يحمل على المعنى لا على اللفظ ، وكثيراً ما كان يقرأ عليه ما لا رواية له فيه ، على جهة التصحيح " ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من العباد النساك ، وقد طال عمره ، فسمع منه الناس طبقة بعد طبقة ، وروى عنه جماعة من الشيوخ ، والكهول ، ممن ولى القضاء ، وقدم إلى الشورى ، وتصرف في الخطط ، من أبناء الملوك وغيرهم .
إذا حكمنا على هذا الفقيه الوقور من خلال الظاهر فحسب ، دراسةً ودِيناً ، ولغةً وملبساً ، فإننا نرجح أنه ينتمي إلى أسرة ذات أصول عربية خالصة ، وحينئذٍ نقع في الخطأ ، إن هذا الفقيه الوقور الذي يتردد علي المسجد الجامع يومياً ، يصلي خاشعاً ، ويلقي دروسه في اللغة العربية متمكناً ويدرس الفقه في زمن عبد الرحمن الناصر العظيم ، ينحدر مباشرة من أسرة غيطشة الملكية القوطية ، وهو طراز يقدم لنا المثل ، ونستطيع من خلاله أن نوجز ملامح الحضارة الأندلسية أو الإسبانية سمّها كيف شئت ، يمكن أن نقول عنه أنه مؤرخ عربي فقد كتب مؤلفاته في

([1]) الترجمة الموسعة والدقيقة لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ، المعروف بابن القوطية ، توجد عند : ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ١٣١٦ ، طبعة كوديرا ، و ١٣١٨ ، في طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
وانظر ترجمته : وأخباراً عنه وعن مؤلفاته في : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ،= تأليف برنس يجى ، ص ٨٣ . وللوقف على استمرار تدريس كتبه انظر : ابن خبر ، فهرسة ما رواه عن شيوخه ، المجلد العاشر من المكتبة العربية الأسبانية ، نشر كوديرا وريبيرا ، ص ٣٣٤ .
وقد نشر كتاب الأفعال لابن القوطية اجناسيو جويدي في ليدن ، مكتبة بريل عام ١٨٩٤ (ونشه في القاهرة أستاذي المرحوم الدكتور فؤاد حسنين) .

اللغة العربية ، ولكن الكنية التي يحملها : ابن القوطية ، تعني أن الجانب الإسباني من شخصه لم يذهب تماماً، فهو وآخرون كثيرون على شاكلته ، يمثلون قمة الثقافة العربية في شبه الجزيرة الإيبرية ، يمكن أن ندعوهم عرباً ، كما تطلق لفظ لاتيني على كثيرين من المؤلفين الأسبان الذين يكتبون في اللغة اللاتينية ، دون أن يعني ذلك أنهم تخلوا عن إسبانيتهم ، لا لأنهم ولدوا على أرض إسبانيا فحسب ، ولكن لأن الدم الإسباني يتدفق عبر عروقهم .

والشيء نفسه كان يجري في عروق ابن القوطية وأسهم في تكوين فكره ومن الضروري أن نضع هذا العنصر في حسباننا عند تفسيرنا لجانب كبير من محتوى مدونته التاريخية التي وصلت إلينا تحمل اسمه .

في هذه الفترة من ذلك العصر وصلتنا مخطوطتان رئيسيتان : أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية ، وإحداهما تؤكد ما في الآخرى تكملها على نحو ما وقد خبر المستشرق الهولندي رينهارت دوزى كلتا المخطوطتين جيداً ، وأفاد منهما كثيراً ، ومع ذلك يبدو لي أنه لم يستطع تحديد العصر الذي ألفت فيه المخطوطة الأولى .

وقد ذكر لفونتي القنطرة في الصفحة السادسة من مقدمته للطبعة التي نشرها من أخبار مجموعة محتذياً في ذلك خطى دوزى أن مؤلف هذا الكتاب يجب أن يكون قد عاش في القرن الحادي عشر الميلادي .

وهذا الرأي يعتمد أساساً فيما يبدو على الفقرة التالية من " أخبار مجموعة " : " وكان رأيه (أي عمر بن عبد العزيز) انتقال أهلها منها لانقطاعهم عن المسلمين ، وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فإن مصيرهم إلى بوار إلا أن يرحمهم الله " .

ويرى دوزي أن هذه العبارة لا يمكن أن ينطق بها إلا مسلم عاش في القرن الحادي عشر .

ليس من السهل على المؤرخ دائماً أن يتخلى عن وجهة نظره الذاتية عندما يدرس الشخصيات التاريخية التي يعرض لها ، وفي الحالة التي نحن بصددها لا يجب أن ننسى أن إمكانيات كاتب مسلم عاش في الأندلس في تلك الأيام البعيدة ليست نفس إمكانيات مؤرخ للأحداث يعيش في شمال أوروبا بعد ذلك بعشرة قرون .

في كل العصور وحتى في أفضل الأيام بالنسبة لأية جماعة اجتماعية ثمة أفراد يمكن للمؤرخ أن يصفهم بأنهم أشرار إذا لم يكونوا على وفاق معه أو مع أسرته أو مع طبقته ، وأعتقد أن المؤرخ الذي فاض بتملك المشاعر الحزينة كان يعيش فيما نعتبره الآن أفضل أيام الخلافة الأموية في الأندلس ، أي في عصر عبد الرحمن الناصر .

لكي ندرك على نحو أوضح المنظور التاريخي الذي كان أمام مؤلف مخطوطة " أخبار مجموعة " وكتب تلك الفقرة المتشائمة ، علينا أن نبحث عن المؤلف الذي حرر هذه المخطوطة .

إذا توقفنا قليلاً في أخبار مجموعة وجدنا أنها مجموعة من المذكرات والفقرات التاريخية سجلها صاحبها شيئاً فشيئاً دون أن يقصد إلى ربط الحوادث ربطاً منهجياً أو يرتبها تاريخياً ، وهو في روايته يتجاوز أحداثاً وقعت ثم يعود إليها مثلاً بعد أن يذكر مغامرة عبد الرحمن الداخل، والنهاية التعسة لبني أمية في المشرق يعود إلى ولاية أبي الخطار في إسبانيا ، وثمة فقرات يبدو أنها أضيفت إلى النص الأصلي فيما بعد ، دون أن تكون لها صلة بما كان يهتم به الكاتب الأول .

ولست أشك في أن أشخاصاً عديدين أسهموا في تأليف أخبار مجموعة ، يختلفون ثقافةً وفكراً وزمناً وذوقاً ويمكن أن نتعرف إليهم من خلال المواد المتباينة التي يوردونها والأفكار ووجهات النظر التي يعبرون عنها ، وحتى من خلال الأسلوب الشخصي لكل واحد منهم : أحيانا نجد الرواية مطولة مفككة ، حافلة بالتفاصيل كتلك التي كتبها أولئك الذين بدأوا تحرير هذه الأخبار ، وأحيانا أخرى مركزة موجزة متقضبة ، وبعض الذين أسهموا في الكتاب يميلون إلى أخبار الحروب وأحداث السياسة دون غيرها ، ويعتبرون ما عداها تافهاً ، والبعض الآخر يميلون إلى شئون الدين ، وقضايا الفقه والأخلاق ، لا يهمهم أو يستلفت انتباههم ما عداها , ومن الواجب أن نشير إلى أنهم جميعاً يصدرون عن اتجاه متشابه من عصبية قبلية ، أو وحدة طبقية ، كما لو كانوا كلهم ينتمون إلى إسرة واحدة أو قبيلة بعينها .

أول هؤلاء الذين أسهموا في تحرير الكتاب لابد أن يكون رجل حرب لأنه لا يقف باهتمامه عند الحملات الحربية خاصة فحسب , وإنما يعرض لما يستخدم فيها من ذكاء وحيلة ، والحاجة إلى الأدلاء الذين يقودون الجيش إلى مواطن الضعف في جبهة العدو ، واستخدام الجواسيس الذين يعرفون عورات البلد ، ويدرك مواقف الفتح الخطرة ووسائل الوقاية والأمن التي تتخذ في المدن المفتوحة ، وأن من الضروري أن يتبين الفاتحون الصديق من العدو ، بل ويتوقف طويلا عند أعداد الجنود ، والوضع الذي يأخذونه في المعارك ويصف ذلك كله دون أن يلجأ إلى الأساطير والمبالغات ، ويشرح التحركات الفنية في القتال من المفاجآت الحربية الأخرى ، كما لو كان خبيراً واسع التجربة والدربة ، ويعتمد في معرفته على العلم والتقاليد العسكرية ، وليس على كلام العامة وشائعاتهم .

وهو سياسي أيضاً يرد الأحداث إلى أسبابها الحقيقة ، ويستخف بأقاويل العامة ، ويحتقر الناس المرفهين ، ويدير ظهره للعسكريين الذين يجهلون واقع الأشياء ، ويورد مفاوضات عبد الرحمن الداخل السياسة في تفصيل حافل ، يشي بأنه شهد بشخصه بعض تلك الأحداث .

وهو قرطبي ، يتحدث عن الأمكنة في قرطبة ، كمن شهدها رأى العين ، ويعرف ما طرأ عليها من تغيير في البناء أو المال أو الاسم كالمساجد والمقابر ويقدم لنا تفسيراً لما أصابها من التغيير.

وهو عربى شريف النسب من قبيلة قريش ، يحفظ من الذاكرة أسماء القبائل العربية الكثيرة ، وروابط الصداقة التي تجمع بين كل قبيلة وأخرى ، وعلى علم تام بالمخالفات أو العداوات القائمة بين الأسر المختلفة يهتم كثيراً بالأنساب والأسر الشريفة ، والمناصب التي تتولاها ، ويعجبه من رجال الطبقة الدنيا تقديرهم للموالي ، رغم أنه لا تجرى في عروقهم دماء عربية ، وحين يسمى أحداً ينتسب في قبيلة قريش يلزم نفسه بأن يشير إلى البطن أو الفخذ الذي ينتمي إليه ، وإذا جهل بعض تفصيلات النسب ، وهو قليلاً ما يحدث يعترف به كعيب فيه ويعتذر عنه , ويحلو له أن يسجل الاحترام الذي عليه أن يحتفظ به إزاء قبيلة قريش ومواليها ، ويدعو غيره إلى توقير الأشراف ، ويبقى على كل واحد في مستوى طبقته ، وينصحه ألا يدعى لنفسه من الشرف أكثر مما يستحق ويحتفظ بالرتب ، ويعين المناصب العليا لكبار القوم ويرى أن الانتماء في قبيلة قريش يفتح الطرق أمام امتيازات كثيرة ، بما فيها ألا تتعرض حياتهم للاعتداء عليها أبداً .

وأخيراً هو من البيت الأموي يشير إلى الأمويين كلهم تقريباً ، قبل أن يجئ العباسيون إلى الحكم في المشرق ويهتم بذكر الأحداث التي قام بها أفراد يرتبطون بأسرته وفي الحملات الحربية يشير بوضوح إلى الأمكنة التي شغلها أمويون ، ويسجل حتى أتفه الأعمال التي قام بها بعضهم ، ويورد نماذج من الأدب والاحترام التي يحتفظ بها صغارهم لكبارهم ويطنب في ذكر أفراد الأسرة الأموية الذين دخلوا إسبانيا بعد مجئ عبد الرحمن الداخل ، ويأتي على أخبارهم تفصيلاً.

وكاتب في مثل هذه الحال ، لا يستبعد منه في ضوء خبرته المباشرة ، وثقافته الحربية والسياسة ، أن يقدم لنا مخطوطة مفصلة ودقيقة إلى حد بعيد تبدأ من الفتح وتمتد حتى ارتقاء هشام الأول عرش الإمارة .

وبعد هذا القسم فيما يليه من المخطوطة ، سوف تتغير الصورة تماماً، سوف تختلف طريقة الكتابة كلية وأخبار المادة التاريخية أيضاً , ولم تعد الحملات الحربية ، ولا الموضوعات العسكرية تعنى الذين كتبوا هذا الجانب من المخطوطة ، وإذا عرضوا لها مرة جاء حديثهم عنها خالياً من التفصيلات التقنية ، كما يفعل غير المختصين من الكتاب ، وحتى الموضوعات السياسية لا تسترعي انتباههم ، وإنما تركز اهتمامهم على نحو واضح بالموضوعات الدينية إذا تحدثوا عن الأمراء لا تعنيهم البطولات ، وإنما يعرضون لهم بطريقة تجريدية يذكرون مميزاتهم الثقافية ، وفضائلهم الخلقية ، ويشيرون إلى ما هم عليه من خشوع وتقوى ويتحدثون عن أدبهم وحبهم للفقهاء ، ويضمنون حديثهم عن الحكومة الصالحة المواعظ وأبيات الشعر مما يوحي بأن كاتب هذا الجانب من المخطوطة فقيه أديب ينتسب في قبيلة قريش ، يحتفظ بين أوراق أسرته بخطابات قديمة كوثائق عائلية عليه كفقيه أو يواصلها ، نعرف بعضاً من أمثال هؤلاء الفقهاء القرشيين ويرد في الخاطر فقيه منهم كان يتمتع بشعبية واسعة وشهرة علمية فياضة ، ودرج القرطبيون على أن ينادوه في لقبه الرومانثى : ابن الشبنسية Sepancia [1]

في أي عصر عاش ، أو كتب ، الفقيه الذي حرر الجزء الأخير من مجموعة الأخبار التاريخية هذه ، والتي حملت اسم " أخبار مجموعة " ؟

أنا أعتقد أنه عاش في عصر عبد الرحمن الناصر ، حيث تتوقف الرواية وتلك الأيام التي تحدث عنها المؤرخ كأيام مخيفة ، بل وتعيسة يرثى لها ، وشهدت احتضار القوة العربية ، ليست عقبة تحول دون هذا الرأي .

كل فرد كما سبق أن قلنا تبدو له الأيام سيئة وحتى تعسة ، حين تقع لشخصه أو أسرته أو قومه أحداث غير مرضية ، ومن ثم هناك من يتحدث بسوء حتى عن أفضل الأيام التي تمر بها أمته ، وأذكر بهذه المناسبة أن الخشني [2] يحدثنا عن قاضٍ من قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر عرض لتلك الأيام فوصفها ب " فساد الزمان ، واختيال الفجار ، وما يحدث من الأمور المشتهبة التي لا تتبين له حقيقتها ، ولا يكشف له وجهها " ، وعندما تحدث الخشني نفسه عن هذا القاضي وصفه بأن " مذاهبه محمودة ، وسيرته حسنة ، وهديه جميلاً ، وكان له من الوقار والإخبات ما بذّ

---

[1]) ابن الأبار ، الترجمة رقم ٢٦٩٥ ، في الجزء الذي نشره مركز الدراسات التاريخية من تكملة الصلة ، مدريد ١٩١٥.

٢) تاريخ قضاة قرطبة ، ونصه العربي وترجمته إلى الأسبانية ، وقام بها جوليان ريبيرا نشراً في مدريد عام ١٩١٤.

به أهل زمانه ، وفات فيه أهل عصره " ، ثم يضيف : إن هذه الصفات الأندلسية تلاشت في أيام عبد الرحمن الناصر وفيها نجد كثيراً من السادة الذين احتفظوا بطابعهم اللاتيني ، ومن ثم فهم ليسوا عرباً واصلوا ثوراتهم حتى ذلك الوقت ثم استنزلوا من حصونهم وأصبحوا معاهدين وأصحاب نفوذ في قرطبة وأباحوا لأنفسهم رخصاً لا يرتضيها قانون الدولة الإسلامي ، وبلغ الأمر حد أن اسم شخص إسباني ينحدر من أب وأم لاتينيين ، رنّ في عاصمة الخلافة الإسلامية كمرشح لمنصب قاضي الجماعة فأثار استنكار المسلمين الطيبين بعنف .

أي فقيه تقي من قبيلة قريش الشريفة لا ينفعل فكرياً بالأحداث السياسية في عهد عبد الرحمن الناصر حين يرى اللاتينيين أصبحوا سادة ويدفعون الأشراف العرب الأصلاء ، وكانوا حتى هذه اللحظة يسيرون السياسية القرطبية إلى مكان ثانوى مغمور خامل الذكر ؟ ويري الأسر الإسبانية الحديثة العراقة , وليس في عروقها نقطة دم عربى تخلف القرشيين في المناصب السياسية والحربية في إمبراطورية بني أمنية ؟

مثل هذه الأيام فيما يرى أي قرشى بالغة الخطر على مستقبل الجماعة الإسلامية ، وينبئ بنهاية حكمها في شبه الجزيرة إنها أسوأ ما يمكن أن يتصور من الأيام !

والحق أن الفقيه الشريف الذي كتب هذا الجانب من المدونة كان واقعاً تحت هذا التأثير ودليلنا عليه موقفه من عبد الرحمن الناصر فيما يتصل بهذه القضية ، فبعد أن أتى على الانتصارات الشخصية العظيمة التي حققها أضاف ، وأصاب في ذلك كبد الحقيقة : " ولكنه - عفا الله عنه - مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب ، فولى للهوى لا للغناء واستمد بغير الكفاءة وأغاظ الأحرار بإقامة الأنذال كنجدة الحيرى وأصحابه الأوغاد ، فقلده عسكره ، وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه الفواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه ، وحال نجدة حال مثله في غيه واستخفافه وركاكة عقله ".[1]

ألا يبدو لنا الآن من الوضوح بمكان أن قرشياً من أيام عبد الرحمن الناصر يتحدث عن ذلك العهد في تشاؤم ؟!

ولأن الذين حرروا أخبار مجموعة : ينحدرون من أسرة عربية قرشية شريفة ، ليس لنا أن نعجب من احتقارهم للطبقة الدنيا من عامة الناس ، وبخاصة السكان الأصليين الذين ينحدرون من أصول إسبانية ولقد انصرفت عنايتهم كلها إلى أخبار عرب الأندلس وحدهم ، ووجهوا جل اهتمامهم إلى القرشيين من بينهم وإلى البيت الأموي من بين القرشيين بخاصة ، أما العناصر الاجتماعية الأخرى فلا تحتل من الكتاب إلا مكانا منزوياً حقيراً ، ويجئ الحديث عنها في إشارات عبارة وذلك أكبر نقض يؤخذ على الكتاب .

أما كتاب ابن القوطية على نحو ما وصلنا فعلى العكس من ذلك ونشك فيما إذا كان ابن القوطية نفسه مؤلفه المباشر وكتبه قاصداً فهو ليس كتاباً انتظمت أقسامه ، وارتبطت منهجياً ، كعمل أدبي لمؤلف واسع العلم غزير الثقافة ، وهو ما كان عليه ابن القوطية فيما يقول المؤرخون ولكنه مجموعة من الأخبار القصار ، دونها بعض من كان يحضر دروسه من المولعين بالأخبار ، فجاء

---

١) أخبار مجموعة: ص ١٣٥ من الترجمة ، وص ١٥٥ في النص العربي.

لوحات جزئية لا رابط بينها أحياناً ، أو روايات منفصلة لأحداث تاريخية ليست من إنشاء ابن القوطية نفسه وإنما حررها أحد سامعيه فهو يقول مثلا : " قال لي ابن القوطة " ، وتتخلل الروايات أساطير شعبية ذات روح شاعرى وتقوم على أساس من التاريخ ولا يؤلف بينها رابط قوى ولا يجمعها تناسق خاص ويورد أحيانا كما يحدث في آخر الكتاب روايات ملفقة تماما أقرب إلى أن تكون ثرثرة.

هذه الإشارات تجعلنا نعتقد أن ابن القوطية لم يحرر هذا الكتاب شخصياً وإنما هي نقاط نقلها أحد تلاميذه من دروس عديدة له ، حاول فيها أن يعرض ما يعرف من تاريخ إسبانيا ، أو مجموعة من الأخبار التاريخية كان يحتفظ بها بعض أبنائه أو أحفاده ، ثم تولوا ترتيبها على النحو الذي وصلتنا عليه .

وثمة إشارات أخرى تومئ إلى أن ابن القوطية لم يؤلف هذا الكتاب بهدف أن يكتب عملاً أدبياً ينسب إليه .

فابن الفرضي المؤرخ صاحب التراجم المعروف ، وتتلمذ شخصياً على ابن القوطية ، يحدثنا عن نفسه أنه اختلف عدة أعوام إلى الدروس الأدبية التي كان يلقيها ابن القوطية في مدينة قرطبة ، وقد أعجب به وأثنى عليه كأستاذ عظيم وعاش ابن الفرضي بعد ابن القوطية ستة وثلاثين عاما[١]، فلو كان ابن الفرضي يعرف أن لابن القوطية هذا الكتاب محرراً ، أما كان يغتم الفرصة ليفيد منه في كتابه " تاريخ علماء الأندلس " ، أو على الأقل أن يشير إليه ولو مرة واحدة ، كما ذكر مؤلفات : عبد الملك بن حبيب ، والرازى ، والخشني ، وآخرين ؟ إنه لم يذكر كتاب ابن القوطية هذا ولا مرة واحدة إذا شئت ، والترجمة التي خصه بها ، وهي أكمل ترجمة له وصلتنا تتحدث عن مؤلفاته في النحو واللغة فحسب ، وإلى جانب ذلك ، كان ابن الفرضي على علم تام بأن ابن القوطية ينطوي على حب عميق لمادة التاريخ ، فهو يحدثنا عنه قائلاً : " وكان حافظة لأخبار الأندلس ، ملياً برواية سير أمرائها ، وأحوال فقهائها وشعرائها ، يملى ذلك عن ظهر قلب " ، ولكنه لا يذكر لنا صراحة أنه كتب أية مخطوطة ، أو ألف أي كتاب خاص عن تاريخ الأندلس وذلك فيما أرى ، دليل على أنه في حياة ابن القوطية ، وحتى سنوات بعد وفاته لم يكن الكتاب الذي يحمل اسمه قد عرف طريقه إلى الجمهور .

غير أن الاهتمام بالعلم والأدب ظل قوياً في نطاق أسرة ابن القوطية ، فقد سار ابنه المسمى عمر (ويكنى أبا حفص) في الطريق نفسه ، فكان أديباً شاعراً وروى عن أبيه وغيره [٢] ، وكان من سلالته عبد الملك (ويكنى أبا الوليد) ويعرف بابن القوطية أيضاً ، ومتصرفاً في العلوم من الفقه والعربية والحساب ، محسناً لعقد الوثائق ، بصيراً بعللها ، راويةً للأخبار حافظاً للآداب ، وروايته للعلوم واسعة ، وشيوخه كثيرون بقرطبة وإشبيلية ، وروي عن عمه أبي بكر " [٣] أي ابن القوطية

---

[١]) توفي ابن القوطية عام ٣٩٧ ه ـ ٩٧٧ م.

[٢]) ابن بشكوال ، الصلة ، الترجمة ٨٦٩ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٨٥٤ من طبعة القاهرة).

[٣]) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (والترجمة رقم ٧٧٠ ، طبعة القاهرة) .

صاحبنا ، وأحد هذين أو أي تلميذ آخر يجب أن يكون قد حرر تاريخ افتتاح الأندلس على النحو الذي وصلنا عليه .

ومع ذلك ورغم أن ابن القوطية لم يكن هو الذي حرر الكتاب شخصياً ، فإن المادة التي تضمنها وتنسب إليه تتفق تماماً مع كل ما نعرف عن شخصه وجنسه وأسرته وتربيته وثقافته ، وما إلى ذلك ، وليس ثمة شك على الإطلاق فيما يتصل بها .

فالمؤرخون حتى دون قصد منهم ينقلون إلينا وجهة نظرهم الشخصية ، يرون ما يهمهم أكثر ويضعون عليه ظلال تعكس حالتهم النفسية ، ومحتوى تاريخ افتتاح الأندلس يتفق تماماً مع نفسية ابن القوطية .

هو فقيه من قرطبة ، ولكنه واسع الأفق ، أديب عميق ، واسع الثقافة ، يجري فيه جانب من الدم العربي ، فهو مولى بني أمية ، ولكنه من جانب آخر يتحرك في أعماقه إنساناً ويغلى روح إسباني ، وشرف أسرة نبيلة تنتمي إلى الأسرة القوطية المالكة .

وهو مسلم مخلص ، تربي في وسط دينى شديد المحافظة ، ودرس مبادئ أشد المذاهب الإسلامية سنية ، ودافع عن اتجاه تاريخي خلقي تستشفه خلال كتابه ، ومؤداه أن الذين يعملون الطيب ، والصالحين والأتقياء، يتلقون الثواب في الدنيا ، وأن الأشرار والسيئين ينالهم العقاب في الدنيا أيضاً ، فضلاً عما ينتظرهم في الآخرة .

والملوك الصالحون هم الذين يقربون الفقهاء والعلماء من رجال الدين ، وبهذا يصبحون سعداء ويسعدون رعاياهم ، ولكنه مع ذلك لم يكن متشدداً ولا متعصباً ويورد أخبار زرياب في ود رغم أنه كان موسيقياً ولا يتردد في رواية السنة على نحو قد لا يرتضيه منهج المحافظين على أيامه .

ولأنه كان مسلماً صادق الإيمان لم يكن لديه ما يخجل منه فيما يتصل بموقف أفراد أسرته الذين ساعدوا حملة الفتح الإسلامي ، بل ويمكن القول إنه غالى في الخدمات التي قدمها أسلافه إلى العرب ، في تواطئهم الخائن ضد الشعب الإسباني ، وإنه كمؤمن صادق الإيمان يعتبر أن الفتح الإسلامي هبة إلهية لإنقاذ البشرية .

وقد ارتبطت أسرته بالولاء لبني أمية ، لأن جدته سارة القوطية حفيدة غيطشة ذهبت إلى دمشق تشكو إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك ظلامة أصابتها من أحد مواليها المسلمين ، فأنصفها (وزوجها من عيسى بن مزاحم ، الذي قدم الأندلس معها ، وسكنا إشبيلية) ، ومن ثم كان صاحبنا ابن القوطية يعتبر ملوك الأندلس الأمويين موالي له ، ولهذا السبب أيضاً ، فإن اهتماماته وآراءه التاريخية تتفق في هذا الجانب مع آراء وأفكار مؤلفي أخبار مجموعة ، وكانوا أمويين أيضاً ، فهم وابن القوطية يتفقون في كتابيهما على احتقار موسى بن نصير ولذريق ، ويعتبر أن هذا الأخير غاصباً ومتكبراً وفارغاً ، ومستخفاً بالتقاليد الدينية ، ومغتصباً للنساء ، ومرتكباً لرذائل وآثام أخرى كثيرة ، وفيما يرون جميعاً فإن موسى بن نصير ، وعزله الأمويين السوريون ظلماً

وبطريقة مخجلة ، مثل واضح للطموح المبتذل ، وقد حقد على طارق القائد المحظوظ الذي عهد إليه بفتح إسبانيا ، ضربه كعبد حقير اختصم معه حول رجل المائدة ، وبما أن موسى وابنه انسجما مع أسرة لذريق وحتى ارتبطا عائلية فإن الأمويين أتباع غيطشة كرهوا موسى ومواليه ، ولذريق وأتباعه وعاقبوهم ، وفي هذا يتفق أخبار مجموعة وكتاب ابن القوطية.

ولكن هناك كما أشرنا من قبل اختلافاً جوهرياً بين محتوى الكتابين ، مصدره اختلاف سلالة مؤلفيها ، فالقرشيون الذين ألفوا أخبار مجموعة يظهرون احتقاراً كبيراً نحو العنصر الأصلي من السكان ، قلما يعرضون لهم ، ولا يكادون يهتمون تقريباً بغير البطولات العربية ، والقرشيون من بين هؤلاء بخاصة والأمويون من بين القرشيين على نحو أخص ، في حين أن ابن القوطية ، ويحس بالدم الإسباني يتدفق عبر عروقه احتفظ في أعماقه بشرف جنسه حياً ، فأدخل في كتابه العديد من الروايات التي تعرض لموقف العنصر الإسباني من سكان البلد الأصليين .

ومسألة الشرف هذه تفاقمت للغاية في الأيام التي سبقت ابن القوطية وبخاصة في عهد الأمير عبد الله حين كانت كل العناصر الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية تضطرب بعنف لغياب القوة المركزية التي تسيطر عليها .

وفي بلد كشبه الجزيرة يومها يتعايش الناس من أجناس مختلفة وأديان متباينة : مسلمون ومسيحيون ويهود ، وعرب وقوط ورومانيون وغيرهم ، وقبائل وأسر ظلت حتى ذلك الوقت تحتفظ في قوة بخلافاتها القبلية والعائلية ، من عرب وجرمان ، ليس من الغريب في النضال الاجتماعي أن يشتد الزهو بالانتماء إلى هذه القبيلة أو تلك وإلى هذه الأسرة أو الأخرى ، وإلى هذا الدين بعينه فالمسلمون يحتقرون اليهود والمسيحيين يتجنبون الاتصال بهم أو الاحتكاك بهم ، والذين ينحدرون من أسر شريفة يحتقرون العامة والذين في أدنى سلم الحياة ، وينفرون من التعامل معهم .

غير أن التعايش أمر لا مفر منه ، وضروريات الحياة في أحايين كثيرة تضطر الجميع إلى التسامح وفي بعض الحالات إلى التلاقي والتعاون ومن ثم انتقلت مسألة الشرف إلى أوساط أخرى وأخذت طابعاً مختلفاً ، طابعاً معنوياً لا صلة له بالجنس أو الأسرة .

نعم أصبح الإحساس بالكرامة الشخصية شديدة وأصبح الشخص الذي حقق شيئا من الهيبة الاجتماعية أنه أهين إذا وجد نفسه مضطراً إلى أن يتعاون مع شخصية أخرى من طبقة أدني ، وصار السلوك الخلقي المحمود يكسب صاحبه قيمة وثقة ، وإذا ميز أناس موقورون شخصاً ، أو نعتوه بأنه كريم ارتفع بهذا العمل وحده في التقدير الاجتماعي ، وإذا ارتكب شخص من أشراف قريش فاحشة فإن قاضي قرطبة يمكن أن يعزره ويذهله ، ولا يتوقف تقدير المرء على سلوكه الشخصي فحسب ، وإنما يتأثر أيضاً بموقف الأسرة نفسها فهو ينعكس على مكانة أفرادها فالموقف السئ لابن يؤدي إلى تعزيز الأب أحياناً ، وقد اضطر قاضٍ في قرطبة إلى أن يستعفى من منصبه

بسبب مجون ابنه ، وعندما بلغ ابن أحد القضاة سنة متقدمة أدى ذلك إلى الشك بأن الأب لم يعد كامل الأهلية ، ومن يطلب أو يرجو لنفسه منصباً عاماً ، يوصف مسلكه هذا أحياناً بأنه غير كريم .

و هذا الإحساس الخلفي الموسوس والقوى في الشعب الأندلسي أدي إلى تكوين جماعات سياسية مختارة ، تقود الشعب بآرائها وتحتفظ في الوقت نفسه باحترام كامل لأمرائه .

إنه إحساس مدنى راق هيأ إلى جانب ظروف أخرى سياسية واجتماعية لإمبراطورية الأمويين في الأندلس أن تبلغ أوج عظمتها على يد عبد الرحمن الناصر .

وليس ثمة شك في أن ابن القوطية تأثر بهذا الجو المعنوي وأحس بكل هذه الدوافع التي تجعل مواطنيه يرتفعون به مرتبه عالية متميزة في درسه ، واعتدال سلوكه وسلامة تدينه ، واحترام نسبة العربى والقوطي ، وقد روى لنا الأحداث التي أسهمت فيها أسرته ودورها في القضايا العامة ، ولأن دم عنصرين يجري في عروقه ، فقد خدم الاثنين في مدونته .

نجد في كتاب ابن القوطية عدداً من الأساطير ذات الطابع القومى كانت تتداول شفاهاً بين المسلمين القوميين والإسبان [1] ، وتعكس في تضاعيفها دون قصد، وعلى نحو واضح غلبة العنصر الأصلى من السكان على أيامه وهو يروي الوقائع دون أن يموه أو يشوه قاصداً .

وقد وجد ابن القوطية نفسه دون أن يقع ذلك في خاطره مرتبطاً بقومية بعض الفرق التي شاعت في الأندلس ، ولكن في اعتدال مدفوعاً إلية بثقافته المالكية ، وعلاقاته بالأسرة الأموية ، وروايته لأرطباس مع الصميل بن حاتم ، وميمون العابد ، وهي رواية زهاد قوميين ربما تفرعت عن اتجاهات شيعية تظهر لنا العرب في صور الجهلة المبتذلين وتصور لنا أرطباس القوطي رجلاً عظيم المواهب ، حميد الأخلاق ، وحتى ممتازاً في صلاته الاجتماعية .

ويورد مؤلفنا في كتابه عدة روايات ذات طابع ملحمى تتميز بأنها قصيرة عن أزهى أيام إسبانيا الإقطاعية فروسية ، وتشمل الفترة التي تمتد من عصر الأمير محمد إلى عصر الأمير عبد الله ، وفيها أزدهر الشعر الملحمي على يد الشاعر تميم بن علقمة ، وكان متزوجاً من ابنه كونت مسيحي في الأندلس ، وفي هذا الوفد نفسه كان بنو قسى في أرجون ، وهم إسبان اعتنقوا الإسلام وتعودوا أن يلهبوا روحهم المقاتل حماسة بإنشاد أشعار عنترة بن شداد .

ولم يكن ابن القوطية سعيداً بسلوك المتمردين على البيت الأموي ، ومع ذلك كان يسر برواية أخبار قصصية ، كأخبار الشاعر غريب الداهية المتعصب لقومه من أهل طليطلة ، وعن وقائع مروان الجليقى بناحية بطليوس وأعمال إزراق في وادي الحجارة ، وأخبار عمر بن حفصون وغيرها ، ويبدو السخط الشعبي في بعضها واضحة ، دون قناع ولا تخفف ويحدد من خلال الأساطير العقاب الذي سيوقعه الله بالعاصين ، فبعد مذبحة وجوه طليطلة الغادرة ، " حين أتي

[1]) جانب كبير من روايات ابن القوطية يعتمد على الرواية الشفوية ، سمعها من أساتذته الأسبان إلى جانب بعض آخر منها أخذه من كتاب عبد الملك من التاريخية للشاعر تميم بن علقمة وضاعت ولمن تصلنا .

القتل منهم إلى خمسة آلاف وثلاثة مئة ونيف ، وأثبت عبد الرحمن بصره في السيف فلم تزال به غمزة في عينه إلى أن مات ".

الاتجاه القومي المعتدل طابع كتاب ابن القوطية ، ويجعل له قيمة كبيرة فقد ضمنه أخبار بقية عناصر السكان المسلمين من غير العرب الذين أهملهم المؤرخون الآخرون تماماً ، وبذلك جعل محتوى التاريخ العربي أشمل مادة وأدق تسجيلاً .

ومع ذلك وبالرغم من كل شئ فإن بعض العناصر وبهم تكمل الصورة التاريخية لإسبانيا الإسلامية تبقى أخبارهم غامضة أو تجئ على استحياء بين الوضوح وإبهام وهي صورة القوميين المناهضين للحكم الأموي والذين وقفوا في وجه العرب متأثرين بمبادئ الشيعة الوافدة من فارس [١] وانبتت التمرد وظلت مبادئها نابضة حية في مؤلفات الصوفية أحياناً وأهمل كذلك الجماعات المسيحية واليهودية ، والحق أن كل المدونات التاريخية احتقرت أخبارهم فصمتت عنهم تماماً .

وقد وفق بشكوال جيابجوس في أن يلحق بنهاية كتاب ابن القوطية عدة نصوص تاريخية [٢] ذات أهمية وبخاصة ما نقله عن ابن قتيبة [٣] ولو أنها في الحقيقة تتضمن حوادث لم تقع في إسبانيا ، وإنما حدثت في المشرق وتتصل بموسى بن نصير بعد أن غادر شبه جزيرة إيبريا و على الرغم من أنها أساطير فيها الوقائع التاريخية مشوهة إلا أنها تبين لنا إلى حد ما نظرة المشارقة إلى الأندلس لحظة الفتح ، ونحتاج معها إلى أن نمعن النظر في بعض الشخصيات وفي بعض الأحداث وحاول مؤرخو البيت الأموي وأتباع غيطشة غمط تاريخهم كل ما كان ذلك ممكناً.

ينعكس الانطباع الذي أحدثته فتوحات موسي الكبرى في المشرق بطريقة جيدة للغاية في الأساطير التي أوردها ابن القوطية ، ومن المؤكد أن المسلمين هناك قد اعترتهم الدهشة واجتاحتهم الحماسة ، عندما عرفوا السرعة التي اتسعت بها الإمبراطورية الإسلامية فلم تمض اثنتان وتسعون عاماً على الهجرة حتى بلغ الإسلام شواطئ بحر الظلمات ، نهاية الأرض المعروفة في ذلك الحين ، ثم عبر المضيق وانتشر في جانب لا بأس به من أوروبا وفي فورة الحماسة صيغت أروع الأقاصيص خيالاً وأطرفها وأشدها مبالغة غالوا في تقدير الثروات والكنوز التي وجدها المسلمون في إسبانيا كما لو كانت دورادو El-Dorado [٤] المسلمين .

---

[١]) وصلتنا أساطير كثيرة تلحظ فيها التأثير الفارسي ، وتأثير الشرق الأقصى ، مثلى حادث تيمودمبير والبيت المغلق في طليطلة وغيرها .

[٢]) وقد ترجمتها أيضا مع الكتاب والذي كتبت هذه الدراسة مقدمة له.

[٣]) ترجمها ف كتابه تاريخ الدول الإسلامية في أسباني the history of the Mohammedan in Spain ج ا ، ص ٥٠ ، وما بعدها من الملحق والحن ص٣ وما بعدها .

[٤]) الدورادو: بلد بالغ الثراء على نحو لا يقدر ، ولا وجود له في مخيلة أصحابه ، . وتصور الغزاة الأوروبيون لأمريكا اللاتينية أنه يوجد في أمريكا الوسطى فاخذوا يبحثون عنه عبثاً .

هذه المبالغات المفرطة لابد أنها أثارت الشكوك حول سلوك موسى بن نصير قائد الحملة ، وشاع الظن بأنه احتفظ لنفسه بالجانب الأكبر من هذه الكنوز لأنه لم يدخل في خزائن الدولة القدر المناسب ، والذي تستحقه شرعاً من هذه الثروات الأسطورية ، وتبريراً لهذا الشك اخترعوا أساطير تقول إن كنوز ملوك كثيرين أصبحت في حوزته ، وتيجانهم وأحزمتهم الذهبية ، وأقدار لا تحصى من الجواهر واليواقيت ، والطنافس المنسوجة بالذهب والفضة والجواهر ، والأثاث المصنوع من أغلى المواد وإلى غير ذلك كثير .

وفضلاً عن ذلك أصبح هذا القائد المسلم وأسرته يحكمون مساحات شاسعة جداً من الإمبراطورية الإسلامية من تونس إلى المغرب وإسبانيا وشاعت الأخبار عن معاملته الحسنة وانسجامه مع الملوك الغرباء الذين خضعوا له حتى أن أحد أبنائه تزوج من أرملة ملك إسبانيا ، فأثار ذلك كله شكوك الخليفة الأموي بأن موسى يمكن أن يستقل بالأمر لنفسه .

حينئذ قرر الخليفة قلقاً ومتوجساً ومندفعاً ، أن يدعوه إلى المشرق وأن يعزله على حين اعتقد موسى ، وقد أصبح هرماً تقدمت به السن ، أن ماضيه في خدمة المسلمين وولاءه للخليفة ، يجعله يحظى بالاحترام ويتيح له أن يمضي في وطنه شيخوخة هادئة فأذعن للأمر ترك أسبانيا وعرض نفسه في بلاط الخليفة .

وقد برهن استقبال موسى ، ومسلك الخليفة إزاءه والتدبير المرعب والنجس باغتيال ابنه عبد العزيز المتزوج من أرملة لذريق ،على ما كان ينتظر هذا القائد العظيم ، ولا يطاوله في عظمته الحربية غير هرنان كورتس Heman Cortes [1] من جحود وقلة عرفان من خلافة دمشق جزاء قيادته الماهرة ووطنيته الصادقة ، وولائه لخليفته وأمته .

وكل هذه الأشياء التي يرويها لنا ابن القوطية مختلطة بالأساطير تجعل من النظرة التاريخية عند أخبار مجموعة ، وعند ابن القوطية أكثر اتساعاً ، وتساعدنا على أن نفهم بوضوح أشد خفايا الأحداث الكبرى في التاريخ .

ورغم تعدد الروايات التي أوردها فثمة شك فيما يتصل بالتفصيلات التي تضمنتها ، والتي يمكن مناقشتها وبيان جانب الضعف فيها ، مثل التفاهة التي تقص كيف أن طارق بن زياد احتفظ بأحد أرجل المائدة التي عثر عليها في طليطلة وأن ذلك لم يحدث ، وعن حقيقة خوليان وغير ذلك من التفاصيل، والذين يهتمون بدراسة تركيب الظواهر الاجتماعية والسياسية فحسب ، سوف يجدون في هذه المدونات التي ينشرها المجمع الملكي التاريخي ، تفسيرات واضحة عن العناصر التي كانت تتكون منها إمبراطورية بني أمية في إسبانيا الإسلامية والتي استمرت زمناً طويلاً .

ويمكن القول بأن خروج موسى إلى المشرق واغتيال ابنه المتزوج من أرملة لذريق أدى بالضرورة إلى تغييرات عظيمة في العلاقات السياسية الإسبانية ، لقد استعيض عن موالى موسى

[1]) المصدر السابق ، الترجمة رقم ٧٦٥ ، طبعة مدريد (و الترجمة رقم ٧٧٠ طبعة القاهرة) .

والإسبان من أتباع لذريق ، بأناس من العرب أكثر ولاء البني أمية مثل جند الشام وبإسبان من أنصار غيطشة ، وكان هؤلاء قد انسجموا سريعاً مع أمويي المشرق وبهم ربطوا مصيرهم .

ولقد حانت لحظة عابرة عندما أصبح يوسف الفهري والياً على إسبانيا ، وبدا قدرها متأرجحاً غير مؤكد حينئذ بدأت الأساطير التاريخية تقدم لنا أرطباس ، من أتباع غيطشة يجلس على كرسي أشبه بعرش يحيط به الرؤساء العرب في شبه جزيرة إيبريا يحضرون عنده ويسألونه شيئاً من سخائه الملكي .

وعندما أزاح العباسيون في المشرق بني أمية عن الخلافة لم يمكن لأولئك في شبه الجزيرة من يعتمدون على ولائه غير القليل فإسبانيا بعيدة عن الكفاح المجيد الذي اضطلعت به الأسرة الجديدة التي تولت الخلافة وأثار إعجاب الكثير من المسلمين فاهتبل الفرصة أحد أبناء الأسرة الأموية ووجد الظرف مواتياً لكي ينشئ هنا في الأندلس مملكة مستقلة واستطاع أن يحظى بمساعدة موالى أسرته والعنصر الإسباني من السكان الأصليين ، وكان يتمتع ساعتها بنفوذ وهيبة كبيرين ، وتقدم لنا الروايات التاريخية عبد الرحمن الداخل في نزاهاته عبر شبه الجزيرة يصحبه أرطباس ، قمة حزب غيطشة ، ولقد حدثت دون شك خلافات خطيرة بين الاثنين وتجرأ عبد الرحمن الداخل فقبض إقطاعيات أرطباس ولكنهما انسجما أخيراً ، واسترد أرطباس كرامته كاملة كرئيس للنصارى في الأندلس واغتنم أتباع غيطشة الظرف تماماً ليحصل كل واحد منهم على ما يستطيع من المراتب .

وقد بقى أحفاد غيطشة من ناحية الأب على عقيدتهم الدينية المسيحية دون أدنى شك ، واحتفظوا بمكانتهم الاجتماعية في نطاق التنظيم المسيحي ، وأمكنهم أن يحتفظوا بها بعد الفتح العربي ، وتولوا مراكز دينية سامية فأصبح أحد أبناء سارة - مثلاً – مطران إشبيليه وشغلوا مناصب قضائية وسياسية هامة فكان منهم قاضى طليطلة ، وقمومس الأندلس ، أما الأحفاد الذين انحدروا من ناحية الأم أي أبناء سارة القوطية وأحفادهم فقد أصبحوا مسلمين ضرورة ، بحكم الشريعة الإسلامية وذلك أن سارة القوطية عندما أحست بالمعاملة السيئة التي يلقاها عمها أرطباس ولما في المرأة من ضعف ذهبت إلى الخليفة الأموي في دمشق فبحث لها هذ عن زوج مسلم أوصي به عبد الرحمن بن معاوية ، أمير الأندلس فيما بعد وقد آثرت السلالة التي انحدرت من سارة أن تتخذ مسرورة من اسم أمهم المسيحية لقباً لهم ، وفضلته علي اسماء آبائهم المسلمين ، ويقول ابن القوطية إن أحفاد سارة كانوا في نطاق المجموعة الإسلامية يتمتعون بمكانة ممتازة وبهيبة بينة ، لم يتمتع بها أولاد أزواجها من نساء أخريات .

إن اتباع غيطشة يستطيعون أن يفخروا بأنهم ساعدوا على سقوط إسبانيا في عهد موسى وبأنهم أسهموا أيضا لصالحهم الشخصي في تدعيم الإمبراطورية الإسلامية في العصور التالية وفي عصر عبد الرحمن الناصر ، وعاشر ابن القوطية أيامه ، وكتب مخطوطته ، كان دم غيطشة لما يزل يتدفق حاراً في صدور المسلمين .

" شواعر الأندلس "

تأليف : د. تريسا غارولو
كلية الآداب – جامعة الكومبلوتنسى - مدريد

ترجمة : أ.د / منى ربيع بسطاوي
كلية الآداب – جامعة جنوب الوادى - قنــا

" شواعر الأندلس "

عندما نشر " لويس غونثالفو " سنة ١٩٠٥ أطروحته عن دراسة الشواعر المسلمات فى إسبانيا (١) ، أشار فى بداية حديثه إلى قلة المعلومات التى توافرت لديه عند دراسة هذا الموضوع ، فالمصادر قليلة جداً رغم كثرة أسماء الشواعر ، والترجمات قصيرة ومختصرة لا تمدنا إلا بمعلومات قليلة ولا يمكن أن تعطينا نموذجاً واحداً من إبداعهن الأدبى كنماذج لأعمالهن ، فالمقرى مثلاً خصص فصلاً من الجزء الرابع من نفح الطيب لشواعر الأندلس يشير إلى أنه سيذكر " جملة من نساء الأندلس اللائى لهن اليد الطولى فى البلاغة ، كى يعلم أن البراعة فى أهل الأندلس كالغريزة لهم ، حتى فى نسائهم وصبيانهم " (٢) ، وقد تضمن هذا الفصل نحو أربعة وعشرين اسمًا لهن صلة بالأدب ومنهن من هى مشهورة كولاّدة واعتماد الرُّميكية ، وقد نعثر فى كتب الأدب الأخرى على أعداد أخرى من الشواعر والكاتبات (٣) ، إلا أنه يبدو لى أن هذا العدد لا يوضح " الدور المهم الذى ساهمت به المرأة فى شتى ميادين الإبداع بالأندلس والشعر منها خاصة " كما لاحظ ذلك " لويس دى جياكومو " . (٤)

وإذا اعتمدنا على المعلومات التى يمدنا بها المقرى فإن الوضع سيزداد صعوبة ولن نتحمس لمواصلة هذا العمل لأن الترجمات لا تتعدى أسطرًا قليلة ، وأغلبها لا يفوق السطرين باستثناء ما يتعلق بولاّدة (جـ٤ / ص٢٠٥– ص٢١١) حيث يتعرض بالحديث لابن زيدون ، ويروى قصائد له

(١) لويس غونثالفو ، أطروحة عن دراسة الشواعر المسلمات فى إسبانيا (رسالة مقدمة إلى مجلس كلية الآداب والفلسفة بجامعة مدريد المركزية) مدريد ، ١٩٠٥م ، ص ٤٣ .
(٢) المقرى ، نفح الطيب ، تح . إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، جـ٤ / ص١٦٦ .
(٣) ينظر بالنسبة للقرون الوسطى المسيحية ، فرانشيسكو لوبيث استرادا " النِّساء الكاتبات فى القرون الوسطى المسيحية " ، ووضع المرأة فى القرون الوسطى وهو اللقاء الإسبانى الذى عقد بمدريد أيام ٥-٧ نوفمبر ١٩٨٤ بتنظيم من جامعة كومبلوتنسى ودار بلاسكيس بمدريد ، ص ١- ص ٢٧ .
(٤) لويس دى جياكومو " شاعرة أندلسية من زمن الموحدين : حفصة بنت الحاج الركونية " ، هسبريس ، ٣٤ (١٩٤٧) ، ص ١٥ ، ويحيل على بيريس ومؤلفه عن الشعر الأندلسى (انظر الترجمة الإسبانية " أزدهار الأندلس " مدريد ، هيبريون ١٩٨٣) .

موجهة لشاعرتنا ، وترجمة اعتماد حيث أفضى به الحديث إلى المعتمد وعائلته ، وكذلك الحال ترجمة حفصة الركونية (جـ٤ / ص١٧١– ص١٧٩) ، حيث ربط بين قصة حبها المأسوية وبين أشعار أبى جعفر بن سعيد .

ولكن من تلك القائمة الخاصة وهى الوحيدة بالنوابغ من النِّساء فى مجال الأدب لابد من أن نحذف بعض الأسماء كالعروضية (جـ٤ / ص١٧١) وهى التى يذكر لها المقرى شيوخها (شيخ واحد) وتلاميذها (تلميذ واحد) ، ومع ذلك لا يثبت ولو بيتاً واحداً من أشعارها كما فعل ابن الأبار فى التكملة [١] ، لأنهم لا يذكرونها لشعرها بقدر ما يذكرونها لعلمها إذ كانت تدرس علم اللغة لذا من الأفضل أن نعدها امرأة عالمة ، وهو السبب الذى دفع بالمؤرخين العرب إلى ذكر شيوخها [٢] .

ولا يمكن اعتبار أم الهناء (جـ٤ / ص٢٩٢) بنت القاضى أبى محمد عبد الحق بن غالب بن عطية [٣] ، شاعرة لأن المهتمين بحياتها يركزون على موهبتها فى استحضار الأبيات المواتية لظروف معينة من حياتها ، كما نرى فى البيت الذى أثبته كل من ابن الأبار والمقرى [٤] .

وإلى أى حد يمكن اعتبار اعتماد الرميكية زوجة المعتمد شاعرة ؟ فحياتها محاكة بنسيج فولكلورى وإنتاجها الشعرى لا يتعدى الشطر الثانى الذى أتمت به البيت الذى استأنف إنشاده المعتمد ليكمله صديقه ابن عمار ، وهو الشطر الذى جعلها تستحق لتصبح زوجة ملك إشبيلية ؟ [٥] .

أما من الناحية الأدبية فالمصادر العربية ليست غنية بالمعلومات المتعلقة بهؤلاء الشواعر ، اللهم إذا استثنينا ولاّدة التى يذكر لها المقرى تسع قصائد (إحداها تنسب فى المصادر الأخرى إلى ابن زيدون) ، وحفصة الركونية التى احتفظت لها المصادر باثنتى عشرة مقطوعة ، فى حين أن

---

(١) إشراق السويداء المعروفة بالعروضية نسبة إلى مهارتها فى علم العروض ، كانت مولاة وتلميذة لأبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون ، عاشت فى بلنسية وتوفيت بدانية بعد وفاة سيدها بسنوات قليلة (٤٤٣هـ/١٠٥١م) ، انظر الذيل = جـ٧ / ص٢ ، رقم (٢٤٠) ، وماريا لويسا أبيلا " النِّساء العالمات بالأندلس " وهى المداخلة التى ألقتها خلال الأيام الدراسية الخمسة حول " عمل النِّساء فى الوسط المسيحى فى القرون الوسطى : الأندلس والممالك المسيحية " التى نظمها معهد الدراسات حول النِّساء بالجامعة المستقلة بمدريد ، أيام ١٤-١٦ مارس ١٩٨٥ ، انظر الترجمة رقم (٥٢) .

(٢) قبل أن أمضى فى هذا البحث أود أن أشير بأننى لا أعتبر شواعر إلا أولئك النِّساء اللائى تصرح المصادر بأنهن كن شواعر أو نظمن أبياتاً أو رويت لهن بعض القصائد .

(٣) حول هذه الشخصية ، انظر : " خوسيه ماريا فورنياس ، فهارس عربية أندلسية : دراسة خاصة لفهرسة ابن عطية الغرناطى (٤٨١-٥٤١هـ/١٠٨٨-١١٤٧م) مختصر أطروحته للدكتوراه ، كلية الفلسفة والآداب ، مدريد ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ .

(٤) التكملة (تح . ألاركون وباليثيا) رقم ٢٨٤/٢ ، الذيل : جـ٨ / ص٢ ، رقم (٢٣٥) ، النفح ، جـ٤ / ص٢٩٢ ماريا أبيلا رقم (٩) .
وتذكر المصادر العربية أن أباها عندما عين قاضيا بألمرية (١١٣٤/٥٢٩) رجع إلى بيته وآثار الحزن بادية على وجهه لأنه مضطر لفراق غرناطة ، فأنشدت أم الهناء (وتسمى كذلك أمة الرحمن) هذا البيت :
- يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين فى فرح وفى أحزان
وهو البيت الثالث من قصيدة فى شرح شعر للمتنبى فى كتاب بعنوان " المكتفى " لمؤلفه عبد الدائم بن مرزوق القيراونى ، الذى يقول فيها :
١- جاء الكتاب من الحبيب بأنه سيزورنى فاستعبرت أجفانى
٢- غلب السرورُ علىّ حتى أنه من عِظم فِرْط مسرتى أبكانى =
= ٣- يا عين صار الدمع عندك عادة تبكين فى فرح وفى أحزان
٥- فاستقبلنى بالبشر يوم لقائه ودعى الدموع لليلة الهجران

(١) حول المعتمد وعائلته هناك دراسات كثيرة آخرها تقديم ماريا خيسوس روبيرا لكتابها : المعتمد بن عبّاد ، أشعاره ، نخبة من أشعاره باللغتين العربية والإسبانية ، ونشر بمدريد ١٩٨٢ ، وتناول فيها اعتماد الرميكية بالدراسة فى ص ٣٩- ص ٤٧ .

المقرى لم يذكر لها إلا مقطوعتين أو ثلاثة مكونة من بيتين أو ثلاثة ، وفى بعض الأحيان من بيت واحد ، إنتاجات بهذا القدر لا تمكننا من تقييم المميزات الأدبية لهؤلاء الشواعر ، وتزداد الصعوبة عندما نعلم أن هذه الأبيات لا تذكرها المصادر لقيمتها الأدبية ولكن لفظاعة أسلوبها لما تحويه من فحش ، كما هو الحال فى أهاجى مهجة ونزهون ، وولاّدة التى استعملت معجماً ما يزال يثير انتباه القراء لدرجة أنهم ينسون أحيانًا أن الهدف من الأهاجى العربية كان التقليل من شأن المهجو ، وأنه ابتداء من القرن الثانى عشر ابتعد الهجاء عن هدفه الأصلى فى الأدب العربى وتحول إلى هجاء للتسلية بين الطبقات الراقية (١) فى المجتمع .

إذن فالمصاعب التى واجهت غونثالفو فى وقته آنذاك مازالت ثابتة ، والأمور لم تتغير كثيراً ، نعم لقد نشرت مصادر مهمة فى تاريخ الأدب الأندلسى ، ولكن الدراسات والأبحاث حول مساهمة المرأة تكاد تكون منعدمة . ففى دليل المؤلفات الإسلامية INDEX-ISLAMICUS (٢) ، وإلى حدود سنة ١٩٨٠ لا يشار إلا لثلاث دراسات حول الشواعر : مقال لـ " دى جيوكومو " والذى نشرته مجلة هسبريس (١٩٧٤/٣٤ ، ص ٩- ص١٠١) ، وآخر لهوينرباخ (بالألمانية) مع ترجمة لـه باللغة الإسبانية بعنوان " ملاحظات حول تمييز ولاّدة " ونشر بمجلة الأندلس العدد ٣٧ لسنة ١٩٧١ ، ص٤٦٧ – ص٤٧٣ ، وثالث لإلياس تيريس بعنوان " الشاعر أبو المَخْشِى وحسانة التميمية " الأندلس العدد ٢٦ لسنة ١٩٦١م ، ص٢٢٩ – ص٢٤٤ ، إلا أن ما يتعلق بهذه الشاعرة لا يشغل إلا ثلاث صفحات من ص٢٤١- ص٢٤٤ ، وأخيراً يخصص نيكولاس بعض مقالاته للشواعر الإسبانيات – العربيات (٣) .

تراجم وأشعار لبعض شواعر الأندلس

*حفصة بنت الحاج الركونية *

(٢) بـــــيلا ، ش. الموســـــوعة الإســـــلامية ، مـــــادة " هجـــــاء " ، ط ٢ ، جـــــ٣ / ص٣٦٣- ص٣٦٦ .

(٣) الفهرس الإسلامى ١٩٠٦ – ١٩٥٥م ، قائمة مصنفات الموضوعات الإسلامية المنشورة فى الصحف والمجموعات : تصنيف جـى . دى . بيرسـون ، كمبـردج ١٩٥٨م الملحـق الأول ١٩٥٦ – ١٩٦١م ، كمبـردج ، ١٩٦٢م ، الملحـق الثـانى ١٩٦١ – ١٩٦٥م ، كمبردج ١٩٦٧م ، الملحق الثالث ١٩٦٦ – ١٩٧٠م ، لندن ، مانسيل ، ١٩٧٢م ، الملحق الرابع ١٩٧١ – ١٩٧٥م ، لنـدن ، مانسـيل ، ١٩٧٧م ، الفهـرس الإسـلامى ١٩٧٦ – ١٩٨٠م ، المجلـد الأول مصـنفات ، المجلـد الثلاثـى مقـالات فـى موضوع واحد ، لندن ، مانسيل ، ١٩٨٣م .

(١) جـى – إم . نيكـولاس : " ولاّدة الشـعر الغنـائى الأندلسـى وقضـايا التـأثير " ، أدب المشـرق والمغـرب ، ٢١ سـنة ١٩٧٧م ، ص٢٨٦ – ص ٢٩١ ، " النِّساء العربيات الشواعر بالأندلس " ، المجلة المغربية ، العدد الرابـع ، أرقـام ٤-٦ (يوليـو ديسـمبر ١٩٧٩م) ، ص١١٤ – ص١١٧ ، صـورة المـرأة فـى الشـعر العربـى الوسـيط ، المجلـة المغربيـة العـدد السـادس أرقـام ٥-٦ (سـبتمبر – ديسـمبر سـنة ١٩٨١م) ، ص٨٥ – ص٨٨ ، " الأشـعار العربيـة لقسـمونة بنـت إسـماعيل بـن بجدالـة ، جـيمس ص١٣(١٩٨١م) ، ص١٥٥- ص١٥٨ .

(*) التكملة (ط . ألا ركون وج بالنثيا) رقم (٢٨٩١) ، وياقوت إرشاد ، جـ٤ / ص١١٩ - ص١٢٣ ، والشقندى رسالة فى فضل الأندلس ١٣٢ - ١٣٣ ، المطرب ص١٠) والمغرب ، جـ٢ / ص١٣٨ - ص١٣٩ ، وص١٦٤ - ص١٦٦ " الرايات ص٦١ ، ص٢١٢ - ص٢١٤ ، والإحاطة ، جـ١ / ص٤٩١ – ص٤٩٤ ، والنزهة ص٣٢ - ص٣٥ ، والنفح ، جـ٤ / ص١٧١ - ص١٧٩ ، لويس جياكومو " شاعرة أندلسية من الموحدين حفصة بنت الحاج الركونية " اكسبريس ٣٤ (١٩٤٧) ، ٩ –١٠١ ، وكحالة ، جـ١ / ص٢٦٧ – ص٢٧١ ، إن ترجمة هذه الشاعرة قدمت بشكل مستوعب فى مقال دى جياكومو على نحو لم يترك فيه أى نوع من الإشارات الأدبية أو التاريخية وهو ما يحيطنا بالوسط الذى عاشت فيه حفصة .

واحدة من أشهر شاعرات الأندلس التى حفظ لها العديد من القصائد ، ويرجع ذلك إلى هذا الاهتمام الذى أولته أسرة بنى سعيد . لا نعرف على وجه الدقة تاريخ مولدها الذى يحدده دى جياكومو بأنه قريب من سنة ٥٣٠ = ١١٣٥ . وهى تنتمى لأسرة غرناطية تصنفها المصادر العربية بين الأسر ذات الحسب والمال . ويذكر عن حفصة أنها كانت فائقة الجمال . ومن المؤكد أن تكون قد حظيت بعناية خاصة فى تعليمها ، ذلك لأن كل من ترجموا لها يمتدحون تعليمها ، بل يلقبونها بأستاذة عصرها . وينقل ياقوت عن ابن بشكوال قوله إنها كانت قد كلفت بتعليم أميرات الموحدين فى قصر يعقوب المنصور (١١٨٤ - ١١٩٩) بمراكش ، حيث ماتت فى عام ٥٨٥ = ١١٩١.

إن أكثر الحكايات شهرة فى حياة حفصة هى حكاياتها العاطفية مع الشاعر أبى جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد [١] ، الذى كان لمأساته أثر فى جذب انتباه كل من ترجموا له تقريباً خاصة الذين ينتمون لأسرة بنى سعيد ، حيث ينقلون كثيراً من القصائد التى كان يتبادلها الحبيبان ، وترجع بداية هذه العلاقات الغرامية كما يقول دى جياكومو ، تقريباً إلى سنة ٥٤٩ = ١١٥٤ ، واستمرت بين مد وجزر حتى مقتل الكاتب (أبى جعفر) فى سنة ٥٦٠ = ١١٦٣ ، وكانت هذه العلاقة الغرامية هى السبب المباشر لمقتله .

إن جمال حفصة أثار بشكل كبير مشاعر الحاكم الموحدى لغرناطة ، الأمير أبى سعيد عثمان ابن الخليفة عبد المؤمن الذى وصل إلى غرناطة عام ٥٥١ = ١١٥٦ ، وإذا افترضنا أن أبا عثمان كان حتى ذلك التاريخ ما يزال ، مراهقاً فإنه من المنطقى أن نعتقد أنه لم يتولع بهذه الشاعرة إلا فى وقت لاحق . على كل حال ، يبدو أن حفصة قد قبلت أن تكون عشيقة لكلاً العاشقين فى وقت واحد ، أو على الأقل هكذا كان يعتقد بنو سعيد .

لقد تدهورت العلاقة التى كانت بين حاكم غرناطة وأبى جعفر الذى كان كاتباً عنده ، تدهوراً سريعاً ، لقد حمل الحساد الشاعر على هجاء أبى سعيد عثمان الذى نقلوا إليه كلمات تهكمية كان أبو جعفر توجه بها إلى حفصة :

فقد كان الأمير أسود اللون ، وقد أنكر الشاعر على حفصة اهتمامها بالحاكم ، فقال لها : ما تحبين فى ذلك الأسود وأنا أقدر أشترى لك من السوق بعشرين ديناراً خيراً منه ؟

وكان هناك إلى جانب الحساد بعض الأعمال التى أضرت بالأسرة ، فقد قام الموحدون من قبل بسجن أبيه وهو ما أثر دون شك فى الموقف السياسى الذى تبناه أبو جعفر ابن سعيد الذى انضم إلى صفوف ابن مردنيش [٢] ، الذى ثار على سلطة الموحدين واحتل غرناطة خلال بضع شهور من عام ١١٦٢ .

وكانت حفصة – بطبيعة الحال – مطلعة على الأمر كله ، فقد وردت بعض الأشعار التى كتبها فى وداعها حاتم بن حاتم بن سعيد (ت ٥٩٢ – ٥٩٣= ١١٩٥ - ١١٩٦) [٣] ابن عم أبى جعفر هذا الذى فر هارباً خوفاً من الانتقام منه ، إلى موطن الأسرة بالقلعة وبعد ذلك إلى مالقة حيث استطاعت عيون أبى سعيد عثمان أن تكشفه ، وقبض عليه وصلب بأمر الأمير الموحدى . وقد حفظت حكاية هذه الزيارة [٤] ، التى قام بها أحد أبناء عمومته له عندما كان بالسجن ، فرق قلبه لسوء حاله ، وراح يعزى أبا جعفر ، فى أسلوب نثرى ، متأملاً ما كانت عليه حياته فى الماضى وما آل إليه أمره فى الحاضر .

---

(١) أبو جعفر هذا يعد - بعد ابن سعيد المغربى صاحب المغرب – من أبرز أفراد أسرة بنى سعيد الذين حكموا القلعة انظر بوتيرن " عناصر من تراجم وأنساب بنى سعيد) العربية ، جـ ١٢ (١٩٦٥) ٧٨ – ٩١ ، حيث يعرض ترجمات وفيرة عن هذه الأسرة وتشغل ترجمة أبى جعفر ، صفحات ٨٥ - ٨٧ .

(١) ابن مردنيش (١١٢٤ – ١١٧٢) المعروف فى الحوليات المسيحية بلقب الملك الذئب ، فقد استولى – عقب سقوط دولة المرابطين – على حكم بلنسية ومرسية ، ومن هناك كان ينافس الموحدين فى السيطرة على وسط الأندلس ؛ ونجح فى بسط نفوذ دولته = = حتى وصل إلى جيان وقادس وقرمونة وحاصر قرطبة وإشبيلية ، وقد استولى أيضاً على غرناطة لفترة قصيرة لقد كانت خيانة ابن همشك الذى كان حماه ، بانضمامه إلى الموحدين عام ١١٦٩ هو ما يسجل به نهاية سلطانه ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ، ط. ٢ ، جـ٣ / ص٨٨٩ .
[يذكر ابن سعيد أن الذى فر إلى مردنيش ملك شرق الأندلس هو عبد الرحمن بن سعيد أخو أبى جعفر ، فوجد عثمان سبباً إلى الإيقاع بأبى جعفر فضرب عنقه ، المغرب ، جـ ٢ ، ص١٦٤ ، المترجم]

(١) الإحاطة ، جـ١ / ص٤٨٥ ، تظهر ترجمته فى المغرب ، جـ٢ / ص١٦٨ ، والإحاطة ، جـ١ / ص٤٨٣ – ص٤٨٥ ، والنفح ، جـ٣ / ص٤٩٩ ، وبوتيرن ، ص٨٢ – ص٨٣ ، وقد صار واحداً من المستشارين والأصدقاء الموثوق بهم لابن مردنيش .

(٢) الإحاطة ، جـ١ / ص٢١٨ – ص٢١٩ ، والنفح ، جـ٤ / ص٢٠٤ – ص٢٠٥ .

على الرغم من هذه التقلبات العاطفية التى من المحتمل أن تكون مرت بها حفصة فإننا نرى الشاعرة تلبس ملابس الحداد حزناً على أبى جعفر دون أن تلقى بالاً لهذه التهديدات التى حذرتها - فيما يبدو- من فعل ذلك على نحو ما تصرح عن ذلك فى القصيدة رقم ١٧ .

بعد هذه الأحداث يبدو أن حفصة قد طرحت الشعر جانباً ، وإن كان من الممكن أن الأمر لا يعدو أن أحداً لم يعد يهتم بجمع قصائدها التى كتبتها فى الفترة التالية على خلاف ما كان يحدث مع قصائدها التى توجهت بها إلى أبى جعفر ، وآخر ما يروى عنها أنها كانت تعلم الأميرات الموحديات بمراكش حيث ماتت هناك .

لقد كانت حفصة امرأة ذائعة الصيت فى غرناطة ، وهناك دليل على ذلك هو أن امرأة من أعيان غرناطة (يذكر فى الإحاطة أنها أخت الوزير أبى بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الحمدانى) سألتها أن تكتب لها شيئاً بخطها ، فكتبت إليها .

١- (من البسيط)

١- يا ربة الحسن بل يا ربة الكرم ∴ غضى جفونك عما خطه قلمى
٢- تصفحيه بلحظ الود منعمة ∴ لا تحفلى بردئ الخط والكلم

كانت حفصة تتردد على بلاط حاكم غرناطة الموحدى الذى كان يعرفها بطبيعة الحال ، ويذكر أيضاً أنها قد وفدت ضمن وفد من الشعراء والنبلاء الغرناطيين ، على الخليفة عبد المؤمن الذى كان إذ ذاك - كما يقول دى جياكومو - بالرباط (١١٥٨-١١٥٩) ، ويبدو أنه منحها إحدى الإقطاعات القريبة من غرناطة والمسماة ركونة ومن هنا يأتى نسب هذه الشاعرة . وإذا كانت حفصة أنشدت قصيدة مدح فى هده المناسبة فهى لم تصل إلينا ، فلم يصل إلينا سوى قصيدة قصيرة من ثلاثة أبيات قالتها ارتجالاً فى حضرة الخليفة حيث تشير فيها إلى العلامة السلطانية عند الموحدين وهى " الحمد الله وحده " .

٢- (من المجتث)

١- يا سيد الناس يا من ∴ يؤمل الناس رفده
٢- أمنن علىَّ بطرس ∴ يكون للدهر عده
٣- تخط يمناك فيه ∴ الحمد لله وحده

وفى داخل إطار شعر المدح أو القصيدة الرسمية ، نجد لها بعض الأشعار التى كتبتها لأبى سعيد عثمان تهنئه بيوم عيد ، ويبدو من خلال الأشعار بعض التلميحات التى تشير إلى ما كان بينهما من علاقة حميمة .

٣- (من الكامل)

١- يا ذا العلا وابن الخليـ ∴ ـفة والإمام المرتضى
٢- يهنيك عيد قد جرى ∴ فيه بما تهوى القضا
٣- وأتاك من تهواه فى ∴ قيد الإنابة والرضى
٤- ليعيد من لذاته ∴ ما قد تصرم وانقضى

وهناك أيضاً قصيدة مدحية قصيرة تمدح حفصة بها أبا جعفر ابن سعيد عندما عين كاتباً لحاكم غرناطة الجديد ، وهو ما أثار عليه حفيظة بعض الحساد .

٤- (من الطويل)

١- رأست فمازال العداة بظلمهم ∴ وعلمهم النامى يقولون لم رأس
٢- وهل منكر أن ساد أهل زمانه ∴ جموح إلى العليا حرون عن الدنس

إن غالبية قصائد حفصة قصائد حب توجهت بها إلى أبى جعفر ابن سعيد ، تعبر عن رغبتها فى لقائه ، وتنكر عليه ، بسبب غيرتها ، اهتمامه بغيرها من النساء ، معترضة عليه بدلال واضح ، ومؤكدة وفاءها له حتى فى الغيبة ، وقد حاول دى جياكومو أن يؤرخ لبعض القصائد ، لكن المعلومات التى وردت فى كتب التراجم لم تكن بالدقة التى تسمح بذلك .

وبداية سوف أنقل بعض المواقف التى أوردها المقرى فى النفح جـ٤ / ص١٧٣ – ص١٧٥ التى تثبت كيف أن الكتاب العرب أحسوا بضرورة معالجة أو تطوير بعض الحكايات ليبرروا بها تأليف بعض القصائد

لبعض الشخصيات التى يعنون بها ولا أريد أن أثبت بذلك أن المواقف الأخرى المشابهة لم تحدث ، لكن يبدو لى أنها أكثر سبكاً أو وضعاً ، ومليئة بالحوادث الطارئة مما يصعب الحكم عليها بشكل مطلق .

بعد إشارة سريعة إلى الحب وغيرة أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن التى حملته على قتل أبى جعفر بن سعيد ، يقول المقرى : " وطلب أبو جعفر منها الاجتماع ، فمطلته قدر شهرين ، فكتب لها : [من المجتث]

١- يا من أجانب ذكر اسـ ∴ ـمه وحسبى علامه
٢- ما إن أرى الوعد يقضى ∴ والعمر أخشى انصرامه
٣- اليوم أرجوك لا أن ∴ تكون لى فى القيامه
٤- لو قد بصرت بحالى ∴ والليل أرخى ظلامه
٥- أنوح وجداً وشوقاً ∴ إذ تستريح الحمامه
٦- صب أطال هواه ∴ على الحبيب غرامه
٧- لمن يتيه عليه ∴ ولا يرد سلامه
٨- إن لم تنيلى أريحى ∴ فاليأس يثنى زمامه

فأجابته حفصة :

٥- (من المجتث)

١- يا مدعى فى هوى الحسـ ∴ ـن والغرام الإمامه
٢- أتى قريضك لكن ∴ لم أرض منه نظامه
٣- أمدعى الحب يثنى ∴ يأس الحبيب زمامه
٤- ضللت كل ضلال ∴ ولم تفدك الزعامه
٥- مازلت تصحب مذكنـ ∴ ـت فى السباق السلامه
٦- حتى عثرت وأخجلـ ∴ ـت بافتضاح السآمه
٧- بالله فى كل وقت ∴ يبدى السحاب انسجامه
٨- والزهر فى كل حين ∴ يشق عنه كمامه
٩- لو كنت تعرف عذرى ∴ كففت غرب الملامه

ووجهت هذه الأبيات مع موصل أبياته ، بعدما لعنته وسبته ، وقالت له لعن الله المرسِل والمرسَل ، فما فى جميعكما خير ولا لى برؤيتكما حاجة ، وانصرف بغاية من الخزى ، ولما أطل على أبى جعفر وهو فى قلق لانتظاره قال له : ما وراءك يا عصام ؟ قال : ما يكون وراء من وجهه خلف إلى فاعلة تاركة ، اقرأ الأبيات تعلم ، فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخف عقلك وأجهلك ! إنها وعدتنى للقبة التى فى جنتى المعروفة بالكمامة ، سر بنا ، فبادروا للكمامة ، فما كان إلا قليلاً وإذا بها قد وصلت وأراد عتبها ، فأنشدت : [من الوافر]

١- دعى عد الذنوب إذا التقينا ∴ تعالى لا نعد ولا تعدى[1]

وجلسا على أحسن حالة ، وإذا برقعة الكتندى [2] الشاعر لأبى جعفر ، وفيها : [من الطويل]

١- أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجد ∴ خلوت بمن تهواه رغماً لحاسد
٢- فهل لك فى خل قنوع مهذب ∴ كتوم عليهم باختفاء المراصد
٣- يبيت إذا يخلو المحب بحبه ∴ ممتع لذات بخمس ولائد

(١) لا أعرف صاحب هذا البيت (فمن المؤكد أنه ليس لحفصة) فهو يتكرر كثيراً ويوظف فى مجال كف اللوم بين الأصدقاء (وهو هنا بين الأحبة) ، وهو يظهر هكذا فى كتاب الأغانى لأبى فرج الأصفهانى ، ت. على الغربوى ومحمد غانم بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط. بيروت ، بدون تاريخ ، المجلد ٢١ ، ص٧٣ .

(٢) محمد بن عبد الرحمن الكتندى ، شاعر خليع أو ماجن من القرن الثانى عشر ، من كتندة (ترويل) كان صديقاً لكل شعراء عصره تقريباً وتذكر المصادر العربية هذه الصحبة له ، انظر المغرب ، جـ٢ / ص١٢١ ، ص١٦٧ ، والنفح ، جـ٣ / ص٤٩٧- ص٤٩٨ ، وص٥١٣- ص٥١٥ .

فقرأها على حفصة ، فقال : لعنه الله ، قد سمعنا بالوارش على الطعام والواغل على الشراب ، ولم نعلم اسماً لمن يعلم باجتماع محبين فيروم الدخول عليهما : فقال لها : بالله سمية لنكتب له بذلك ، فقالت : أسمية الحائل ، لأنه يحول بينى وبينك إن وقعت عينى عليك ، فكتب له فى ظهر رقعته : [من المجتث]

١- يـــا مـــن إذا مـــا أتـــانى ∴ جعلتـــه نصـــب عينـــى
٢- تـــراك ترضـــى جلوسًـــا ∴ بـــين الحبيـــب وبينـــى ؟
٣- إن كـــان ذاك فمـــاذا ∴ تبغـــى ســـوى قـــرب حينـــى
٤- والآن قـــد حصـــلت لـــى ∴ بعـــد المطـــال بـــدينى
٥- فـــإن أتيـــت فـــدفعًا ∴ منهـــا بكلتـــا اليـــدين
٦- أو لـــيس تبغـــى وحاشًـــا ∴ ك أن تـــرى طيـــر بـــين
٧- وفـــى مبيتـــك بالخمـــ ∴ ـــس كـــل قبـــيح وشـــين
٨- فلـــيس حقـــك إلا الـــ ∴ خلـــو بالقمـــرين

وكتب له تحت ذلك ما كان منها من الكلام ، وذيل ذلك بقوله : [من الكامل]

١- ســماك مـــن أهـــواه حائـــل ∴ إن كنـــت بعـــد العتـــب واصـــل
٢- مـــع أن لونـــك مـــزعج ∴ لـــو كنـــت تحـــبس بالسلاســـل

فلما رجع إليه الرسول وجده قد وقع بمطمورة نجاسة ، وصار هتكة ، فلما قرأ الأبيات قال للرسول : أعلمهما بحالى ، فرجع الرسول وأخبرهما بذلك ، فكاد أن يغشى عليهما من الضحك وكتب إليه كل واحد بيتاً ، وابتدأ أبو جعفر قال :

٦- (من الرجز)

١- قـــل للـــذى خلصـــنا ∴ منـــه الوقـــوع فـــى الخـــرا
٢- ارجـــع كمـــا شـــاء الخـــرا ∴ يـــا ابـــن الخـــرا إلـــى ورا
٣- وإن تعـــد يومـــا إلـــى ∴ وصـــالنا ســـوف تـــرى
٤- يـــا أســـقط النـــاس ويـــا ∴ أنـــذلهم بـــلا مـــرا
٥- هـــذا مـــدى الـــدهر تـــلا ∴ قـــى لـــو أتيـــت فـــى الكـــرى
٦- يـــا لحيـــة تشـــغف فـــى الـــ ∴ ـــخرء وتشـــنا العنبـــرا
٧- لا قـــرب الله اجتمـــا ∴ عـــاً بـــك حتـــى تقبـــرا

هذه هى القصيدة الوحيدة ذات الطابع الهجائى لحفصة ، وهى نموذج واضح لهذا التحول الذى أصاب قصيدة الهجاء العربية فى هذا الوقت من تدهور وانحطاط .

هناك قصيدة أخرى لحفصة تمثل لنا هذا النوع من الدلال الطلى الذى فيه غير قليل من خدش الحياء ، قصيدة يبدو أنها ظهرت مع بداية علاقتها بأبى جعفر بن سعيد ، ومن جديد تتوقف المصادر العربية معجبة بهذه الرقة الأدبية فى مبادلاتهما الشعرية .

فعقب إحدى الأمسيات التى قضاها أبو جعفر فى بستان بحور مؤمل المشهورة بغرناطة [1] يكتب أبو جعفر إليها شعراً لتجيبه على عادتها فى مثل ذلك بقصيدة أخرى ، تقول أبيات أبى جعفر : [من الطويل]

١- رعـى الله لـيلاً لـم يـرح بمـذمم ∴ عشـية وارانـا بحـور مؤمـل
٢- وقد خفقت من نحو نجد أريجة ∴ إذا نفحـت هبـت بريـا القرنفـل
٣- وغرد قمرى على الدوح وانثنى ∴ قضيب من الريحان من فوق جدول
٤- يرى الروض مسروراً بما قد بداله ∴ عنـاق وضـم وارتشـاف مقبـل

فكتبت إليه بقولها :

٧- (من الطويل)

١- لعمرك ما سر الرياض بوصلنا ∴ ولكنـه أبـدى لنـا الغـل والحسـد
٢- ولا صفق النهر ارتياحاً لقربنا ∴ ولا غـرد القمـرى إلا لمـا وجـد
٣- فلا تحسن الظن الذى أنت أهله ∴ فما هو فى كل المواطن بالرشد
٤- فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه ∴ لأمر سوى كيما تكون لنا رصد

٨- (من الطويل)

(١) انظر ما سبق ، ص٣٤ .

١- ثنائى على تلك الثنايا لأننى ∴ أقول على علم وأنطق عن خبر
٢- وأنصفها لا أكذب الله أننى ∴ رشفت بها ريقاً ألذ من الخمر

٩- (من الرمل)

كتبت إلى أبى جعفر :

١- سار شعرى لك عنى زائراً ∴ فأعر سمع المعالى شنفه
٢- وكذاك الروض إذ لم يستطع ∴ زورة أرسل عنه عرفه

فكتب إليها أبو جعفر : [من الرمل]

١- قد أتانا منك شعر مثلما ∴ أطلع الأفق لنا أنجمه
٢- وفم فاه به قد أقسمت ∴ شفتى بالله أن تلثمه

١٠- (من المتقارب)

١- سلام يفتح فى زهره ال ∴ كمام وينطق ورق الغصون
٢- على نازح قد ثوى فى الحشا ∴ وإن كان تحرم منه الجفون
٣- فلا تحسبوا البعد ينسيكم ∴ فذلك والله ما لا يكون

١١- (من الطويل)

١- ولو لم يكن نجماً لما كان ناظرى ∴ وقد غبت عنه مظلماً بعد نوره
٢- سلام على تلك المحاسن من شج ∴ تناءت بنعماه وطيب سروره

١٢- (من الطويل)

١- سلوا البارق الخفاق والليل ساكن ∴ أظل بأحبابى يذكر لى وهنا
٢- لعمرى لقد أهدى لقلبى خفقة ∴ وأمطرنى منهل عارضه الجفنا

وكتبت لأبى جعفر [١] :

١٣- (من الوافر)

١- أزورك أم تزور فإن قلبى ∴ إلى ما تشتهى أبداً يميل
٢- فثغرى مورد عذب زلال ∴ وفرع ذؤابتى ظل ظليل
٣- وقد أملت أن تظما وتضحى ∴ إذا وافى إليك بى المقيل
٤- فعجل بالجواب فما جميل ∴ إباؤك عن بثينة يا جميل[٢]

فقال أبو جعفر فى جوابها : [من السريع]

١- أجلكم ما دام بى نهضة ∴ عن أن تزوروا إن وجدت السبيل
٢- ما الروض زواراً ولكنما ∴ يزوره هب النسيم العليل [٣]

١٤- (من الخفيف)

١- زائر قد أتى بجيد الغزال ∴ مطلع تحت جنحه للهلال
٢- بلحاظ من سحر بابل صيغت ∴ ورضاب يفوق بنت الدوالى
٣- يفضح الورد ما حوى منه خد ∴ وكذا الثغر فاضح للآلى
٤- ما ترى فى دخوله بعد إذن ∴ أو تراه لعارض فى انفصال

١٥- (من البسيط)

١- يا أظرف الناس قبل حال ∴ أوقعه نحوه القدر
٢- عشقت سوداء مثل ليل ∴ بدائع الحسن قد ستر
٣- لا يظهر البشر فى دجاها ∴ كلا ولا يبصر الخفر
٤- بالله قل لى وأنت أدرى ∴ بكل من هام فى الصور

---

(١) فى النفح ، جـ٤ / ص١٧٨ ، يذكر أن حفصة كتبت بهذه الأبيات إلى بعض أصحابها دون تحديد ، لكن فى ترجمة أبى جعفر التى وردت فى المغرب : جـ٢ / ص١٦٦ ، يذكر ابن سعيد أنها أرسلت بها إلى أبى جعفر وهو ما اتبعته هنا .

(٢) يشير إلى جميل الشاعر العذرى المشهور الذى يعد نموذجاً جيداً للعاشقين ومحبوبته بثينة .

(٣) يذكر ابن سعيد أبياتاً فى المغرب لأبى جعفر تصلح للغرض نفسه وهى :
١- زارها من غدا سقيم هواها وبراه شوقاً إليها النحول
٢- وكذا الروض لا يزور ويأتى أبداً نحوه النسيم العليل

٥- مـــن الـــذى هـــام فـــى جنـــان ∴ لا نـــــور فيـــــه ولا زهـــــر

١٦- (من الوافر)

١- أغـار عليـك مـن عينـى ومنـى ∴ ومنـك ومـن زمانـك والمكـان
٢- ولـو أنـى خبأتـك فـى عيـونى ∴ إلـى يـوم القيامـة مـا كفـانى

١٧- (من الخفيف)

١- هـددونى مـن أجـل لـبس الحـداد ∴ لحبيـــب أردوه لـــى بالحـــداد
٢- رحـــم الله مـــن يجـــود بـــدمع ∴ أو ينـوح علـى قتيـل الأعـادى
٣- وســـقته بمثـــل جـــود يديـــه ∴ حيث أصحى من البلاد الغوادى

---

* بثينة بنت المعتمد *

ابنة المعتمد ملك إشبيلية (ت ١٠٩٥) والمقرى هو الكاتب الوحيد الذى يحدثنا عن هذه الشاعرة ، مدفوعاً بهذا الاهتمام الذى يعترف بأنه له أثار مشاعره بعمق تجاه المعتمد وحظه العاثر هو وأسرته . ويحدثنا عن بثينة بقوله إنها كانت نحواً من أمها الرميكية فى الجمال والنادرة ونظم الشعر . ويصف بعد ذلك الموقف الذى كتبت أشعارها الوحيدة التى تحفظ لها ، يقول : لما أحاط المرابطون بأبيها فى إشبيلية واستولوا على المدينة ، نهبوا القصر وكانت بثينة من جملة من سبى . وفى أثناء الفترة اللاحقة التى كانت طويلة وأليمة ، كان أبواها فى وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب والذى تحكى فيه أن أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية ووهبها لابنه ، فنظر من شأنها وهيئت له ، فلما أراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسبها ، وقالت : لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضى أبى بذلك وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه . فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما صورته : (من الكامل) .

١- اسمع كلامى واستمع لمقالتى ∴ فهى السلوك بدت من الأجياد
٢- لا تنكروا أنى سبيت وأننى ∴ بنت لملك من بنى عباد
٣- ملك عظيم قد تولى عصره ∴ وكذا الزمان يؤول للإفساد
٤- لما أراد الله فرقة شملنا ∴ وأذاقنا طعم الأسى عن زاد
٥- قام النفاق على أبى فى ملكه ∴ فدنا الفراق ولم يكن بمراد

٦- فخرجت هاربة فحازنى امرؤ ∴ لم يأت فى إعجاله بسدادِ
٧- إذا باعنى بيع العبيد فضمنى ∴ من صاننى إلا من الأنكادِ
٨- وأرادنى لنكاح نجل طاهر ∴ حسن الخلائق من بنى الأنجادِ
٩- ومضىإليك يسومرأيك فالرضى ∴ ولأنت تنظر فى طريق رشادى
١٠- فعساك يا أبتى تعرفنى به ∴ إن كان ممن يرتجى لودادِ
١١- وعسى رميكية الملوك بفضلها ∴ تدعو لنا باليمن والإسعادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقع فى شراك الكروب والأزمات ، سرّ هو وأمها بحياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها ، إذا علما مآل أمرها ، وجبر كسرها إذ ذلك أخف الضررين ، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجاب رين ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبى المذكور ، وكتب إليها أثناء كتابه مما يدل على حسن صبره المشكور : (من السريع)

١- بنيتـــى كـــونى بـــه بـــرة ∴ فقـد قضـى الوقـت بإسـعافه

* ولادة بنت المستكفي *

ابنة للخليفة محمد الثالث المستكفى ، الذى كان خليفة لمدة ستة عشر شهراً (١٠٢٤-١٠٢٥) وفى نهاية هذه المدة هرب من قرطبة متنكراً فى زى امرأة ، وقد اغتيل بعد قليل من فراره .

ولّادة نموذج للأميرة المثقفة والنابغة التى يقول عنها ابن بشكوال إنها كانت شاعرة تمالط الشعراء وتساجل الأدباء وتفوق البرعاء ، وقد اشتهرت بشكل أساسى باعتبارها ملهمة ابن زيدون بهذه الأشعار العاطفية التى تعد من أجمل الشعر الأندلسى ، لكنها مع ذلك قد جذبت انتباه الكتّاب العرب على شخصيتها .

وفى أثناء فترة الاضطرابات السياسية الدائمة والتى بدأت عام ١٠٠٩ مع اغتيال المظفر بن المنصور وانتهت بقيام ملوك الطوائف عام ١٠٣١ ، أتاحت لها مكانتها العالية حرية خاصة فى التعامل والتصرف ، ولم تدم طويلاً هذه الفترة من حياتها ، كانت قرطبة مدينة غير آمنة تماماً (بشكل دقيق خلال سنوات الفتنة قد هدمت القصور العظيمة التى بناها الأمويون ، مدينة الزهراء ، والزهيرة .. الخ) فقد كانت عرضة لغارات جيوش المتمردين المتنافسين ، ومغنماً للجنود .

ويجب أن تكون السنوات الذهبية لولّادة قليلة ، تلك السنوات التى كان لأدبها وجمالها وظرفها ما يجذب إلى مجالسها الشعراء ، والكتّاب من ذوى الشأن فى عصرها الذين كانوا يبحثون عن الصحبة اللطيفة ، فقد جمعت إلى ذكائها نبلها وطهارة ثوبها ، لكن التقليل من شأنها فى المناسبات أعطى الفرصة لكثير من الشائعات حول سلوكها [١] . من هنا أيضاً جاء التأكيد على أنها لم يكن لها تصاون يطابق شرفها ، وعلى الرغم من ذلك ، ومن تلك اللامبالاة التى تتباهى بها كما تشير الأبيات التى يقال إنها كتبتها على عاتقى ثوبها وفقاً للتقاليد المبتكرة الرفيعة (قصيدة رقم ١) ، على الرغم من ذلك فبعض المؤلفين يقولون إنها كانت معروفة باستقامتها وعفتها ويقرنونها بإحدى الأميرات العباسيات وهى عليا ابنة الخليفة المهدى (٧٧٥-٧٨٥) التى توصف بجمالها وعلمها ومواهبها الأدبية التى جعلت منها شاعرة جديرة بالتقدير ، وأيضاً بتصاونها وعفتها [٢] وينبهنا ابن سعيد بعد مثل هذه المقارنة إلى أنها كانت أكثر جمالاً ، وقد حفظت قصيدتان لها (رقم ٢ ، ٣) عن فترات الصفاء بينها وبين ابن زيدون والتى تصرح فيها برغبتها فى رؤيته وحنينها إلى الأوقات الجميلة التى قضتها فى صحبته ، لكن هذه العلاقات الغرامية انتهت على نحو قبيح ، ربما يرجع ذلك لمغامرات ابن زيدون العابثة حيث أحب جارية سوداء لولّادة التى عبرت عن غيرتها فى قصيدة (رقم ٤) وهى قصيدة مليئة بالمشاعر المتناقضة ، والعجب الجريح حين صارت مستبدلة بامرأة أخرى ذات مكانة دنيئة ، والألم الذى اعتصرها حين رأت نفسها مهجورة ، ومن الممكن أن يكون هذا الحادث هو ما جعل ولّادة تتطلع إلى أحد وزراء ذلك الوقت ، وهو الوزير أبو عامر ابن عبدوس ، وهو ما أثار غيرة ابن زيدون الذى كتب ضد هذا الشخص رسالة يهجوه فيها ، وهى رسالة مشهورة إلى حد ما ، ويجب أن يكون قد قطع علاقته أو صلته بالأميرة التى كتبت فى هذا الوقت بعض قصائد الهجاء اللاذع ضد حبيبها القديم (القصائد رقم ٥ و ٦ و ٧) .

وشعر الهجاء من الأغراض التى تدربت عليها ولّادة فى مثابرة حقيقية لكن لم يحفظ لها سوى ثلاث قصائد ضد ابن زيدون ، وواحدة ضد الأصبحى (رقم ٨) .

ويعترف ابن بسام بأنه لم يجمع لها أكثر من تلك القصائد (رقم ١ و ٢ و ٤ و ٩) لأن معظم القصائد التى قرأها لولّادة من القصائد الهجائية التى لا يريد العودة إليها ، يبقى بعد ذلك معلومات قليلة تعرف عن حياة ولّادة ، فهى لم تتزوج أبداً ، ومن الممكن أن يكون ذلك بسبب تأثير الشائعات التى ولدت لديها عدم الاهتمام بالرأى الآخر .

ولابد أنها ظلت على علاقتها بابن عبدوس ، ذلك لأن ابن بسام يقول إن كليهما قد عاشا لسنوات طويلة ، أكثر من ثمانين عاماً ، وقد حافظ ابن عبدوس على صداقته ومراسلته للأميرة التى أخذ وضعها – مع مرور الأعوام – فى التقهقر ووصل الأمر أن أصبح ابن عبدوس متكفلاً بها على قدر إمكانياته التى توصف لنا بأنها قليلة ، وتوفيت ولّادة بعد عام ٤٧٠ = ١٠٧٧ ، والأفضل وفقاً لراوية أخرى يمدنا بها ابن بشكوال أنها توفيت يوم قتل الفتح أبى نصر ابن المعتمد وهو يدافع عن قرطبة ضد الهجوم المرابطى ، يوم الأربعاء لليلتين خلتا من صفر من سنة ٤٨٤ = ٢٦ من مارس ١٠٩١ .

---

(١) انظر على سبيل المثال قصيدة مهجة القرطبية (ضد ولّادة) فى ترجمتنا السابقة لمهجة .

(٢) النزهة ، ص٦٠ – ص٦٣ .

١- (من الوافر)

فقد كتبت على أحد عاتقى ثوبها (الأيمن) هذا البيت :

١- أنـــا والله أصـــلح للمعـــالى ∴ وأمشـــى مشـــيتى وأتيـــه تيهـــا

وكتبت على الآخر (الأيسر) :

١- وأمكن عاشقى من صحن خدى ∴ وأعطـــى قبلتـــى مـــن يشـــتهيها

٢- (من الطويل)

١- ترقـب إذا جـن الظـلام زيـارتى ∴ فـإنى رأيـت الليـل أكـتم للسـر

٢- ويى منك مالوكان بالشمس لم تلح ∴ وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر[١]

٣- (من الطويل)

١- ألا هل لنـا مـن بعد هذا التفرق ∴ سـبيل فيشكو كـل صـب بمـا لقـى

٢- وقد كنت أوقات التزاور فى الشتا ∴ أبيت على جمر من الشوق محرق

٣- فكيف وقد أمسيت فى حال قطعة ∴ لقد عجل المقدور مـا كنـت أتقـى

٤- تمر الليالى لا أرى البين ينقضى ∴ ولا الصبر من رق التشوق معتقى

٥- سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلا ∴ بكـل سـكوب هاطـل الوبـل مغـدق

٤- (من الكامل)

١- لو كنت تنصف فى الهوى مـا بيننـا ∴ لـم تهـو جـاريتى ولـم تتخيـر

٢- وتركـت غصـناً مثمـراً بجمالـه ∴ وجنحـت للغصـن الـذى لـم يثمـر

٣- ولقـد علمـت بـأننى بـدر السـما ∴ لكـن دهيـت لشـقوتى بالمشـترى

قالت فى هجائه :

٥- (من الوافر)

١- ولقبـت المسـدس وهـو نعـت ∴ تفارقـــك الحيـــاة ولا يفـــارق

٢- فلـــــوطى ومـــــأبون وزان ∴ وديـــوث وقرنـــان وســـارق

٦- (من السريع)

١- إن ابـن زيـدون علـى فضـله ∴ يغتـابنى ظلمـاً ولا ذنـب لـى

٢- يلحظنـــى شـــزراً إذا جئتـــه ∴ كـــأننى جئـــت لأخصـــى علـــىّ

٧- (من السريع)

١- إن ابـــن زيـــدون لـــه فقحـــة ∴ تعشـــق قضـــبان الســـراويل

٢- لـو أبصـرت أيـراً علـى نخلـة ∴ صـارت مـن الطيـر الأبابيـل[٢]

وقالت تهجو الأصبحى :

٨- (من السريع)

١- يـا أصـبحى اهنـأ فكـم نعمـة ∴ جاءتك من ذى العرش رب المنن

٢- قد نلت باست ابنك ما لم ينل ∴ بفـرج بـوران أبوهـا الحسـن [١]

---

(١) ينسب المقرى لولاّدة بعض الأبيات التى تنسب وفقاً للذخيرة ومصادر أخرى = لابن زيدون والأبيات هى : [من الرمل]

ودع الصـبر محـبٌ ودعـك ∴ ذائـع مـن سـره مـا استودعـك

يقـرع السـن علـى أن لـم يكـن ∴ زاد فـى تلـك الخطـى إذ شـيعك

يـا أخـا البـدر سـناء وسـناً ∴ حفـظ الله زمانـاً أطلعـك

إن يطـل بعـدك ليلـى فلكـم ∴ بـت أشـكو قصـر الليـل معـك

(١) هذا البيت الأخير يتضمن إشارة إلى القرآن (سورة الفيل) حيث يحكى عن غزو مكة على يد الملك الحبشى باليمن (أبرهة) والتى انتهت بوباء الجدرى الذى نرى صداه منعكساً على القص القرآن فى هذا الهجوم من الطير الأبابيل على هذا الجيش " فجعلهم كعصف مأكول " .

مرت يوماً بالوزير ابن عبدوس وهو جالس أمام بركة تتولد من مياه الأمطار ، ويسيل إليها شئ من الأوساخ فأنشدت :

٩- (من الكامل)

١- أنــت الخصــيب وهــذه مصــر ∴ فتـــدفقا فكلاكمـــا بحـــر [٢]

حضور المرأة في بلاط المعتمد بن عبّاد الإشبيليّ

تأليف

د/ رفائيل بالنثيا

تعريب ودراسة

أ.د/ منى ربيع بسطاوي

---

(٢) عن الحسن بن سهل وابنته بوران التى تزوجت الخليفة العباسى المأمون عام ٨٢٥ ، انظر مانويلا مارين " بوران والبورانية " مجلة القنطرة ، العدد الثانى ، ١٩٨١ ، ص١٩٣- ص٢٠٧ .

(٣) هذا البيت قاله أبو نواس فى الخصيب والى مصر وليس ولآدة ، فهى تستشهد به فى موقف بعينه (المترجمة) .

المرأة في بلاط المعتمد بن عبّاد

لم تزل حياة أبو القاسم محمد بن عبّاد المعتمد ملك إشبيلية ، وثالث ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر الميلادي تُحاك حولها الأكاذيب، وتلك الشائعات التي بمقدورها أن تشوه صورة هذه الشخصية ، التي تُعَد من أهم الشخصيات التي عاشت في تلك الفترة ، وخاصة بعد الصراع الذي دار بينه وبين المرابطين ، في الأندلس في الفترة ما بين عام ٤٦١ هـ و ٤٨٨ هـ ، ذلك الصراع الذي انتهى بإبعاد المعتمد عن الأندلس ، ونفيه إلى " أغمات " في المغرب والتي ظل بها إلى أن مات عام ٤٩٢ هـ .

ولعل شخصية المعتمد وما تنطوي عليه من اعتداد بالنفس إلى جانب أنه كان من أغنى ملوك الطوائف في ذلك الوقت كل هذا ساعد بشكل أو بآخر على خلق سلسلة من الأكاذيب غير الصحيحة ونسبتها إليه ، ولاسيما بعد وفاته مباشرة .

فالمراجع الحديثة ولاسيما غير المتخصصة منها نجدها تبالغ في إيراد هذه الأكاذيب حول شخصية " المعتمد بن عبّاد " بالإضافة إلى ما تقدم أن تاريخ الأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي لم ينل حظه الوافر من الدراسة والبحث ، وكما يقول د. Bosch. Vila :

" إنه كان على وشك الكتابة حول مظاهر تلك الفترة ، إلا أنه لم يتمكن من تقديم كتاباته بالطريقة التي يرضى عنها ، ذلك لعدم توافر التفسيرات الصحيحة المستفيضة لبعض النصوص الهامة ، والتي تعد بمثابة شاهد عيان على الأحداث في تلك الفترة ، بالإضافة إلى عدم توافر المصادر الكافية التي تساعدنا بدورها في معرفة هذه الأحداث ". [1]

وعندما نتحدث عن تاريخ إشبيلية في ذلك الوقت يمكننا القول , بأنه يكاد يكون هو نفس تاريخ الأندلس كلها ، من حيث سيطرة الحكام ونفوذهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى من حيث طبيعة العلاقات التي كانت تربط بين ممالك الطوائف المختلفة في ذلك الوقت .

---

[1]) انظر : " J, Bosch- Vila " القرن الحادي عشر في الأندلس الحالة السياسية والاجتماعية من وجهات نظر متعددة ، ضمن فاعليات الدورة الثقافية العربية الإسلامية " ١٩٧٨ " مدريد ، ١٩٨١م , ١٨٣

فمن الواضح أن تاريخ اشبيلية في فترة حكم بنى عبّاد ، تناوله العديد من المؤرخين والمؤلفين في كتاباتهم [١] ، إلّا أن هذه الكتابات كانت أغلبها ذات طابع عام ، ولم يكن هناك نوع من الدراسات المتخصصة .

كما أن المعلومات التي وردت في المصادر الحديثة التي جاءت فيما بعد جديرة بأن يُنْظر لها بعين الاعتبار ، إلّا أنها كما – أشرت سابقا - كانت بحاجة إلى تفسيرات وشروح مستوفاه وصحيحة .

وفي هذه الدراسة التي نقدم لها نحاول أن نعرض في إيجاز لبعض المعلومات التي حصلنا عليها من مصادر عديدة للمحيط العائلي للمعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية .

المصادر :

لعل من أهم المصادر التي تناولت حياة المعتمد بن عبّاد وجواريه تلك الترجمة التي قدمها لنا " ابن الأبّار" ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م ، والتي يشير فيها إلى أن قصر المعتمد بن عبّاد " كان يتألف من أكثر من ثمانمائة امرأة في الوقت الذي أبعد فيه ونفى عن الأندلس " [٢]

إلا أن هذا الرقم كما يبدو لنا مبالغ فيه ، ولعل السبب وراء هذه المبالغة يرجع إلى إبراز أهمية شخصية " المعتمد " وعظمتها التي صورها لنا المؤرخون هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن إيراد مثل هذا العدد الهائل من النساء له دلالة أخرى ، ويمكننا أن نتعرف من خلالها على مدى ما بلغه النفوذ والحكم في عهد ملوك الطوائف في ذلك الوقت .

وإلى جانب " ابن الأبّار " كان هناك مؤرخ آخر من الفترة نفسها وهو " أبو الخطاب عمر بن دُحّية "ت ٦٣٣ هـ ١٢٣٥ م ، والذي قام بتقسيم هذا العدد المشار إليه سابقاً إلى أمهات الأولاد " الزوجات " والسرارى " المحظيات " وجوارى المتعة ، وجواري الأعمال المنزلية " الإماء".[٣]

هذا وقد أشار د. " J. Valve " [٤] إلى تكوين الهيكل العائلي للأسرة الحاكمة في تلك الفترة ، قال : " كان يتكون عادة من جميع النساء الأرامل ، وغير المتزوجات في الأسرة ثم الزوجات ، والمحظيات ، ثم الجواري والإماء ".

ويجئ " ابن بسام " الشنترينى ، ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م [١] ، فنجده يورد النصوص السابقة لكل من " ابن الأبّار " ، و " ابن دُحيّة " عندما حدثنا عن خروج " المعتمد بن عبّاد " إلى " أغمات " في

---

[١] أشير هنا على سبيل المثال إلى دراسة "Dozy " وهي دراسة وافية حول " تاريخ مسلمى أسبانيا حتى فتح الأندلس بقيادة المرابطين"٧١١هـ/ ١١١٠م " , ترجمة : " F-DE- Castro " ، مدريد ، ١٩٨٢م ، والطبعة الثانية : جـ ٤ ، ص ٦٦ إلى ص ٢٢٨ " وانظر : الدراسة الحديثة لمحمد عاشور " التاريخ السياسي والاجتماعي في اشبيلية في عهد دول الطوائف " تطوان ، ١٩٨٣ ، وهو نفسه صاحب دراسات عن إشبيلية والأندلس في عهد ملوك الطوائف " : البحث العلمي ، الرباط ، ص ٢٩-٣١، ص ٢٦٣ , ص ٢٧٩ .

[٢] انظر : الحلة السيراء وما أورده " Dozy " في كتابه : " وضع العرب في حكم بن عباد " ، ليدن ، ١٨٥٢م , جـ ٢ , ص ٦٣ ، وهناك طبعة أيضا الدكتور حسين مؤنس : القاهرة ، ١٩٦٣ , في مجلدين .

[٣] انظر : " J. Valve " , " الكثافة السكانية والمجتمع الأندلسي في القرن الثامن الهجري والحادي عشر الميلادي , مجلة الأندلس : العدد (٤٢) ، المجلد الثاني " ١٩٧٧م " , ص ٣٣٥ .

[٤] انظر : السابق ، ص ٣٣٩.

منفاه ، إلا أن " ابن بسّام " بدل من أن يعطينا الرقم المشار إليه سابقا وجدناه يقول : " خرج ... بجميع نسائه أمهات أولاده وأبنائه ".

وقد تنوعت المصادر التي تناولت نساء " المعتمد بن عبّاد " وتعددت وكان من أهمها تلك المصادر التي أشرنا إليها سابقاً . وهي :

الذخيرة لابن بسّام ، المطرب لابن دُحيّة ، والحلّة السيراء لـ " ابن الأبّار " وإن كان الأخير منهم " ابن الأبار " قد اعتمد على معلومات نقلها من كتابين مازالا مفقودين حتى يومنا هذا ، كان قد أخذهما عن شاعر آخر كان معاصراً " للمعتمد بن عبّاد " وهو " محمد بن اللبّانة " ، ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م شاعر البلاط العبّادى .

والكتابان هما :

١- الأول بعنوان : " نظم السلوك في وعظ الملوك "

٢- الثاني بعنوان : " الاعتماد على ما صُحح من شعر المعتمد بن عبّاد " [٢]

وترجع أهمية هذه النصوص التي نقلها " ابن الأبّار " عن ذلك الأديب إلى أنها تساعدنا في بعض الأحيان على التأكد من بعض المعلومات والأخبار التي وردت بصورة غير واضحة أو مكتملة في المصادر الأخرى التي جاءت فيما بعد .

ويوجد مصدر آخر لا يقل أهمية بالنسبة لدراستنا التي نقدم لها ، وهو " ديوان المعتمد بن عبّاد " وما جاء فيه من ذكر للنساء اللاتي وردن فيه .

وقبل أن نبدأ بالشروع في تعداد الشخصيات النِّسوية التي ظهرت في الديوان علينا أن نشير إلى نقطتين هامتين :

الأولى : أن قصائد " المعتمد بن عبّاد " الشعرية تعد مصدراً أساسياً للتعرف على النساء اللائي أحطن به ، وكانت لهن مكانة خاصة في قصر المعتمد والبلاط العبّادى . ولكننا يجب أن نضع في الاعتبار أن ظهور هذه الشخصيات النِّسائية في القصائد الشعرية لابد وأن يخضع إلى متطلبات القصيدة الشعرية أى لابد وأن تخضع للوزن والقافية التي تتطلبها القصيدة ، مما يصعب علينا في هذه الحالة أن نتعرف بسهولة على حقيقة هذا الاسم الذي يتحدث عنه في شعره .

ومن غير المنطقى أن تكون إشارة الشاعر إلي أكثر من اسم نسائي في قصائده إنما كان يقصد من ورائه امرأة واحدة , أو المرأة ذاتها في كل القصائد .

---

[١] الذخيرة : تحقيق د. احسان عباس ، بيروت، ١٩٧٨، جـ ٢ , ص ٥٦

[٢] هذه العناوين التي أوردها ابن بسام في ق ١ : جـ ٢ ، ص ٦٢ – ٨١ ، كان يجب أن يستعملها كمصادر اولية فى كتابه ، المحقق " F-Pons": Ensayo bio-bibliografico sobre los Historiadores y geografos arabigo , Espanoles " Madrid, 1898, No 138.

الثانية : إنه من الصعب علينا تحديد ومعرفة إذا ما كان الاسم النِّسائى المشار إليه في القصيدة يقصد به امرأة حقيقية [في الواقع] أم هي في الخيال [الصورة الشعرية] فقط , أو ربما كان يعبر عن تلك المرأة التي يعنيها في ذاته ولكن بطريقة رمزية خيالية ، وهذا العمل بدوره يتطلب تحليلاً دقيقاً ودراسة عميقة مستوفاه ، ومن بين المصادر التي سوف نعتمد عليها في دراستنا هي قصائد " ابن عبّاد " الشعرية التي تضمنها ديوانه الشعري [١] ، إلى جانب ما ورد له من أشعار في المصادر العربية الأخرى .

وسوف نقوم من جانبنا بتحليل وتنقيح تلك التعليقات التي وردت ملازمة لتلك القصائد ، أو النصوص التي وردت في مصادر أخرى .

واهتمامنا سينصب على تلك الشخصيات التي وردت في شعره فقط ، والتي اهتم بها الأدباء المعاصرون له ، أو اللاحقون من بعده ، سواء أكانت هذه الشخصيات موجودة بالفعل في الحقيقة واستخدمها أو ذكرها في شعره , أم أن الاسم المشار إليه لا يخرج عن كونه تسمية شعرية فقط .

نساء المعتمد بن عبّاد :

احتفظت لنا قصائد الشعر التي نظمها " المعتمد بن عبّاد " بأسماء عديدة للنساء اللائي أحطن بهذا الملك الإشبيلي ، ويمكننا أن نستنتج من بعد القصائد الشعرية ومن خلال بعض المؤشرات التي وردت الدور التي لعبته كل واحدة من أولئك النسوة في البلاط العبادي في ذلك الوقت. وسنعرض بإيجاز لتلك الأسماء التي وردت في قصائده الشعرية :

١- اعتماد الرميكية : ورد ذكرها – تقريبا - في جميع المصادر العربية التي تحدثت عن هذا الملك الإشبيلي ، ويمكنك أن تجد معظم المعلومات في العديد من المصادر العربية التي تحدثت عن بني عباد حول اعتماد الرميكية " . [٢]

" ولعل النادرة أو القصة ، التي تحكى أول لقاء المعتمد باعتماد في اشبيلية مشهورة ، وقد نقلها لنا الحجارى " .[٣]

---

[١]) انظر: د. رضا السويسى , تحقيق ديوان بن عباد ، تونس ١٩٧٥ م ، ويوجد تحقيق أخر لأحمد بدوى ، و احمد عبد المجيد ، القاهرة ، ١٩٥١ م.

[٢]) يبرز " كتاب الذخيرة لأبن بسام " جـ ٢ بين المصادر العربية التي اطلعنا عليها إلا أنه لم يوجد به إشارة واضحة أو بارزة حول هذه الشخصية " اعتماد " وإن كانت الأساطير التي أحاطت بها والتي قام بنسجها كتاب لاحقون , نجدها بوضوح في المصادر التي وردت بها أخبار تتحدث عن نسل " المعتمد بن عبّاد " وهو موضوع سوف نتوقف عنده فيما بعد .

٣) انظر: " R-Dozy " : بنو عبّاد : جـ ٢ ، ص ١٥١ – ١٥٢ , وهذه القصة كان قد حللها " Dozy " , انظر : السابق : جـ ٣ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ والتي قامت بتناولها وتحليلها بشكل أعمق في دراسة حديثة الدكتورة ماريا خوسس رويبرا"M, J. Rubiera بعنوان " بعض المشكلات التاريخية في ترجمة المعتمد بن عباد , وفتح اشبيلية ، والزواج من اعتماد الرميكية ، وقدمته ضمن فاعليات الدورة الثقافية العربية " الإسلامية . (١٩٧٨) مدريد ، ١٩٨١ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

وأكثر ما كان يُشار إلى " اعتماد الرميكية " على أنها الزوجة المفضلة ، وإن لم تكن الزوجة الوحيدة لدى المعتمد ، وقد أشار إلى هذا المعنى " المقرّى " في كتابه " نفح الطيب " عندما وصفها بأنها كانت جارية , ثم أصبحت فيما بعد زوجته وأم أولاده . [١] .

وبعيداً عن الإشارة إلى " اعتماد الرميكية " , في قصيدة " ابن عمّار " [٢] , التى يهجوها فيها , وبعيداً عن قصائد شعرية أخرى " للمعتمد " من المفترض أنها نظمت [٣] فيها فإن اسم اعتماد قد ورد الإشارة إليه بشكل واضح في العديد من قصائد هذا الملك الإشبيلي . فهناك القصيدة التى يشكو فيها " الملك العبادى " من صدود الرميكية " عنه علي الرغم ما يمكنه لها [٤] من حب شديد[٥]

والقصيدة الثانية التى يرد فيها ذكر " اعتماد " والتى تعد من أشهر القصائد التى قالها " المعتمد بن عباد " في اعتماد تلك القصيدة التى بدأ كل بيت من أبياتها بحرف من حروف اسمها " . [٦]

إلى جانب القصيدة التى من المحتمل أن المعتمد نظمها وهو في طريقة إلى افريقيا بحثاً عن المرابطين عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٦ م وقد أشار فيها إلى " اعتماد "

٢- أم عبيدة [٧] : ورد ذكرها مرة واحدة فقط في قصيدة[٨] قد نسبها المقري " إلى المعتمد من المحتمل أنه نظمها في إحدى حملاته في منطقة " لوركا " أثناء الحديث الذي دار بينه وبين وزيره " أبي الحسن بن إلياس "
٣- أم الربيع : ورد ذكرها في قطعتين شعريتين [٩] ، كما ورد ذكرها في قطعة شعرية ثالثة أوردها ابن بسام [١] تتكون من بيتن فقط , وقد أثبت أنهما للمعتمد " [٢]

---

١) انظر : المقرى : نفح الطيب ، تحقيق " Dozy " ليدن ، ١٨٥٥ م . ص ٦٧ , جـ ٢ ، ص ٥٦٨ , وبنو عباد : جـ ٢ , ص ٢٢٥

٢) المقرى : نفح الطيب : جـ ٢، ص ٥٦٩ ، وبنو عبّاد : جـ ٢ ، ص ١١٦ " من بحر المتقارب "
٣) ماريا خوسس روبيرا " M.J-Rubier " شعر المعتمد بن عبّاد " مدريد .١٩٨٢ ، س ٤٢ – ٤٣

٤) " قافية اللام ، بحر الكامل " : الديوان قطعة رقم (٢٧) ، ماريا خوسس روبيرا : السابق : ص ٤٣-٤٤ M.J- Hagerty

: شعر المعتمد " برشلونة ، ١٩٧٩م ، رقم (٤٣)

٥) قافية الدال بحر المتقارب " بنو عباد : جـ ٢ , ص ٦٨ ، والديوان : قطعة رقم (٢٩) ، وماريا خوسس روبيرا : السابق : ص ٤٣ – ٤٤ " M.J-Hagerty " : السابق رقم (١٦)

٦) قافية الدال , بحر الطويل " المقرى : السابق : جـ ٢ ، ص ٥٨٢ (فقط ثلاث أبيات " , وانظر " M.J-Hagerty " : رقم (١٩) , وماريا خوسس روبيرا : السابق : جـ ١٢٠ – ١٢١ , ص ٤٦ , وانظر " M.J-Hagerty " : السابق رقم (١٩)

٧) يجب أن نضع في الاعتبار أن المقصود من الكنية (أم) التي وردت في أول الكلمة في هذا المثال ، والمثال الآتي إنما استخدمها الشاعر فقط (كأسماء شعرية) ، وفي هذين المثالين لا يمكننا أن نستنتج بطريق مباشر أنه قصد من وراء لفظ (أم) المعنى الحقيقى للأمومة : انظر " CH- A-J-WENASINCk " عن التسمية ... ، ص ٢٣٦ - ٣٣٩، وانظر : " J- Valve " : جـ ٥ ، ص ٣٦٩ ، الطبعة الثانية .

٨) قافية الدال بحر الطويل " بنو عباد : جـ ١، ص ٤٤ – ٤٥ ، والمقرى : السابق : جـ ١١ ، ص ٦٢٣ والديوان : قطعة رقم (٤٠) ، وماريا خوسس زروبيرا : المعتمد بن عباد : ص ٩٢ - ٩٣ ، و " M.J-Hagerty "

٩) المقري : السابق ، جـ ٢، ص ٦٤٨ ، بنو عباد : جـ ١ ، ص ٢٩٨ - ٣٢٩ ، وابن بسام : الذخيرة : جـ ٢ ،

ويمكننا أن نتعرف علي التسمية الشعرية من خلال تركيبة أو بنية الاسم المشار إليه في الأبيات

٤- جوهرة : نجدها تظهر في ثلاثة قصائد – علي الأقل – للمعتمد بن عباد [٣]

وكما هو الحال بالنسبة للنساء السابقات , فإن الأبيات الشعرية تذكر فقط الاسم وعلينا أن نستنتج إذا كانت صاحبة هذا الاسم زوجة من زوجات المعتمد أم جارية متعة , وإن كانت النصوص التي وردت ملازمة للقصائد ترجح الاحتمالية الثانية ، وهي أنهن جوارى متعة .

فيما عدا حالة واحدة , وهى الحالة الخاصة " باعتماد الرميكية " فعندما ذكرها " المقرى " ذكرها علي أنها جارية ثم زوجة وأم أولاده فيما بعد .

٥- سحر : كانت جارية " للمعتمد بن عباد " وقد ورد ذكرها في قطعتين شعريتين [٤] , وقد ورد اسمها عندما ذُكِرَ مرض " الملك الاشبيلى " ومن خلال الأبيات والأخبار التي وردت مرافقة لها تبين أنها تعمل في وظيفة لها علاقة بالطب .

٦- أروى : ورد ذكرها في قصيدة واحدة ل " المعتمد " [٥] وتبين لنا من خلال النصوص أنها مغنية للموال الشعبي (وهو نوع من الغناء كان يغنى بمصاحبة العزف على العود) وكانت هذه الجارية من ضمن محظيات الملك الإشبيلي اللائي أحطن به في مجلسه

٧- مها : يشار إليها في قطعة شعرية واحدة وصلنا منها بيتين [٦] , فقط من الشعر ويظهر اسمها في نهاية البيت الأول منهما ، ويمكننا أن نستنتج من الأبيات أنها كانت واحدة من جوارى المتعمد بن عباد

٨- قمر وشمس : ظهرتا في عدة أبيات للمعتمد بن عباد [٧] على أنهما شخصيتين مختلفتين , بينما أشارت بعض المصادر [١] علي أنهما (قمر - شمس) امرأة واحدة . وقد ورد ذكر الأولى منهما في قصيدة شعرية خاصة بها [٢] وهى كسابقاتها كانت جارية متعة .

ص ٤٤ " قافية العين ، بحر الطويل "

[١]) السابق : جـ ٢ , صلي الله عليه وسلم ٤٣ , قافية الراء بحر طويل

[٢]) ماريا خوسس روبيروا : السابق , صلي الله عليه وسلم ٤٤ , و " M.j..hagerty " : السابق رقم (١٣)

[٣]) لنو عباد : جـ ١ , ص ٣٩٢ – ٤٠٩ , ٤١٠ , الديوان : قطعة رقم (٢١) , " M.j..hagerty " : " R-Dozy " تاريخ : جـ ٤ , صلي الله عليه وسلم ١٢٩ , " M.j..hagerty " : السابق رقم القطعة (٢٨) , قافية " الراء – بحر السريع بنو عباد : جـ ١ , ص ٣٩١ , ص ٤٠٩ , والديوان : قطعة رقم (٢٣) , " M.j..hagerty " : السابق القطعة رقم (٣٣) قافية الصاد – بحر السريع

[٤]) بنو عباد : جـ ١ ص ٣٨٨ ، ص ٤٠٤ , و " R-Doay " : " تاريخ : جـ ٤ , ص ١٢٩ , والديوان قطعة رقم (٢٠) , و " M, J. Hagerty " : السابق : قطعة رقم (٢) , قافية الواو , بحر الطويل , وبنو عباد : جـ ١ , ص ٢٩٩ , ص ٣٢٩ , وابن بسام : الذخيرة : جـ ٢ , ص ٤٥ , " M, J. Hagerty " : السابق : قطعة رقم (١٥) قافية الدال , بحر الطويل

[٥]) انظر " M, J. Hagerty " : السابق رقم القطعة (٩٢) و Ajemez : غرناطة ، ١٩٨٥ م ، ص ٣٩ ، ومقالة لإميليو غرسياغومث : " تدهور الشعر في إشبيلية في عهد حكم المرابطين " مجلة الأندلس : جـ ١٠ , ص ٢٩٢ ، ١٩٤٥ ، وقد ورد ذكر البيت الأول والثالث من هذه القصيدة في ديوان ابن زيدون بتحقيق : كرم البستانى : بيروت , ١٩٦٤ , ولم استطع الاطلاع علي هذه الطبعة

٦) انظر : بنو عباد : جـ ١ ، صلي الله عليه وسلم ٣٨٩ – ٤٠٦ , " و M, J. Hagerty " : وديوان المعتمد بن عباد , قطعة رقم (١) , قافية الهمزة , بحر السريع

٧) المراكش : عبد الواحد , ت ١٢٢٣ م ، والمعجب ، بتحقيق " R – Dozy " امستردام " سنه ١٩٦٨ , الطبعة الثانية , ليدن , سنة ١٨٨١ , ص ٧٣ , وبنو عباد : جـ ١ ، ص ٢٣٩ - ٢٩٩ ، وابن بسام الذخيرة : جـ ٢ ، ص ٤٥ وM. J. Hagerty : السابق ، رقم القطعة (٣٠) قافية الراء ، بحر البسيط

٩- وداد : كانت جارية المعتمد , ورد ذكرها في قطعة شعرية واحدة في بيتين فقط [٣]

١٠- بثينة : بنت المعتمد بن عباد واعتماد الرميكية . والتى ورد ذكرها في قطعة شعرية[٤] , تحتوى علي أحد عشرة بيتاً من الشعر , التى تطلب فيها من والدها أن يأذن لها بالزواج , ومن الأبيات نستنتج أن بثينة أشير إليها كجارية , وذلك بعد سقوط دولة أبيها ونفيه إلي شمال إفريقيا . [٥]

من بين الشخصيات النسائية التى وردت في العديد من المصادر , برزت لنا شخصية من عُرفت " بالسيدة الكبري " [٦] , والتى نود أن نختم بها حديثنا في هذه الدراسة ، وقد أشار " J. valve " إلى أن لقب السيدة الكبرى كان يطلق في فترة الحكم الأموي على المرأة الحرة والمتميزة ، والتي كان من الضروري أن يكون لها أولاد (نسل) عن طريق زواجها بأمير [٧] من أمراء الأسرة المالكة.

علماً بأنه في ذلك الوقت كان ينظر للزواج الغير متكافئ كالزواج من جارية مثلا نظرة سيئة [٨] ، مما قد يترتب على ذلك من ترك انطباع سئ وغير محبب لدى الآخرين . ومن هذه الدراسة التي نعرض لها تبين لنا أن لقب " السيدة الكبرى " ما هو إلا لقب شرفي وقد أرجعته معظم المصادر العربية إلى زوجة " المعتمد " وأم أولاده (وخاصة أم ولى العهد) والتي كانت تحظى بمنزلة رفيعة ، ومتفردة بين العناصر النسائية الأخرى التي كانت في البلاط العبادى .

نجد معظم المؤلفين المحدثين يعرفون " السيدة الكبرى " على أنها " أعتماد الرميكية " وهذا التعريف كان قد قدمه من قبل " ابن الأبار " المتوفى عام ١٢٦٠ [٩] ، بعد أن عدد لنا أبناء " المعتمد " وذكر أن " اعتماد الرميكية " هى أمهم جميعا وهذه المعلومة الأخيرة وجدناها قد وردت في " أعمال لمؤلفين " [١٠] آخرين جاءوا فيما بعد .

---

[١]) انظر : ابن سعيد ابو الحسن على ، ت ١٢٨٦ م ، رايات المبرزين : كتاب أعلام الأبطال : تحقيق وترجمة اميليو غرسيا غومث ، مدريد ، ١٩٤٢ ، ص ١٠، ١٢٩
المبالغة الشديدة حول طول فترة خصوبة هذه الشخصية (مع الأخذ في الاعتبار

[٢]) بنو عباد : جـ ١، ص ٣٨٩ ، ٤٠٦ , قافية الراء ، بحر الرجز

[٣]) بنو عباد : جـ ١ , صلي الله عليه وسلم ٣٩٢ , ٤١٠ , الديوان , قطعة رقم (٧٠) , " M, J. Hagerty " : السابق , قطعة رقم (٢٢) , قافية الكاف , بحر الخفيف

[٤]) بنو عباد , جـ ٢ , ص ١٥٣ – ١٥٥ , والمقرى : السابق , جـ ٢ , ص ٦٢٧ , ص ٦٢٨ , قافية الدال , بحر الطويل

[٥]) أما بنات الملك الاشبيلي فقد ظهرن في قطعة شعرية واحدة للمعتمد جاءت في ثمانية أبيات "قافية الراء , بحر البسيط" قالها عندما دخل عليه بناته للسلام يوم عيد

٦) انظر : " حول التسمية ....." ص ٣٢٧

٧) J. VAIVE : المصدر السابق : ص ٣٣٩ ، وأشار إلى طريقة أخرى (بأن يكون الأب والأم من أصول ملكية) وهذا يبدو ضعيفاً بصورة واضحة أمام الحالة التي نتحدث عنها

٨) J . VAIVE : السابق : ص ٣٣٤ ، ٣٤٠ .

[٩]) انظر : بنو عباد ، جـ ٢، ص ٦٩

[١٠]) نذكر على سبيل المثال : النويرى ت ١٣٣٢ ، السابق ، جـ ٢، ص ١٥١ ، والمقرى : ت ١٦٣١ ، السابق : جـ ٢ ، ص ٥٦٨ .

بداية وبعد هذه المعلومات ، التي سنوردها فيما بعد ، نجد أنفسنا أمام عدة اعتراضات حول هذا اللقب أو " التعريف " ، أولى هذه الاعتراضات : هو المبالغة الشديدة حول طول فترة خصوبة هذه الشخصية (مع الأخذ في الاعتبار أن معدل العمر في تلك الفترة كان أقل بكثير من معدل العمر في هذه الأيام فقد ورد أن لهذه الشخصية "السيدة الكبري" أبناء منذ أن تولي "المعتمد الملك الإشبيلي الحكم علي ولاية "شلب" في عهد والده "المعتضد" إذا وُلد له في تلك الفترة ابنه "أبو عمر عبّاد سراج الدولة "كما ورد أنه كان للمعتمد أبناء حتي وقت قريب من نفيه وخروجه إلي "أغمات" فقد كان ابنه "ابو هاشم المعلي زين الدولة" لم يزل طفلاً صغيراً "فكلا الطفلين يمثلان البداية والنهاية . وربما هذا قد يتناسب مع العدد الذي ذكره "أبن الأبار" [١]

أما الاعتراض الثاني : فهو يتمثل في وصفها بكونها جارية , وهي صفة أشارت إليها جميع المصادر التي تعرضت لذكرها , فمن المستغرب أن نجد جارية حتي وإن كانت "معتقمة" تحمل لقب "السيدة الكبري" في أهم مملكة من مماليك الطوائف في ذلك الوقت.

وقد أشارت د " M.J.Rubiera [٢] إلي "إنه من المستبعد يكون :أبو عمر عبّاد سراج الدولة الابن البكر (الأول) للمعتمد وهو من أبناء "اعتماد الرميكية" التي كانت جارية وكان قد تعرف عليها "المعتمد" في مدينة "شلب" هذه بالإضافة إلي أن اسم هذا الأمير قد ظهر في العديد من النقود المصكوكة في قرطبة واشبيلية حتي عام ٤٦٦ هـ [٣] , وهو تاريخ سابق لتاريخ وفاته التي كانت قرطبة .

ومما يثبت أنه – هذا الأمير – هو ولي العهد "ظهور اسمه في تلك المصكوكات كحاجب" , ومن هنا يمكن القول بأن "اعتماد الرميكية " هي السيدة الكبري التي كانت مقصود في المصادر ولعل الإشارات الوحيدة الواضحة التي وصلتنا بخصوص علاقة هذه التسمية "السيدة الكبري" بأحد أبناء المعتمد نجدها في ذلك الخبر الذي ورد بخصوص"أبو الحسن عبيد الله "أو" عبدالله " الراشد [٤] والذي كان يُذكر [٥] علي أنه الابن الثاني لكل من "المعتمد ,. واعتماد " إلا أن ابن الأبّار [٦] عندما أشار إلي أبناء الملك , وجدناه يضع "هذا الأمير " بعد المجموعة الأولي " أبو عمر عبّاد سراج الدولة , أبو خالد يزيد الراضي , أبو النصر الفتح المأمون" أبناء الملك الإشبيلي الكبار خبراً مؤداه أن "الراشد" هو الابن الأول للمعتمد , وهذا الخبر كان قد نقله عن مؤلف آخر كان معاصراً للمعتمد وهو ابن اللبّانة ت ١١١٣م. بينما نجد نصاً آخر لابن الأبار يذكر فيه أن الابن الأول للمعتمد هو الأمير "عمر عبّاد سراج الدولة".

---

[١]) في هذه الدراسة نحاول توضيح بعض جوانب الاسطورة التي حاكها المؤلفون فيما حول هذه الشخصية .

[٢]) انظر : M.J.Rubiera ماريا خوسس روبيرا : بعض المشكلات .... صلي الله عليه وسلم ٢٣٥ , وهذه الدراسة تتناول فيها المشكلات حول الشخصية المعتمد , وفتح اشبيلية علي يد المرابطين , وزواج المعتمد من الرميكية.

[٣]) انظر : A-pRIETO Vives: ملوك الطوائف , دراسة تاريخية – خاصة بعلم المصكوكات" في القرن الخامس الهجري , العاشر الميلادي , مدريد , ١٩٢٦م , صلي الله عليه وسلم ٤١٠.

[٤]) أعد الآن دراسة وافية عن أبناء المعتمد أتناول فيها موقف كل ابن من أبناء المعتمد وترتيبهم . ولكن في فرصة أخري.

[٥]) انظر " M.J.Rubiera النعتمد بن عبّاد , ص٦٨ ,٦٨.

[٦]) السابق : جـ٢ , ٧١.

أما ابن الأثير [١] فنراه يورد خبراً موجزاً عندما تحدث عن أحد أبناء "المعتمد بن عبّاد" وهو "أبو الحسن الحسين عبدالله الراشد" وقد ضمن الخبر نفس الأسماء السابقة التي ذكرها ابن اللبانة من قبل إلا أنه أورد الأسماء ولكن بترتيب مختلف , كما حدد لنا من المرأة في بلاط المعتمد بن عباد خلال حديثه وترتيبه من هو ابن المعتمد الثاني ، ومن هو الابن الثالث.

كذلك نجد اسم الأمير " الراشد " يظهر في نص منقوش [٢] ، ومسجل على منارة كانت قد أمرت بترميمها " السيدة الكبرى " والدته " في شعبان عام ٤٧٨ هـ الموافق ١١/٢٢ إلى يوم ١٢/٢٠ من عام ١٠٨٥م ، وتعتبر هذه أول إشارة حديثة تجمع بين لقب الملكة الأم مع أحد أبناء المعتمد بن عباد . [٣]

وهناك خبر آخر أورده ابن بسام [٤] الذي عرف " السيدة الكبرى " على أنها أميرة كانت من " Dina " يقول :

" أمر المعتمد بأن تصنع غزالتين من الذهب ، ثم أهداهما لابنه الراشد ، والسيدة العروس ابنة مجاهد ". [٥]

ولعل " المعتمد " بهذا السلوك إنما كان يطبق التقاليد العائلية التي كانت متعبة ومعروفة في ذلك الوقت.

وفي الحقيقة أن والد " المعتمد " " المعتضد " كان متزوجاً من أخت على بن مجاهد " [٦] ربما بحكم صلة الجوار التي كانت تربط بينهما ولعلها كانت الطريقة المتبعة في الزواج في الثلث الأخير من القرن الحادي عشر

في نفس الوقت أن صفة أميرة طائفية تتفق مع صفة أو لقب " السيدة الكبري " بمعنى أنه كان من الممكن إطلاق لقب " سيدة كبرى على زوجة " الراشد" ، وفي النهاية هذا يتفق مع الدور البارز

---

[١]) انظر عز الدين أبو الحسن علي , المتوفي ١١٢٣٢ , الكامل في التاريخ , بيروت , ١٩٦٥ , جـ ٩ , صلي الله عليه وسلم ٢٨٧.

[٢]) انظر : R-Amador de los Rios " النقوش العربية في إشبيلية " إشبيلية ، ١٨٧٥ م ، صلي الله عليه وسلم ١٠٦ , ١٠٨ . ليفي بروفنسال : النقوش العربية في أسبانيا " باريس , ١٩٣١ ، رقم (٣٣) ص ٤٠ - ٤٢ ، D-oliva ، تحقيق .Galvez R Valencia : الخطوط العربية في متحف الآثار بإشبيلية " العدد رقم (٣) قدم ضمن فاعليات الدورة العربية الثقافية والاسلامية , مدريد ، ١٩٨٣ ، رقم (٩) .

[٣]) محاضرة لهنرى بيريس : " رائعة الأندلس " ، مدريد ، ١٩٨٣ ، صلي الله عليه وسلم ١٤٢ . وانظر عدة أبيات للراشد (من بحر الكامل) : بنو عباد ، جـ ٢، ص ٧٣ والمقرى : جـ ٢ ، ص ٤١٤.

حيث جرى بمجلس أبيه (المعتمد) حديث في القبة المسماه بسعد السعود ، وهي قبة بقصر الزاهي ، فعجز من حضر من الشعراء عن اجازته ما عدا الراشد :

- المعتمد : سغد السعود يتيه فوق الزاهي
- ابنه : وكلاهما في حسنه متناهى
- ومن اغتدي وطنا لمثل محمد قد جل في علياه عن أشباه
- لا زال يخلد فيهما ما شاء ودهت عداه من الخطوب دواه

٤) ابن بسام : الذخيرة ، جـ ٢، ص ٥٢١ .

٥) من المحتمل أن تكون ابنة مجاهد عمة " المعتمد .

٦) ابن بسام : الذخيرة ، جـ ٢ ، ص ٢٩ , وابن بغدادى : البيان المغرب , جـ ٣ تحقيق ليفي برفنسال , باريس ١٩٣٠ ، ص ١٥٧ - ٢٠٨.

والهام الذي تقلده " الراشد " [١] والذي يبدو واضحاً من خلال القصائد الشعرية التي نظمت في تلك الفترة .

وأخيراً فقد أشار إلى " السيدة الكبرى " عبد الواحد المراكشي " [٢] عندما تحدث عن مرضها بعد نفي زوجها وإبعاده (في فترة النفي) ، وبالتحديد في الفترة التي طلب فيها الملك الاشبيلي المعاونة من أبي العلاء بن زهر .

ومن المحتمل أن تكون شخصية " السيدة الكبرى " هي نفس الشخصية التى أشير إليها من قبل وذلك أن الأمير " الراشد " ابن المعتمد كان قد رافق والده في منفاه في " أغمات " ، فمن الطبيعي أن تحتفظ هذه الملكة بهذا اللقب التشريفى حتى آخر يوم من عمر المعتمد.

****

الدراسة

---

* المرأة في شعر المعتمد بن عباد *

مقدمة :

تعددت الكتب والدراسات التي خُصَ بها المعتمد بن عباد ملك إشبيلية (٤٦١ / ١٠٦٨ – ٤٨٨ / ١٠٩٥) . لكنها كانت متفاوتة الجودة والدقة والموضوعية العلمية لذا قد يعسر على كل باحث مجد التخلص إلى نوع من التجديد في ميدان كثر طرقه ، اللهم إلا إذا رام التقصي في البحث ، والاستفادة في الدقائق والتروى في عرض المشاكل ، والتأني في بسط حلولها مدعماً عمله بمعطيات علمية معتمداً مقاييس تأبى التعاطف ، والانطباع الشخصي ، والذوق الفردي .

على أن العناية المفرطة التي حظيت بها دراسة شخصية المعتمد لأقوى دليل على أنها تجاوزت المستوى العادي في مختلف مظاهرها ، وفي كل طور من أطوار حياة الشاعر ، ولقد شهد له بهذا التفوق أدباء ونقاد قدامى ومحدثين ، نذكر من بينهم على سبيل المثال لا التحديد ، المقرى الذي خصص له في نفح الطيب ما لم يخصصه لملك أو شاعر آخر ، ولاحظ أنه اشتط في ذلك فقال : " وقد جمح بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عباد بعض الجموح ، وما ذلك إلا لما علمنا أن نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه الله شديدة الطموح، وقد جعل الله تعالى له ..... رقة في القلوب ، وخصوصا بالمغرب , فإن أخباره ، وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم ". [٣]

وصاحب الحلة السيراء يقول : " وكان المعتمد من الملوك الفضلاء , ومن الشجعان العقلاء ، والأجواد الأسخياء المأمونين ، عفيف السيف والذيل , مخالفاً لأبيه في القهر ، والسفك ، والأخذ

---

[١]) انظر : المغرب في حلى المغرب : تحقيق د . شوقي ضيف , القاهرة , ١٩٦٤ م , الطبعة الثانية , جـ ٢ , ص ٤١٦

[٢]) السابق , ص ١٠٠ – ١٠٩

[٣]) المقرى : شهاب الدين بن محمد المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب , القاهرة , ١٩٤٩ , جـ ٦ , ص ٩

بأدنى سعاية .... وكان له في الأدب باع وساع , ينظم , وينثر , وفي أيامه نفقت سوق الأدباء فتسابقوا إليه , وتهافتوا عليه , وشعره مدون موجود بأيدي الناس ، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة " [١]

أما ابن خلكان فيقول : " كان أندي راحة ، وأرحب ملوك الطوائف ساحة ، حتى أنه بز والده المعتضد في مضامير الأدب ، والشعر و حب الجمال والفنون ، وأصبح بلاطه ميداناً للشعراء ، ولم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء والأدباء مثل ما كان يجتمع ببابه " [٢]

ومما يؤكد أن هذا الحكم له جانب من الموضوعية ، تواتره على ممر السنين والقرون فقد قال عميد المستشرقين الأسبان إميليو غرثيا غومث : " وإذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر، في صورة شخص واحد من أهله فليس أوفق من المعتمد بن عباد ، صاحب إشبيلية ، كان أبوه المعتضد (٤٠٧ / ١٠١٦ – ٤٦١ / ١٠٦٨) صاحب الأفعال الشنيعة ، وأبناؤه جميعاً ، وخاصة " الراضي " ، صاحب رندة ، ولكنه بزهم جميعاً ، وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار ، لأنه كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعراً يثير الإعجاب ، وثانيها أن حياته نفسها كانت شعراً حياً ، وثالثها أنه كان راعى شعراء الأندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الإسلامي كله ، فإلى بلاطه لجأ شعراء إفريقيا وصقلية عندما غزا النورمان بلادهم ، واستولوا على بعضها ، وتهددوا الباقي " . [٣]

ونتفق مع أولئك الذين رأوا في المعتمد بن عباد نموذجاً أفرزته الأرستقراطية الأندلسية ، في عهد ملوك الطوائف ، فهو يمثل بحق تطلعاتها , ويجسم طموحها ، ويعبر عن مشاغلها .

كان أهم ما يميز هذا الشاعر الفذ ، أنه قال الشعر لإرضاء حاجة فيه , واستجابة لرغبة غريزية بشرية لا تكسباً ، ولا تملقاً ، ولا تزلقاً ، فأقل ما يمكن أن يقال عنه أنه كان لساناً ناطقاً من حيث شاء أو لم يشأ ، معبراً عما اضطرب في نفسه من دل وعز ، ومجد وفخر ، وحسب وألم ، وفشل وأسر ، وذل وحرمان . " إنه الشعر الذي نفذ إلى صميم النفس الإنسانية ، ليصف خلجاتها في أروع تجاربها ، إنه شعر ملك عانى كل أنواع التجربة ، ووصفها بحرارة قلبه المنفجر ، ولكنه لم يتخل عن أنفة الملك ، وشخصية السلطان ". [٤]

لقد خلت المرحلة الأولى من حياة المعتمد ، وهي الممتدة ما بين ولادته إلى تربعه على العرش ، من كل معطيات ، تاريخيه مضبوطة ، فكدنا لا نعرف في الثالث شيئاً عن طفولته ، ولا يذكر المؤرخون عن هذه الحقبة من حياته إلا تاريخ ولادته ، وهو في نفس الوقت محل جدال فيما بينهم

---

١) ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الآبار : الحلة السيراء , تحقيق د . حسين مؤنس , القاهرة , ١٩٦٣ , جـ ٢ , ص ٥٤ .

٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان : تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت , جـ ٢ , ص٤١٢

٣) إميليو غرثيا غومث : الشعر الأندلسى ، ترجمة د . حسين مؤنس , القاهرة , ١٩٥١ م , صلي الله عليه وسلم ٤٧ – ٤٨

٤) جبرائيل جبور : المعتمد بن عباد الملك الشاعر ، مجلة الأبحاث ، العدد [١٦] , ١٩٦٣ , بيروت , ص ١١٢

، ينتقلون إلى أوّل حدث في حياة المعتمد الرسميّة وهو يتمثل في كونه أصبح واليًا على " شلب " من قِبَل أبيه المعتضد سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م.

ولد أبو القاسم محمد بن عبّاد الظافر بحول الله [١] بمدينة باجة "BAJA" ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م على حد قول بعضهم [٢] ، وسنة ٤٣٢/ حسب آخرين [٣] ، فهو ابن المعتضد الثاني ، من أم تبقى مجهولة الاسم لدينا من بين " السريرات الخاصة " اللواتي خلف من صفوفهم نحواً من سبعين جارية إلى حريّته لديه من حلائله بنت مجاهد العامري ، أخت على بن مجاهد صاحب دانية " [٤] ، ولعل المعتمد ابنها .

عاش المعتمد في الترف والبذخ والراحة ، وهي ظاهرة عرفها كلّ بلاط أندلسي [٥]. وكانت الحياة الثقافية أيامها في أحسن مظاهرها ، فمن الفنون الجميلة إلى الشعر والأدب إلى الموسيقى ، والرقص والغناء ، ومما لاشك فيه أن جوّا طريفاً لاهياً كهذا يُبْطل فى الشباب رغبة الدرس والإقبال على التعليم " [٦] ومما يحتمل أنه كان للمعتمد مدرس خاص به ".[٧]

وقد حاول أبوه أن يمرسه في الأدب والحكم ، وقيادة الجيش في بواكير نشأته ، فجعله يحضر مجلسه ، ويتردد إليه من صغره ، فعينه عاملاً علي " ولبه " ثم والياً علي " شلب " سنة ٤٤٤ هـ ، في جنوب البرتغال وهو في الثالثة عشرة من عمره ". [٨]

ثم وجهه لفتح مالقة ، كي يختبر الحرب ويتمرس بفنونها ، وقد يسرت له الحياة في " شلب " بعيداً عن عيني والده ، سبُل اللهو والعبث ، وكان رفيقه في شلب " ابن عمّار " الشاعر ، فنهزا معاً بدلو الغواية ، وأساما معاً سرح اللهو والمجون ". [٩]

وكانت الجواري ، والسبيئات يملأن مدن الأندلس ، وكان الغناء فيه فاشياً في أنديتها ودورها فاستمتعا معاً بحياة ماجنة في الخمر والفسق ، و بلغ المعتضد خبرهما ، ومجونهما فنفى "ابن عمار" من شلب ، وأبعده عن المعتمد " . [١٠]

وحاول المعتمد فتح مالقة " MALAGA " ، فَخُذل ، واضطُر أن ينهزم خاسراً ، وسمع والده بخذلانه فبعث إليه يؤنبه ، فخاف المعتمد سطوة أبيه، وخشي أن يفتك به كما فتك بأخيه من قبل ، فلاذ ببلدة " رُنْدَة " لاجئاً ، وكتب يستعطف والده ، ويعتذر إليه ، بقصيدة هي من بواكير شعره يقول في مطلعها [من البسيط]:

١- سَكِّنْ فُؤَادك لا تَذْهَبْ بهِ الفِكَرُ ماذا يُعِيدُ عليْكَ البثُّ والحَذَرُ [١]

---

[١] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٧٤.
[٢] ابن الآبار : الحلّة السيراء ، تحقيق حسن مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣، جـ٢ ، ص ٥٣
[٣] ليفي بروفنسال : مسلموا أسبانيا ، ليدن، ١٩٣٢ ، ص ٨٣.
[٤] ابن الآبار : الحلّة السيراء ، جـ ٢، ص ٤٢
[٥] ليفي بروفنسال : أسبانيا المسلمة ، باريس ، ١٩٣٢ ، جـ ٣ ، ص ٣٩٧
[٦] ملك اشبيلية الشاعر المعتمد بن عبّاد : تحقيق د. رضا السويسى ، ١٩٨٥ ، ص ٥١
[٧] ليفي بروفنسال : أسبانيا المسلمة باريس ، ١٩٣٢ ، جـ٣ ، ٤٠٨
[٨] ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ، ١٢٨٤ هـ ، جـ٤ ، ص ١٥٧
[٩] الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، بولاق ، ١٢٨٤ ، ص ٥
[١٠] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : تحقيق سعيد العريان ، القاهرة / ١٩٦٣ ، ص ٧٢

ويبدو أَن والده قَبِلَ استعطافه ، فعفا عنه وراجعه إليه . [٢]
وهناك خبر يشير إلى أن والده أوعز إليه مرة أن يصف ترساً لازوردياً كان بين يديه ، قد طُوق بالذهب ، ودُقت في وسطه مسامير فقال :
[من المتقارب]:

١- مجَنٌ حكي صانُعُوه السماء لتْقُصَر عنه طوالُ الرّمَاح
٢- وقَدْ صَوروا فِيه شبه الثُريا كواكبَ تَقْضِي له بالنَّجاح
٣- وقد طوّقوه بِذوب النضار كما جلل الأُفْق ضوء الصبَاح [٣]

وقد زعم المستشرق نيكل أن المعتمد كان في الثانية عشرة من عمره حين نظم هذه الأبيات وأنه كان لا يزال حدثاً في رعاية والده فهو يعد له موضوعاً للشعر ويدربه على النظم ". [٤] فإذا صح أن المعتمد قال هذا الشعر وهو في تلك السن ، فإن هذا يدل على أنه شاعر بفطرته ، وقد وهب ملكة لم يؤت مثلها إّلا القليل من الشعراء .

وليس غريباً أن يكون معظم شعره الذي وصل إلينا في وصف مجالس الأنس ، والطرب وفي الغزل والمساجلات ، قد قِيلَ في هذه الفترة من حياته ، أي بين الثانية عشرة والثلاثين ، ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام أن الكثير من شعره في هذه الحقبة كان يدور حول الحياة التي عاشها مع ندمائه ، ومغنيه وجواريه ، وأن بعضه كان مساجلات بينه وبين الشعراء الذين جمعهم والده في بلاطه ، ومنهم " ابن عمّار"، أو مراسلات بينه وبين بعض الجوارى في قصر أبيه ، أو في قصره وهو في " شلب " أو وصف لبعض مجالس لهوه وأنسه في متنزهات إشبيلية وشلب ، ومعظم شعره الغزلي كان في جوارٍ معروفات لعل منهن اعتماد التي أصبحت فيما بعد ملكة ، وأما لأولاده الأمراء النجباء " [٥]

ولما تولى المعتمد الأمر بعد أبيه ، أعاد ابن عمّار إليه ، وعاد إلى لهوه ، ومجالس أنسه ، وابتنى القصور ، وكان في واحد منها فيل من الفضة على شاطئ بركة يقذف ماء " .[٦]

أما العاصمة الأندلسية الجديدة فقد استمرت على حالها تلك أيام المعتضد بن عبّاد ، فقد سلك سلوك أبيه مقتدياً به ، " فجمع حوله شعراء كثيرين أمثال ابن زيدون ، وابنه أبي بكر ، وابن عمار ، وابن وهبون ، وابن لبّانة ، وابن حمديس ، وابن عبد الصمد ، وابن القصيرة ، وابن المصري وغيرهم ". [٧]

---

[١])ديوان المعتمد بن عبَاد : القاهرة ، ١٩٠١م ، ص ١٠٤.
[٢]) دوزى : ملوك الطوائف ، ترجمة كامل كيلانى ، مصر ، ١٩٣٣ ، ص ١٥٩ - ١٦١.
[٣]) المقرى : نفح الطيب ، جـ٥ ، ص ٢٣٩ ، مصر ، ١٩٤٩م.
[٤]) Hispano- Arabic Poetrt by A. R. Nykl. Baltimore, 1945, p 136
[٥]) النفخ : جـ ٥ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣
[٦]) المقّري : النفخ ، جـ ٥ ، ص ٣٩٥
[٧]) المراكشي : المعجب ، ص ١٠٨

وكان يعقد للشعراء مجلسه يوم الأثنين بقصره ، وكان شعراء البلاط الرسمّيون يقيمون بالدار المخصصة لهم ويتقاضون معاشاً من ديوان الشعراء الذي أنشاه المعتمد خصيصاً لهذا الغرض ". [١]

أكثر المعتمد من الجواري ، وحفظ لنا شعره أسماء بعضهن مثل : وداد ، قمر ، سحر ، جوهرة ، ولكنه لم يهمل شئون الدولة ، بل أخذ بتوسيع مملكته ، واحتل قرطبة التي كانت استعصت على والده ، واستولى على مُرسية ، وعين ابن عمّار والياً على " شلب " [٢] ، ثم استدعاه إلى إشبيلية ، وجعله وزيراً عنده ، واصطفاه لمنادمته في مجالس شربه ، ومرافقته في مغانى لهوه ، واتخذه خديناً يساجله ، ويشاطره اللذات ". [٣]

وبعد أن اطمأن المعتمد إلى ما انتهى إليه من نصر ، وتثبيت قواعد ملك بنى عبّاد أخذ يلهو دون أن يحسب لسخرية الأقدار أي حساب .

هذا الشاب الذي كان أندى ملوك الأندلس راحة ، وأفضلهم سماحة ، الإنسان من كما وصفه معاصروه ، والذي كانت حضرته محط الرجال ، ومألف الفضلاء ، والذي كان يشترط فيمن يصبح وزيراً أن يتميز بصفات أقلها أن يكون أديباً شاعراً . لقد طغت شاعريته على تفكيره ..... وخضع لسلطان المرأة . فأما الشعر فكان ينبع من ذاته ووجدانه ، كان يراسل به وزراءه ، وأصفياءه وآله وذويه ، حتى جواريه كان يراسلهن بالشعر .

وتصف لنا كتب الأدب هذه المساجلات ، والمراسلات بإسهاب ، ولاسيما أخباره مع الوزير الشاعر ابن عمّار ، وكان من أخلص أصدقائه ، وأقربهم إليه ، وكذلك ابن زيدون ". [٤]

ولعل شاعرية المعتمد المرهفة هي التي جعلته يعيش في جو عبق مسكر من نعيم المرأة ، فقد أشار ابن الأبار إلى وجود ما يناهز ثمانمائة امرأة ما بين الزوجات والجواري ، في قصر المعتمد في الوقت الذي أُبعد فيه ونفي إلي أغمات ". [٥]

"ويبدو تحرز د. صلاح خالص من هذه المبالغة على صواب " [٦] فهو عدد كبير خصوصاً إذا ما قارنّاه بما كان للأندلسيين بصفة خاصة، والمجتمع الإسلامي بصفة عامة من رأى في دور المرأة في حياة الأمير الشخصية " [٧]

ولئن كان هذا العدد مبالغاً فيه ، فالواقع أنه كان يعيش في فيض من سحرهن ، وكان إلى ذلك مولعاً بالشراب مثل الكثير من ملوك عصره .

---

[١] المقري : النفح ، ج ٢، ص ٤٦٨

[٢] المراكشى : المعجب ، ص ٧٣

[٣] المراكشي : المعجب ، ص ٧٣

[٤] المعتمد : المعتمد بن عباد وإنتاجه الشعري ، د. رضا السويسى ، نشر الجامعة التونسية ، ١٩٧٧ ص ١٢٤

[٥] ابن الأبار : الحّلة السيراء وما أورده " Dozy " في كتابه " وضع العرب في حكم بني عبّاد " ، ليدن ، ١٨٥٢ ، جـ ٢ ، ص ٦٣ ، ويوجد طبعة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣م مجلدين

[٦] المعتمد : د. صلاح خالص ، بغداد ، ١٩٥٨ ، ص ٦٠-٦١

[٧] ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٩٥١ ، جـ ٤ ، ص ١١٦

ولعل الترف والنعيم والخمر والأندلسيات الفاتنات كل هذا قلب كيان هذا سماحة الإنسان من قائد بطل يعيش في جحيم المعارك التي تصون الحمى والذمام ، إلى ملك مترف يعيش مع الأهواء ، وينعم بالمباهج واللذات ، وما كان شئ أحب إلي نفسه ، وإلى قلبه من جارية جميلة ، تُحسن قول الشعر ، وتُجيد سحر الحديث ، وتبادل الكأس بالكأس". [١] يقول [من الكامل] :

١-ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء

٢-حتى تبدي البدر في جوزائه ملكا تناهي بهجة وبهاء

٣-وحَكيْتُه في الأرض ، بين كواكبِ وكواعبٍ جمعتْ سناً وسِنِاء [٢]

ونراه يتغنى بجمال المرأة فيقول [من الطويل] :

١- هي الظْبيُ جيداً والغَزَالةُ مقلةً ورَوْضُ الرُّبي فوحاً وغُصنُ النقي قدّا [٣]

فجواريه وزوجاته اللواتي ملكن لبه أكثر من واحدة ، وتشير كتب الأدب إلى اللواتي خصهن بشعره فإذا هن كثر .... منهن سحر ، ووداد ، وجوهر ، وقمر ، ومها، على أن واحدة طغى حبها على كل حب ... إنها اعتماد الرميكية ، أحظى امرأة عنده ، كان يأنس بها ويستظرف نوادرها ، " كانت تصد حلوة الحديث مليحة الوجه " [٤] شاءت الأقدار أو الصدف أن يلتقي بهذه المرأة التي أسرته ، وملكت لبه ، فتاة ريقة الصبا ، جمعت إلى الذكاء سرعة البديهة وفي في قول الشعر إلى رواية القصص ، فما كاد يلتقي بها حتى هزت فؤاده هزاً، ما تلك هي الرميكية التي أحبها حباً فاق حبه لكل زوجاته وجواريه .

قيل إنه كان في نزهة مع صديقه ابن عمّار على ضفاف نهر " الوادي الكبير " فنظر إلى صفحة الماء الهادي ، وقد ارتعشت تحت لمسات النسيم فقال مرتجلا : [من الرمل]

<< صنعَ الرِّيْحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ >>

ثم قال لابن عمّار : أجِزْ : فأطال ابن عمّار الفكر ، فقالت " امرأة من الغاسلات ":

<< - أيُّ دِرْع لِلْقِتَالِ لَوْ جَمَدْ - >>

فتعجب ابن عبّاد من حُسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمّار، ونظر إليها ، فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبته ، فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت : لا فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء . [٥]

ليس جمال هذه الجارية ، هو الذي سحره فربما كان في القصر أجمل منها ، وأكثر جاذبية ليس جمالها ، فحسب ، بل ذكاءها ، وسرعة خاطرها .

ويجب التوقف حيال القصة السابقة ، فمن الواضح أن البداهة التي حضرت هذه الغاسلة ، ما هي في الواقع إلا مجرد خرافة ، ليس في إمكاننا تصديقها ، ولاشك أنها "صدفة سعيدة " لكن العنصر

---

[١] سامي الكيالى : مع بنى عبّاد في إشبيلية ، مجلة المعرفة ، العدد (٢٦) ، ١٩٦٤ ، دمشق ، ص ٢٧

[٢] الفتح بن خاقان : قلائل العقيان ، طبعة بولاق ، ١٢٨٣ ، ص ٦ . والنفح : جـ ٦ , س ١٧

[٣] ديوان المعتمد : تحقيق د. رضا السويسي ، تونس ، ١٩٨٥م ، ص ٤١

[٤] جـ ٦ ، ص ٨. :النفخ

[٥] النفح : جـ ٥ ، ص ٣٤٥ ، دول الطوائف : محمد عبد الله عنان ، الفاهرة ، ٩٦٠م ، ص ٦٧ – ٦٨

القصصي طغى على صيغة الحدث، ولك أن تسال : كيف أمكن لهذه الحسناء ، أن توجد في نفس المكان ، وفي تلك الحظة ، بل وعلى مقربة من الصديقين ، دون أن يلتفتا إلى وجودها من قبل ؟ وكيف أمكنها أن تسمع فتدرك صدر البيت حتى تقول على البداهة عجزه ؟

فلسنا نطمئن كثيراً لهذه الرواية ، التي تذهب إلى أن سبب اختياره لاعتماد زوجاً له كان صدفة ، إذ أثر الصنعة بيّن فيها " [١] ، أضف إلى ذلك أن ابن عمّار لم يكن بالشاعر الهين ، ليعجز وتنجده مثل هذه الجارية ، والذي نراه أقرب إلى الحقيقة ، هو أن المعتمد وابن عمّار ألفا التردد إلى ذلك الوادي البهيج ، للتنزه والتعرض للحسان ، كما كان أهل اللهو في المدينة في الحجاز يفعلون في متنزه العقيق . [٢]

وأنه رأى جمال هذه الفتاة فأعجبه ، وحادثها فوقعت في قلبه ، وسعى فابتاعها من سيدها ، وليس غريباً أن تكون هذه الجارية قد عرفت بالشعر والغناء ، قبل تلك المقابلة المزعومة ، ويؤكد هذا أنه - المعتمد - له فيها شعراً كثيراً يستدل منه على أنه قيل فيها ، قبل أن صارت إليه ، ولا نستغرب أيضاً، أن يكون هو الذي سماها " اعتماد " على اسمه بعد أن عرف بحبها ، وشهر بذاك ، فقد لقبه والده بالمعتمد على الله كما يذكر المراكشي " [٣] ، جرياً على عادة العباسيين ، بل ربما كان يراسلها وتراسله قبل أن صارت إليه ، ويبدو أن مقطوعته التي ضمن أوائل أبياتها حروف اسمها " اعتماد " قد أرسلها إليها قبل أن تصبح زوجا له ، فقد قالها وكتبها ، وبعث بها إليها وهو غائب عن إشبيلية ، يقول [من المتقارب] :

١- أَغائِبَةَ الشَخصِ عَن ناظِري ... وَحاضِرَةً في صَميمِ الفُؤادِ

٢- عَلَيكِ السَلامُ بِقَدرِ الشُجون ... وَدَمع الشُؤونِ وَقَدرِ السُهادِ

٣- تملكتِ مِنّي صَعبَ المَرامي ... وَصادَفتِ ودّي سَهلَ القيادِ

٤- مُراديَ لُقياكِ في كُلِّ حين ... فَيالَيتَ أَنّي أَعطى مُرادي

٥- أَقيمي عَلى العهدِ ما بَينَنا ... وَلا تَستَحيلي لِطولِ البِعادِ

٦- دسَستُ اِسمَكِ الحُلوَ في طيّ شِعري ... وَأَلّفتُ فيهِ حُروفَ اِعتِمادِ [٤]

ما يعنينا من هذه القصة السابقة هو أن المعتمد وقع في حب هذه الشاعرة الحسناء ، وجمالها الخلاب الفاتن ، فقرر التزوج بها فوراً ، ولم يعلم منها إلا كونها جارية لسيدها، وهو تاجر بإشبيلية ، اسمه الرميك بن الحجاج ، ولم تكن زوجة سيدها.

---

[١] النفخ : جـ ٥ ، ص ١٤١ ، وعلي ظافر : بدائع البدائة ، القاهرة ، ١٢٧٨ ، ص ٣٧ ، وديوان ابن حمد يس ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٦٨ ، تروي هذه الرواية منسوبة لغير اعتماد والمعتمد

[٢] جبرائيل جبور : مواسم العقيق وأثرها في الغناء والشعر العربييب ، مجلة الأبحاث ، دار الكتب ، دمشق ، ١٩٦٢ ، العدد (٣) ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣

[٣] المراكشي : المعجب / ص ٦٢

[٤] الحلة السيراء : جـ ٢ ، ص ٦١ ، وانخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د. حسن مؤنس , القاهرة ١٩٥٥ م ، والنسخة الأسبانية .

لطف ورقة ودلال [١] ، وخفة روح وحذق ، وبداهه خاطر ، تلك هي سمات هذه المحظية التي كانت غاية في الجمال ، واعية لما كان لها من سلاح فتاك ، تستولى به على القلوب ، فتسطو فامتلكت لبّ المعتمد ، وحبست عليه مشاعره ، وأثرت فيه أيّما تأثير .

وقد حاول البعض أن يستنقص أخلاقها ، وأن يرد استهتار المعتمد فيما بعد إلى هذا التأثير الشنيع إلى حد قولهم . [٢]

وقد ورد أن المعتضد غضب من ابنه المعتمد لأنه لم يستشره في زواجه من اعتماد وأمره بطلاق زوجته ، ومضى زمن ، ثم ذهب الملك إلى بيت ابنه ، فاستقبلته " اعتماد " حاملة بين ذراعيها وليدها ، فضعف المعتضد لهذا المرأي ، وانهار غضبه ، فسمح لابنه الإبقاء عليها [٣]

وكان هذا الوليد، وهو أول أبناء المعتمد " والياً فيما بعد على قرطبة، وهو سراج الدولة عباد بن المعتمد، والذي سيقتل فيما بعد ، وهو في السادسة عشرة من عمره سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٦ م . [٤]

وقد رثاه المعتمد بقوله : [من الطويل] .

١- ولمْ أدرِ مَنْ ألقي عليه رداءه سوى أنَّه قد سُلَّ عَنْ ماجدٍ محض [٥]

ويمكن أن نستنتج من هذا التاريخ ، تاريخ زواج المعتمد من الرميكية ، أنه وقع في سنتي ٤٥٠هـ / ٤٥١هـ - ١٠٥٨ م / ١٠٥٩ م.

وقد تناصف كل من ابن عمار وزير المعتمد وصديقه المقرب , واعتماد الرميكية زوجته وحبيبته وأم أولاده مكانة لدي المعتمد حتي أنه " سري إلي ابن عمار أن المعتمد كتب من قرطبة ألي بعض كرمائه – والغالب أنها الرميكية – شعراً يعتذر فيه عن عدم اللحاق بها , وآخره :

<< إن شاء ربّي وشاء ابن عمار ّ>>[٦]

يقول : [من الطويل]

١- خليليّ قولا : هلْ عليَّ ملامة إذا لمْ أَغبْ الاّ لتخضُرني الشَّمْسُ؟

٢- وأهدي بأكواس المُدام كواكبًا إذا أبْصرتًها العينُ هشَّتْ لها النفسً

٣- سلاّم سلاّم أنتما الانسُ كُلُّه وإن غبْتُما أمُّ الرُّبيـع هي الأنـــــسُ [٧]

ومما يروي في كتب الأدب عن اعتماد أنها صاحبة يوم " الطين " وخلاصة القصة أنها رأت ذات يوم في إشبيلية بعض البدويات من بائعات اللبن حاملات القرب يمشين حافيات في الطين كاشفات عن سوقهن , فاشتهت أن تفعل هي وجواريها مثل أولئك النِّساء , ويمشين في الطين , فأمر

---

[١]) النفح : جـ ١ ، ص ٤١٥ ، وابن عبد الله التيجانى الأندلسي : تحفة العروس في بنى عباد ، مخطوط الأسكوريال رقم ٥٩٢ , جـ ٢ , ص ١٥٢

[٢]) مسلموا أسبانيا : ليفي بروفسال ، ليدن ، ١٩٣٢ ، ص ٨٩ – ١٤٦

٣) الخريدة : خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهانى ، مخطوطة مصر رقم ٤٢٥٥ ، تحقيق العروسى والجيلاني بلحاج يحي ، تونس ، ١٩٧١م - ١٩٧٢م ، جـ ٣

٤) ديوان المعتمد : تحقيق د. رضا السويسى ، جامعة الفاتح - ليبيا ، ١٩٧٤ م ، رقم (١١٠)

٥) الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة :لابن بسام الشنتريني , جـ٢ , رقم (٢٢) , ص ٢٣٦.

٦) ابن عمار : محمد بن عمار : د. صلاح خالص , بغداد , ١٩٥٧ , ص ٢٣٦ , رقم (٢٢) والنفح : جـ ٦ , ص٤٩

[٧]) النفح : جـ١ , ص ٤١٥

المعتمد , فسُحقت الطيوب وذرت في مساحة القصر حتي عمّته , ثم نُصبت الغربايل , وصب فيها ماء ورد علي أخلاط الطيوب , من مسك وكافور وعنبر , وعُجنت بالأيدي , حتي عادت كالطين وهُيئت القرب , مربوطة بحبال البريسم (الحرير) فحملتها هي وجواريها وخرجن يخضن في الطين .[١]

لقد ضن المعتمد علي أقدام اعتماده الناعمة , أن تلوث بغير الطيب والغالية حين تمنت الخوض في الطين , مثل البدويات فقد كان لرغباتها وما تطلبه وتشتهيه وقع السحر في نفس المعتمد .

وقد ذكر أنها غاضبته في بعض الايام , وأقسمت أنها لم تر منه خيراً , فقال : " ولا يوم الطين فاستحيت واعتذرت " .[٢]

وكان لها كل يوم طلب , وكل ساعة نزوة , فمن نزواتها المسرفة ما ترويه كتب الأدب " أنها طلبت إلي المعتمد أن يريها الثلج , فزرع لها أشجار اللوز علي جل قرطبة , حتي إذا نور زهره بدت الأشجار كأنها محملة بالثلج الأبيض. [٣]

على أن زوجته وريحانة نفسه اعتماد الرميكية ، ظلت الحبيب الأول، ومالكة زمامة ، وبرغم تدلهه في حب الكثيرات من جواريه ، فإنهن لم يستطعن أن يزحزن زوجته الحبيبة عن مكانها وقد عبر عن ذلك في قوله: " فما حل خل من فؤاد خليله محل " اعتماد " من فؤاد " محمد " ، ولما طافت بنفسها الشبة مرة ، رأى أن يرد عليها ثقتها به بقوله : (من الطويل)

١- تَظُنَّ بنا أم الرَبيع سامة ألا غَفَر الرحمان ذنبا تواقعه !
٢- أأسام ظَبيا في ضُلُوعي كناسه وبَدر تَمام في فؤادي مطالعة ؟
٣- ورَوضَة حُسْن أجتني من ثمارها وبارد ظلم لم تكدر شَرائعه ؟
٤- إذا سئمت كفى نوالاً تفيضه على معتفيها أو عدواً تقارعه [٤]

وفي مقطوعة أخرى يذكر فيها اسم " اعتماد " يقول : (من الكامل)

١- بركتْ تلومُ وفي الفؤادِ بلابلُ سفها وهل يثني الحليم الجاهل ؟
٢- يا هذه كفَى ! فإني عاشق من لا يرد هَوَايَ عنها عادل !
٣- حُبَ اعتماد في الجوائح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
٤- يا ظبية سلبت فؤاد محمد أو لم يروعك الهز بر الباسل ؟
٥- من شك اني هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل
٦- لون كسته صفرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل [٥]

وورد في " قلائد العقيان "حديث للمعتمد مع وزيره يص فيه زيارة الرميكية، يقول: (من الطويل)

١- أباح لطيفي طيفها في الكرى الخدّ فعضّ به تفاحة واجتني وردأ !

---

[١]) النفح : جـ ٦ , ص ٩ , جـ ١ , ص ٤١٥

[٢]) تاريخ العرب : حتي وجرجي وجيور , بيروت , ١٩٦٠م, جـ٢ , ص ٦٤٢ , نفح الطيب : جـ٢ , ص٦٥ , حيث نجد أن الناصر كان قد فعل شيئا مثل هذا لجاريته الزهراء .

[٣]) أم الربيع هي كنية اعتماد الرميكية زوجة المعتمد . خريدة القصر : جـ ٢, ص ٣١ , الزخيرة : جـ ٢ .ص١٠ , ١٣, الحلة السيراء , ج٢ , ص ٦٠-٦١

[٤]) الحلة السيراء: جـ٢ ،ص ٦٠- ٦١ ، خريدة القصر: جـ٢ ص ٣١.

[٥]) المغرب في حلي المغرب: جـ٢ ص ٨٧- ٨٨ ، وأم عبيدة هي أم الربيع أي اعتماد زوجة المعتمد.

٢- وألمتني تغرا شممت نسيمه فخيل لي أنّي شممت به ندا !
٣- ولو قدرت زارت على حال يقظة ولكن حجاب البين ما بيننا مدا
٤- أما وجدت عنا الشؤون معرجا ولا وجدت منا خطوب النوي بدا
٥- سقى الله صوْب القطر أم عبيدة ! كما قد سقتْ قلبي على حرّه بردا [١]

وجاء في المطمح: " وهو " أي المعتمد " القائل وقد حن " إلى أهله" وهو في طريقه إلى افريقية، لما قصد يوسف بن تاشفين يستنجده سنة ٤٨١ / ١٠٨٨، يقول في اعتماد: (من الطويل)

١- أدَارَ النّوى كم فيكِ تلددي وكم عُقْتني عن دار أهْيَف أغْيَد ؟
٢- حَلَفت به لوْ قَد تعرضَ دُونه كُمَاة الأعادي في النسيج المُسّرد
٣- لجردت للضرب المهند فانقضى مرادي وعزما مثل حد المهند
٤- فما حَلَّ خلِّ من فؤاد خليله مَحلَّ اعتماد من فؤاد مُحَمَّدِ
٥- ولكنها الأقدار تُرْدى بلا ظبي وتُصمي بلا قتل وترمي بلا يد [٢]

ولما ألقى القبض على ابن عمار ، ضربه المعتمد بالطبرزين على رأسه ففلقه ، وترك الطبرزين في رأسه ، فقالت اعتماد : قد بقي ابن عمار ، لعصيانه أمره ، وإهماله طلبه بعد أن داخله الزهو والعجب ، وحدثته نفسه بالفتنة والثورة على سيده.

فنظم المعتمد أبياتاً يعرض فيها بابن عمار ، وقد تجلت في الأبيات براعة المعتمد في الهجاء الساخر والتعرض الفكه ، وبدأها بالإشارة إلى بني عمار تعليقاً على قول ابن عمار عن نفسه " رجل الحقيقة من بني عمار في قصيدة كان قد بعث بها إلى المعتمد ،بعد أن اشتد حقده على المعتمد، وأخذ بعض الحيلة في الإضرار به، وتقبيح وصفه والتشهير به ، وإغراء أهل بلنسية به، وتحريضهم على القيام عليه . يقول المعتمد معرضا بابن عمار: (من الكامل)

١- الأكثرين مسوّدا ومملَّكا ومتوّجا في سالف الأعصار
٢- المكثرين من البكاء لنارهمْ لا يُوقدون بغيره للساري
٣- والمؤثرين على العيال بزادهم والضاربين لهامة الجبار [٣]

ولما سمع ابن عمار هذه القصيدة أثارته وأغضبته ومست كبرياءه وأنفته ، وحاول أن يقوم غضبه ويكبح نفسه ، ولكن نوازع الشر تغلبت عليه ، وتصرفت به ، وقد اختار المعتمد أن ينازله في الميدان الذي يعد نفسه في طليعة أبطاله، وحاملي لوائه ، فيقبل ابن عمار هذا التحدي ، وينظم قصيدة في الرد على المعتمد بالغة العنف موجعة الهجاء ، سبّ فيها المعتمد وزوجته الرميكية وأولاده سباً قبيحاً وأسفّ فيها أسفافاً كان يجمل به أن يترفع عنه ، قال في مطلع القصيدة.

١- ألا حَي بالغرب حياً حِلالا أناخوا جمالباً وحازوا جمالاً .
٢- وعرج بيُوميـــــن أم القري عسي أن تراها [هناك] خيالاً.

---

[١]) مطمع الانفس: ص ١٥ ، النفح جـ٥ ، ص٣٥٨.
[٢]) نفح الطيب جـ٥ ، ص٣٤٣ ، والمعجب ص ٨٠، ومطمع الانفس: ص٩٨ – ٩٩.
- الطبرزين: هي فأس كالمطرقة ، أهداها إليه الفونس السادس.
[٣]) الزخيرة: (أ) القسم ٢ ، ص ٣٧٢، ٣٧٣ ، والحلة السيراء : جـ٢ ، ص ١٥٦، ١٥٧.

ويومين: اسم القرية التي نشأت فيها أولية بني عبّاد في إشبيلية، وعرض باعتماد الرميكية وأولادها من المعتمد قائلاً:

١- تخيرتها من بنات الهجين رُمَيْكِيَة ما تساوي عِقالا.
٢- فجاءت بكل قصير العِذار لئيم النجارين عماً وخالا.
٣- قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قروناً طوالا[١]

نظم ابن عمّار هذه القصيدة النكدة في ثورة من ثورات الغضب آنسته جميع الاعتبارات ، وبهذه القصيدة قضي ابن عمّار علي كل أواصر الود بينه وبين المعتمد غير ميسور، فلا هو ولا الرميكية ولا أولاده يمكن أن يتسامحوا في قبول هذا الهجاء القاسي , وقد دل ابن عمار بهذه القصيدة علي خسة و سوء أدب متناهيين ، وتطاول تطاولاً غير مستساغ علي ولي نعمته ،الذي أخذه من حضيض المهانة ورفعه إلي الذروة،، وقد أكثر من الاعتذار عن هذه السقطة بعد وقوعه في يد المعتمد وإلقاءه في السجن ، وهكذا دخل ابن عمار قرطبة مقيداً مهيناً بعد الرياسة والنفوذ الشامخ ، وأُدخل علي المعتمد وهو علي تلك الحالة المزرية ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك كله مطرق لا يتكلم، ولما أتم المعتمد كلامه ، قال ابن عمار: " ما أنكر شيئاً مما ذكره مولانا ، أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت عليّ به الجمادات فضلاً عما ينطق، ولكني عثرت فأقل وزللت فاصفح" .

فقال له المعتمد: " هيهات إنها عثرة لا تُقال" .[٢]

و أمر به فأخذ في النهر إلي إشبيلية ، فدخلها علي الحال الذي دخل عليه قرطبة ، وجعل في غرفة علي باب القصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ، وطال سجنه ، وبعث ذلك الأمل في نفسه ، وكتب من السجن بقصائد يعتذر بها ويلتمس الاقالة عن ذنبه ، ولكن الغضب كان قد استولي علي المعتمد ، فلما دخل علي ابن عمار علم أن ساعته الأخيرة فجعل يزحف وقيوده تثقله ، حتي أكب علي قدمي المعتمد يُقبلها ، والمعتمد لا يثنيه شئ ، ولم تأخذه شفقة ولم يزل يضربه بالطبرزين[٣]، ، حتي برد ورجع المعتمد وأمر بغسله وتكفينه وصلي عليه ودفنه بالقصر المبارك ، " وطابت نفس اعتماد" [٤] ، ولكن اندفاع المعتمد وراء الأهواء ، وانصياعه لنزوات الرميكية أثار عليه الفقهاء ، ونقم عليه الجمهور الذي اتهمها بأنها:" ورطت المعتمد فيما ورطته من الخدعة والاستهتار والمجاهرة حتي كتب عليه أهل إشبيلية بذلك، وبتعطيل صلوات الجمع عقوداً ورفعوها إلي أمير المؤمنين .

وبالرغم من الثورة التي اندلع لهيبها علي ألسنة الفقهاء ، وفي ضمائر الدهماء، ظل المعتمد في معابثاته ، يشرب ويطرب ويقول الشعر ، ويجمع حوله القينات والجواري التي شغلنه عن كل مشاغل الدولة وأحداثها.

---

[١]) النفح: جـ٥ .ص ٣٤٣، والفتح بن خاقان: مطمع الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس، طبعة القسطنطينية، ٣٠٢، ص ٩٨- ٩٩. والحلة السيراء : ص ٦٣.

[٢]) المعجب: ص ٨٠.

[٣]) النفح: جـ٥ ص٣٤٣، والمعجب ص ٨٠.

[٤]) النفح: جـ٦ ، ص ٨٠.

وحين أحس بالمؤامرة التي أعدها له ابن تاشفين للقضاء عليه وعلي أسرته ، وبعد أن استولي علي قرطبة ورنده ، وقتل ولديه ، وبعد أن رآه يسير جيشاً ثالثاً بقيادة سير بن أبي بكر إلي إشبيلية للقضاء علي مملكة بني عبّاد قضاءً نهائياً، مد يده إلي ألفونسو ، وكان قد أخذ علي نفسه ألا يقع في هذا الوزر ، وأن لا يُسمع عنه أنه أعاد الأندلس دار الكُفر . وهو الذي أقسم أن " رعي الجمال عنده خير من رعي الخنازير" [١]، نسي كل ذلك ومد يده إلي عدوه الطبيعي ، إلي ألفونسو السادس ، الذي لم يبخل عليه فمده بجيش ، ولكن المرابطين سرعان ما أدركوه فهزموه بعد أن قوضت جيوش ابن تاشفين سلطان حكم المعتمد ، وبعد أن خلع عن عرشه ، وصدرت الأوامر بنفيه ، أعدت له ولعائلته ولذويه وحاشيته السفن لمغادرة إشبيلية، فنزلوها جازعين ، وقد حملوا الأقل الأقل من حاجاتهم الضرورية .

وقد وصف لنا الشاعر الداني ، وهو من أخلص أصدقاءه ، هذا الوداع بقصيدة صادقة النبرات يقول فيها:

١- تبكي السماء بدمع رائح غادي علي البهاليل من أبناء عبّادِ.[٢]

وفي المنفي بأغمات يقضي المعتمد وجميع أفراد عائلته أياماً سوداً في السجن فمن القصر الشامخ الذري حيث الملك العريض إلي الغُرف الضيقة والأسوار العالية ، والحياة الخشنة ،فما كادت حبيبته "اعتماد" تدخل هذه الأقبية الموحشة حتي ضاق صدرها ، وكادت تختنق بعد أن أجهشت بالبكاء ، خاطبت زوجها بقولها: يا سيدي

لقد هُنَّا هنا

وسرعان ما نظم المعتمد هذه الدمعة ببيتين يقول من: [مجزوء الرجز]

١- قالت: لَقد هُنّا هُنا مولاي : أين جاهُنا؟

٢- قُلتُ لها: إلي هُنَا صـيَّرنا إلهُــنَا![٣]

لقد ضاع ملك المعتمد ومرت الأيام سريعاً وهو في سجنه ، ومعتقله ، حتي أطل فجر العيد ، وللعيد تقاليده ومواسمه وهباته.

أي عيد هذا الذي يواجهه ، وهو خاوي الوفاض ، مغلول اليدين، وزوجاته وبناته في الأطمار البالية لا يفرن بالدمقس والحرير ، ولا يتطيبن بالطيب والعطور .

وانحدرت الدموع من عينيه ولسان حاله يقول:

عيد بأية حال عدت ، يا عيد....، وما هي إلا لحظات معتمة من الصمت حتي فاض قلبه الحزين بهذه الأبيات تصور مضضه وبرمه بهذه الأيام السود التي يحياها وعائلته:

١- فيما مضي كُنت بالأعياد مسروراً فساءكَ العيد في "أغمات" مأسوراً

٢- تري بناتك في الأطمار جائعةً يَغزلن لناس وما يملكن قِطميراً

٣- بَرزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارُهنَ ، حسيرات مكاسيراً

---

[١]) النفح: جـ٦ ، ص ٩١- ٩٣ ، والمعجب: ص ٨١.

[٢]) النفح: جـ٥ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

[٣]) النفح: جـ٥ ، ص٣٤٣، ابن العماد ، أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي ، شذرات الذهب، مطبعة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠، جـ٣ ص٣٨٩.

٤- يطأن في الطين والأقدام حافيةٌ كأنها لم تطأ مِسكاً وكافورا
٥- قد كان دهرك أن تأمره مُمتثلاً فردك الدهرُ مُنهياً ومأموراً[١]

وأُسرت ابنته بثينة وبيعت ظناً من آسرها إنها إحدي جواريه ، وانتقل من بقي من أهله معه إلي أغمات ، وأخذ بعضهم يكسب عيشه بيده، فبنت تعمل في الغزل ، وابن صانع عند صائغ ، ويظل في أسره أربع سنين حتي يموت سنة ٤٨٨ هـ " [٢]

والمقرى هو الكاتب الوحيد الذي حدثنا عن بثينة [٣] ، بنت المعتمد مدفوعاً بهذا الاهتمام الذي يعترف بأنه أثار مشاعره بعمق تجاه المعتمد وحظه العاثر هو وأسرته ، بقوله عن بثينة : إنها كانت نحواً من أمها الرميكية في الجمال والنادرة ونظم الشعر ، ثم يصف بعد ذلك الموقف الذي كتبت أشعارها الوحيدة التي تحفظ لها يقول : " لما أحاط المرابطون ، بأبيها في إشبيلية ، واستولوا على المدينة ، نهبوا القصر ، وكانت بثينة من جملة سبي، وفي أثناء الفترة اللاحقة التي كانت طويلة وأليمة ، كان أبواها في وله دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها، إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب ، والذي تحكي فيه أن أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية ووهبها لابنه ، فنظر في شأنها ، وهيئت له ، فلما أراد الدخول عليها امتنعت ، وأظهرت نسبها ، وقالت "لا أحل لك إلا بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته : [من الكامل]

١- اسمع كلامى واستمع لمقالتى ∴ فهى السلوك بدت من الأجياد
٢- لا تنكروا أنى سبيت وأننى ∴ بنت لملك من بنى عباد
٣- ملك عظيم قد تولى عصره ∴ وكذا الزمان يؤول للإفساد
٤- لما أراد الله فرقة شملنا ∴ وأذاقنا طعم الأسى عن زاد

٥- فخرجت هاربة فحازنى امرؤ ∴ لم يأت فى إعجاله بسدادِ
٦- إذا باعنى بيع العبيد فضمنى ∴ من صاننى إلا من الأنكادِ
٧- وأرادنى لنكاح نجل طاهر ∴ حسن الخلائق من بنى الأنجادِ
٨- ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضى ∴ ولأنت تنظر فى طريق رشادى
٩- وعسى رميكية الملوك بفضلها ∴ تدعو لنا باليمن والإسعادِ

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات ، واقع في شراك الكروب والأزمات سُرَّ هو وأمها بحياتها ، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتهما ، وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور، وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور يقول : (من السريع)

١- بنيتي كوني به برة فقد قضى الوقت باسعافه [٤]

---

[١]) قلائد العقيان: ص٢٨ ، النفح: جـ٦، ص ٩ -١٠ ، وفيات الأعيان : جـ٤ ، ص١٢٧.
[٢]) النفح : جـ ٦ , ص ٢٠ , ٣٥٦ , ٣٩١
[٣]) GARULO: Teresa Diwan de las poetisas de al-Andalus, Madrid, 1986. P. 63 - Peres. H. la poesia Andalus en arabe clasico, trad. Espanola por M Garcia- Aremal, Esplendor de La Andalus p.340-341
[٤]) النفح جـ٤، ص ٤٨٥

وجاء في المعجب " اتفق أن السيدة الكبرى - اعتماد - أم بنيه اعتلت ، وكان الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر بمراكش (يقول ابن دحية في المطرب : " قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه ، فكتب إليه المعتمد راغباً في علاج السيدة ، ومطالعة أحوالها بنفسه . فكتب إليه الوزير مؤدياً حقه ، ومجيباً عن رسالته ، ومسعفاً في طلبته ". [١]

بعد الاطلاع على مكانة اعتماد في حياة المعتمد الخاصة والعامة أحياناً . إذ كانت أم أولاده السبعة : عباد ، والراضي ، والرشيد والمأمون ، والمعتد ، والربيع ، وأبي هاشم المعلى ، وكان يكنيها بأم الربيع وبالسيدة الكبرى[٢] وبأم عبيدة [٣]، نستنتج أن اعتماد كانت وفية لزوجها قاسمته السراء والضراء ، فإن كانت تشاركه أفراحه في مجالس أنسه لمّا كان ملكاً فقد شاطرته آلام المنفى بـ " أغمات " حيث توفيت ، ولعل وفاتها التي سبقت بأيام قلائل وفاة المعتمد ، ناتجة عن حنينها إلى وطنها العزيز وفردوسها الضائع[٤] وما أمكن للمعتمد أن يقوى على وفاتها ، وأن يصبر على قساوة الزمان الغادر فقد أسرعت روحه إلى اللحاق بروحها تناجيها في عالم خالٍ من دناءة البشرية وسخافاتها.

واستغرب بعض النقاد البَون الشاسع الذي يفصل بين ما أخبرنا به المؤرخون ، ومدى الحب العميق الذي كان يربط المعتمد بزوجته وأم أولاده ، فإنه لم يتغن بها إلا في ثمان قطع من شعره ، سواء ذكر اسمها أم لم يذكر ، فإن هذه القطع الشعرية توضح مكانتها لديه إذا ما قارنا هذه المرأة بنسائه الأخريات ، فيبدو أنه تخيرها من بينهن بلا شك ولا مراء .

لقد كان المعتمد في حريمه ، وبين نسائه وجواريه ، كما كان بين شعراءه وخاصته ، يقربهن ويفرط في تدليلهن ، ويعاملهن على قدم المساواة ، فلا يسترهبهن بجبروته وصولته ، بل يرق لهن ، ويلين ويحلم ويغضي ، ويحتمل قسوتهن ، وفي بعض الأحيان حماقاتهن ، ويستعطفهن بالشعر البليغ والكلم العذب .

لقد اتسع قلب المعتمد لحب الكثير من جوارية ، وتدله في حب بعضهن من هؤلاء جاريته " جوهرة " فقد فتن بها المعتمد وتملكه حبها ، فقال إحدى نوبات غضبها عليه وهجرها له : [من السريع]

١- سرورنـــــا بعدكـــــــم ناقص والعيش لا صاف ولا خالص
٢- والسعد إن طالعنـــا نجمـه وغنيت، فهو الآقل الناكـص !
٣- سموك بالجوهر! مظلومة مثلك لا يـــــــدرگـــه غالـــص[٥]

وجري بينهما عتاب ، ورأى أن يكتب إليها ، فأجابته برقعة ولم تعنونها باسمها ، فقال : (من السريع]

١ - لم تصف لي بعد ، وإلا فلم لم أر في عنوانها جوهرة؟
٢- درت بأني عاشق لاسمهـــــــــا فلم ترد، للغيظ ، أن تذكرة

---

[١] المعجب ص ٢١٦.
[٢] الحلة السيراء : جـ٢، ص ٣٤-٦٢
[٣] الحلة السيراء : ج٢، ص ٨١-٨٢.
[٤] الحلة :جـ٢ ص ٦٣
[٥] النفح: جـ٥ ،ص٣٣٣، وخريدة القصر :جـ٢ ، ص٣٤

٣- قالت : إذا أبصـــــــــره ثابتـــا قبله ! والله لا أبصـــــــــــره [١]

وقال فيها من [مجزوء الرجز]

١ - جوهرة ، عذبـــنـــــــــــي منك تمادي الغضب

٢ – فزفـــرتي في صَعَـــــــد وعبرتي في صـــــبب

٣- يا كوكب الحسن الذي أزري بزهر الشهـــب .

٤- مسكنك القلب ، فـــــــلا ترضي له بالوصب ![٢]

وكانت جواريه يثقن بحبه لهن ، ويطمعن في حلمه عليهن ، و هو يستطيب منهن هذا الدلال ، وتلك المعابثة ، فهو يقول في جاريته "سحر" التي أفرطت في التجني عليه ، حتى يسأل الله الصفح عنها : [من الطويل]

١- عفا الله عن سحر على كل حالـــــــــة ولا حُوسبت عما بها أنا واجد!

٢- أسحرُ! ظلمت النفس واخترت فرقتي فجمعت أحزاني وهن شـــــوارد

٣- وكانت شجونى ، باقترابك ، نُزحاً فها هن ، لما إن نأيت ، شواهد

٤- فإن تستلذي برد مائك بعدنـــــــــــا فبعدك ما ندري متى الماء بارد!

ويقول فيها [من الطويل].

١- سأسال ربي أن يديم بي الشكوى فقد قربت من مضجعي الرشأ الأحوي

٢- إذا علة كانت لقـــــربك عـــــــــلة تمنيت أن تبقى بجسمـــــــــي وأن تقــوى!

٣- شكوت وسحر قد أغبت زيارتـــى فجاءت بها النعمة التي سميت بلـــــوى!

٤- فيا علتى دومـــــــى! فأنت حبيبة ويارب سمعاً من ندائي والشكـــــــــــــوى![٣]

ويقول في جارية له تسمى " وداد " وقد سافر عنها إلى تفقد بعض البلاد : [من الرمل]

١- اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنس بذكرها في انفرادك

٢- قمر غاب عن جفونـــــــــك مرآ ه وسكناه في سواد فؤادك[٤]

أما من تسمى قمر أو شمس ، فقد ظهرتا في عدة مقطوعات شعرية للمعتمد ، على أنهما شخصيتين مختلفتين ، بينما هناك بعض المصادر أشارت على أن (قمر ، وشمس) شخصية واحدة ، يقول [من مجزوء الرجز]

١- يا صفوتي من البشر! يا كوكبا! بل ياقمر؟

٢- أيا غصنا إذا مشى يا رشا إذا نظـــــــــــر

٣- يا نفس الروضة قد هبت لها ريح سفـــر

٤- يا ربه اللحظ الذي شد وثاقا إذ فتـــــــره [٥]

---

[١]) النفح جـ٥، ص٢٣٣.

[٢]) النفح: جـ٥ ص ٢٣٣، وخريدة القصر : جـ٣ ص٣٤

[٣]) الحلة السيراء : ج٢ ، ص ٦٢ ، بنو عباد : ص ٦٨ ، الذخيرة (١) : ج٢، ص ١١ ، (ب) ، ص٤

[٤]) خريدة القصر : ج ٢، ص ٣٠-٣١.

[٥]) خريدة القصر : ج ٢، ص ٢٢.

وجاء في المعجب : " وبينا هو في قبة له يكتب شيئاً أو يطالع ، وعنده بعض كرمائه وأغلب الظن أنها " قمر " قد حلت عليه الشمس فقال بديها: [من البسيط]

١- قامت لتحجب قرص الشمس قامتها عن ناظرى ... حجب عن ناظر الغير.

٢- علما لعمرك منـــــها أنها قمـــــــــــــر هل تجب الشمس إلا صفحة القمـــــــــــر[١]

وجاء في المعجب : " وبينا جارية من كرامائة قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها ، إذا لمع البرق فارتاعت فقال : [من السريع]

١- ريعت من البرق وفي كفهـــــــــــــا برق من القهوة ريـــــــاع

٢- يا ليت شعري وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاغ [٢]

ومما جاء في القلائد : عندما وصل المعتمد إلى " لورقة " استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن بن يسع وقال له : خرجت من إشبيلية ، وفي النفس غرام طويته بين ضلوعي . وكفكفت فيه غرب دموعي بفتاة هى الشمس أو كالشمس أخالها لا يحول قلبها ولا خلخالها ، وقد قلت في يوم وداعها عند] تفطر كبدي وانصداعها : [من الطويل]

١- ولما التقينا للوداع غديـــــــــة وقد خفقت في ساحة القصر رايات

٢- وقربت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت للفراق علامـــــــــــات

٣- بكينا دما، حتى كأن عيوننـــا لجري الدموع الحمر منها جراحاتُ

٤- وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد طالت عليها زيـــادات؟ [٣]

وقال من [مجزوء الكامل]

١- يا أيتها الشمس التى قلبي لها أحـــــــــــد البروج

٢- لولاك لم أك مؤثـــــرا قرش الحرير على السروج [٤]

أما جاريته " مها " فقد ورد ذكرها في قطعة واحدة في بيتين اثنين يقول : [من السريع]

١- الصبح قد مزق ثوب الدُجي فمزق الهم بكفي مهـــــــــــــا

٢- خذ باسمها من ريقها قهـــــوة في لون خديها تجلى الاسي[٥]

مما سبق ومن الاطلاع على ديوان شعر المعتمد الذي احتوى على ما يقرب من ستين قطعة شعرية في الغزل نجده ، لم يخص اعتماد إلا في ثمانى قصائد فقط وثلاثة في جوهرة ، واثنين في سحر ، وواحدة من كل من وداد ومها ، وثلاثة فيمن عرفت بقمر .[٦]

---

[١]) الحلة السيراء:. ج٢، ص ٦٠ ، رايات المبرزين ، ص6، المعجب : ١٦١.

[٢]) النفح :ج ه، ص ٣٢، المعجب : ص ١٦١ ، والمطرب : ص ١٥

٣) قلائد العقيان : ص ١٠ ، النفح : جـ٦ ص ١٥ ، المطرب : ص ١٨ ، وجاء في هامش المطرب :وقد وردت الأبيات الأربعة بين الشعر المنسوب إلى ابن زيدون" غير أننا لم نجد في ديوان ابن زيدون ما يؤكد علي ذلك، انظر ديوان ابن زيدون ،تحقيق علي عبدالعظيم ، القاهرة ، ١٩٥٧م [٤] .

[٥] الأخيرة : (أ)، ج٢ ص ١١، (ب) : ج٢ ، ص ١٤.

[٦]خريدة القصر : ج٢ ، ص ٣٢

وتبقى نساؤه الأخريات مجهولات الاسم ، عديمات الذكر ونظراً للظروف التي حقت بالمعتمد الشاعر ، وأوحت ببعض القطع يجوز الافتراض أنه قالها في زوجته المحبوبة لديه لا في غيرها ، ولو أنه لا يوجد فيها ما يدل على أن هذا الشعر عنى به الشاعر اعتمادا دون غيرها .

ونقول إذا كان المعتمد يفضل زوجته اعتماد على بقية نسائه فلا يفيد ذلك بالمرة أنه كان يفردها بحبه ، باعتبار مقاييسنا الحالية في الحب والوفاء إذ أنه كان من بين الحريم جوار ، وإماء يشاطرنها حب المعتمد ،رغم أن اعتماد كانت الزوجة الوحيدة التي ذكرها المؤرخون [١]، وتغنى بها المعتمد[٢]

وديوان المعتمد يحتوي علي العديد من مقطوعات الشعر الغنائى ، عذبة الجرس حلوة النغم ، أغلب الظن أنها قليت في جواريه الكثيرات اللواتي كان ينعم بقربهن في قصوره ويروقه منهن القرب والصد ، والإقبال والنفور مثل قوله : [من الرمل]

١- يا بديع الحسن والاحس ـــان ! يابدر الدياجي !

٢- يا غزالاً أصـــــــــاد مني بالطلي ليث الهيـــــاج

٤- قد غنينـــــــــــــــا بسنا وج هك عن ضوء السراج[٣]

والذي يحسن بنا استنتاجه من هذا كله هو أن المعتمد كان يفضل التغنى بزوجه الحلال ، أكثر من غيرها من الجواري والإماء مع إبدائه حبه لبعضهن بما لا يقل عن حبه لاعتماد مكانة وقوة ، كما يمكن استخلاص العبرة المتمثلة في قيمة المرأة الاجتماعية في المجتمع الأندلسي ، وصورتها المثالية لدى المعتمد بن عباد .

" ابن زيدون وولادة بنت المستكفي "

أ.د/ منى ربيع بسطاوي

[١] ابن بسام الذخيرة : جـ٢ ، ص١٠ ، والمطرب ص٧ ، النفح :جـ٢ ص٣٤٢

[٢] ديوان المعتمد: ص ٢٦-٣١

[٣]) النفح: جـ٥، ص ٢٣٣ ، خريدة القصر: طبعة تونس ،جـ٢ ص٣٥

" ابن زيدون "

* مولد ابن زيدون ، نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٤٩٤ه /١٠٠٣م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي، وهو كما نرى من نسبه عربي صريح ينتمي إلى قبيلة مخزوم القرشية التي ذكرها المقري بين القبائل التي رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً في قرطبة وجيهاً ثرياً غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفي بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إلبها لتفقد بعض ضياعه ،وحُمل إلى قرطبة فدفن فيها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبي أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء.

ونشأة الشاعر في قرطبة ساعدته علي الانكباب علي العلم والتحصيل فقد كانت هذه المدينة موئل العلوم والآداب في الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم علي يد أبيه الذي وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذي تلقاه علي أبيه لا يكاد يكون شئ مذكوراً ، فقد كان ابن زيدون في الحادية عشرة من عمره عند وفاة والده ، وهنا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة ، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له في رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسماهم كأفلاطون وأرسطوطاليس وسقراط وجابر بن حيان وغيرهم ، وإننا لنري في رسالته الهزلية والجدية فيضاً من المعارف التاريخية والثقافية الإسلامية وعدداً كبيراً من الأمثال والأشعار ، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها في حلقات العلم والأدب في قرطبة علي يد مشاهير علمائها . ويذكر المستشرق (كور) في رسالته عن ابن زيدون أستاذين له هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أدبياً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، والقاضي أبو بكر بن ذكوان [١] .

[١]) يري الدكتور شوقي ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضي ابي الحزم بن جمهور ولم يكن أستاذ ابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ ه وقد خلطوا بينه وبين أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاه بقرطبة ويظن الدكتور شوقي ضيف ان ابن زيدون لزم " بن ذكوان هذا ، وكان صديقا لأبيه ، وأفاد من أدبه ، انظر كتابه عن ابن زيدون ، ص١٦

وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة في آثاره ، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم في قصيدته الطائية التي أشرنا إليها [١] ، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها في الذخيرة [٤] وقد رثى أيضاً القاضي أبا بكر بن ذكوان في قصيدة مطلعها :

اعْجَبْ لحال السَّروِ كيفَ تُحال ولدولة العَليـــــــاءِ كيفَ تُدالُ

لاتَفْسَحَنْ للنفس في شَأْوِ المُنى إن اغترارَك بالمُنى لَضَلالُ [٢]

فثقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة ، ولعله قد استقي معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة في عصره .

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب ، وكان أهلها في رخاء العيش ميالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفتن الداخلية عن الإنهماك في لهوهم ، بل لعل الدسائس كانت تحاك في مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول أن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة في شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيف الروح كثير الدعابة ، ميال إلى المجون إلى جانب طموحه السياسي ، لهذا فقد نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والإجتماعية والسياسية.

ولادة بنت المستكفي

ازدانت البيئة الأندلسية بعدد غير قليل من النساء الشاعرات اللائي أسهمن في إثراء الأدب الأندلسي بألوان طريفة من موضوعات الشعر ومقطوعات رائعة في فن القصيد ، فكان إثراؤهن للشعر أمراً بيناً في مجتمع كاد كله أن يقول شعراً فلا شك أن جهد الشاعرات الأندلسيات كان واضح الأثر رائع البهاء وليس أدل على ذلك من أنهن فرض وجودهن فرضاً على موكب الشعر في الأندلس .

كذلك عرف المشرق العربي عدداً من الشاعرات على فترات متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً أمثال الخنساء ، ليلى الأخيلية ، وعلية بنت المهدى و عريب المأمونية ، ونيران بنت جعفر بن موسى الهادي ، وفضل وغيرهن ... إلا أن عدد هؤلاء قليل إذا قيس بعدد الشاعرات الأندلسيات ، وقصائدهن محدودة الكم فضلاً عن خضوعهن إلى حد ما للتقاليد بعينها لم يستطعن أن يتعدينها في نطاق مجتمع المشرق العربي الذي مهما قيل في تبذله وانحلاله في بعض فتراته فإنه ظل يحاسب المرأة على قولها وفعلها .

أما في الأندلس فقد تمتعت المرأة بكامل حريتها في ظل بيئة جديدة لم ترتبط تقاليدها بأعمال وأثقال كتلك التي ارتبطت بها بيئة المشرق ، ومن هنا شاركت المرأة الشاعرة في كل فنون الشعر ، فكانت تتغزل في الرجل تماماً كما يتغزل الرجل فيها ، وكانت تلح في إغرائه وتصف محاسنها ، وتذهب إليه زائرة تطرق بابه وتنادمه ، كما كانت تمدح وتفخر ، ولكن في ظل أنوثتها ، وتهجو

---

[١]) الديوان ، ص١٢

[٢]) المجلد الاول ، ص٣٥٠

٥) الديوان ، ص١٥٣

ولا تتورع عن استعمال أساليب الذين أسفوا في الهجاء من المشارقة ، أمثال : بشار ، وابن سكر وابن حجاج وغيرهم ، ولم تتحرج من ذكر العورات ، ولم تستحِ من ترديد بعض الألفاظ التي يتحرج المحتشمون من الرجال عن ذكرها ، وكانت في الوقت نفسه تساجل الرجل قصيدة بقصيدة ، وقافية بقافية جادة حيناً وهازلة أحياناً .

فعدد الشاعرات الأندلسيات كان من الوفرة والنضوج بحيث شكل ملحماً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي ، وكان فنهن من ناحية القول والصوغ والجرس والجرأة ، والرصانة والجزالة والأطراف مما يدفع بالدارس إلى ضرورة الوقوف في ساحتهن بعض الوقت. لا شك أن الثقافة العربية شاعت شيوعاً ملحوظاً بين النساء الأندلسيات بمختلف أجناسهن ، ولا أدل على ذلك من الشواعر اللواتي روت لهن كتب الأدب أشعاراً عديدة مثل «نزهون القلاعية، ومهجة القرطبية واعتماد الرميكية، و أم الكرام و بثينة بنت العباد» و «ولادة بنت المستكفي وحفصة الركونية، وغيرهن.

وسوف نتوقف في هذه الدراسة عند ولادة بنت الخليفة المستكفي .

فمن هي ولادة ؟

هي واحدة من أميرات بني أمية في الأندلس ، جدها عبد الرحمن الناصر ، وهي نموذج للأميرة المثقفة النابغة الذكية يقول عنها الضبي: " ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد ، أدبية شاعرة ، جزلة القول ، مطبوعة الشعر ، وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . ذكرها أبو عبد الله بن مكي وأثنى علي فضلها وسرعة قدرتها " [1]

وأورد لها المقري: وقد ذكر ولادة ابن بشكوال في الصلة، فقال : كانت أديبة ، شاعرة ، جزلة القول ، حسنة الشعر ، كانت تناضل الشعراء . وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء ، وقد عمرت طويلاً ولم تتزوج. [2]

ويقول عنها ابن بسام : وكانت من نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها ، حضور شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدي لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب إلى حلاوة عشرتها إلي سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك يعلو نصاب ، وكرم أنساب وطهارة أثواب "[3]

ويقول عنها ابن سعيد : ولادة بالغرب كعلية أخت الرشيد في الشرق إلا أن ولادة تزيد بمزية الحسن الفائق . وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة

---

[1]) الضبي : بغية الشمس : ط ، روخس ، مجربط ، ١٨٨٤م ، ص ٥٣١-٥٣٣

[2]) المقري : نفخ الطيب من غصن الاندلس الرطيب . تحقيق القاهرة . ١٩٤٩ . (نشر محيي)

[3]) ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة " تحقيق القاهرة ، ١٩٢٦ ، ج١ ، ص ٣٧٧

في الغناء ، وكان مجلسها يغشاه شعراء قرطبة وظرفاؤها ، فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقتضاه عصرها " [١]

ربما كان للمكانة العالية التي احتلتها ولادة عظيم الأثر في أن منحتها حرية خاصة في التعامل والتصرف ، إلا أن هذه الفترة لم تدم طويلاً من حياتها ، حيث كانت قرطبة مدينة غير آمنة (فترة الاضطرابات السياسية والتي بدأت عام ١٠٠٩م مع اغتيال المظفر بن المنصور ، وانتهت بقيام ملوك الطوائف عام ١٠٣١ م) ، وخاصة خلال سنوات الفتنة ، إذ حل الخراب ، وطمست معالم قرطبة الجميلة ، وهدمت القصور العظيمة التي بناها الأمويون .

كانت السنوات الذهبية لولادة قليلة ، تلك السنوات التي كان لأدبها وجمالها ، وظرفها ما يجذب إلى مجلسها الشعراء والكتاب من ذوي الشأن في عصرها . فقد جاءت ولادة على خلاف أبيها ، قوية الشخصية ، مستقلة الرأى حادة الذكاء واسعة الثقافة ، عارفة بالأدب ، مقتدرة على قول الشعر ، جميلة متحررة ، أضافت إلى تحرر عصرها ألواناً من التحرر ، فجعلت قصرها ملتقى أدبياً يتنافس المتنافسون فيه على حبها ، ومحاولة كسب قلبها، وأنها الفاتنة صاحبة الصالون الأدبي. [٢]

فقد جمعت ولادة إلى ذكائها نبلها وطهارة ثوبها ، لكن التقليل من شأنها في المناسبات أعطى الفرصة لكثير من الشائعات حول سلوكها ... ومما فتح الباب للقيل والقال". [٣]

وهذا ما عبر عنه ابن بسام حين قال : «على أنها سمح الله لها ، وتغمد زللها، أطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها". [٤] .

وقال عنها ابن مكى : " لم يكن لها تصاون يطابق شرفها". [٥] .

وذهب ابن نباته في مسرح العيون، بقوله : «وتعشقها الكبراء منهم".[٦]

ومن بين المحدثين الذين لم ينصفوا ولادة بل وجهوا لها لوماً لاذعاً لا نرتضيه للشاعرة كان د. محمود صبح ، فقد ذهب في دراسته التي أعدها عن " ابن زيدون شاعر قرطبة " عند تناوله لموضوع علاقتها بابن زيدون يقول : لم تكن ولادة العفيفة الحصان ... ثم نراه عندما يتحدث عن علاقتها بمهجة القرطبية يقول: ومهجة هذه كانت وعناء ماجنة خرقاء ... ولم تكن ولادة بأقل منها مجوناً ، ولا أعقل منها لساناً فقد هجت ابن زيدون ..." [٧].

مما سبق يتضح لنا مدى تباين آراء المؤرخين حول شخصية ولادة فمنهم من كان مطرياً ، ومنهم من كان منصفاً أو متحاملاً .

---

[١]) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف ، طبعه دار المعارف بمصر ١٩٥٣ ، ج٢ ، ص ٢٢٨ . والمقري : نفخ الطيب ، ج٥ ، ص ٢٢٩

[٢]) ماريا خيسوس روبيرا : الشعر النسائي الاسباني العربي ، طبعه معهد الماه ، مدريد ، ١٩٨٩ ، ص١٠٠ Maria jesus rublen mata : pcesta femeina hipano – arabe ,p.100,Edio rial castala instituto da la Mujer , Madrid, 1989

[٣]) ابن دحية الكلبي : القاهرة في شهر اهل المغرب : تحقيق ابراهيم الابياري ، وحامد عبد المجيد ، واحمد بدوي ، اقاهرة ، ١٩٥٤ ، ص٨

[٤]) ابن بسام : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تحقيق في احسان عباس ، ١٩٧٩ م ن طبعه دار الثقافه ، بيروت ، ج١ ، ص ٤٢٩

[٥]) الضبي : بقية الشمس ، ص ٥٣٢

[٦]) ابن نبائه : سرح العيون ، ط الاميرية ، القاهرة ، ص ٧

[٧]) د. محمود صبح : ابن زيدون شاعر قرطبه ، منشورات المعهد الاسباني العربي للثقافة في مدريد ، ١٩٨٥ ، ص ٥٩

والذي يغلب على الظن أن ولادة كانت بعيدة عن التبذل ، مصونة عن الإسفاف، حسبها من ذاك اللقاء ظفرها بالإعجاب والحب والتقدير ، وتنافس الجميع في إرضائها والتغني بها لإرضاء غرورها لا أكثر ... وقد أكد لنا ذلك المؤرخ الثقة ابن بسام بقوله : «كانت يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها ، ويتهالك الشعراء والكتاب إلى حلاوة عشرتها ... تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب، [١] فولادة في ظني لم تكن من بائعات الهوى كما حاول البعض أن يصورها ولكنها في إطار وضعها الاجتماعي ، وهذا الملتقي الأدبي وما يدور فيه من مناقشات ، وعواطف محتدمة وخصوصات وتنافس، كل هذا ربما دفع بها إلى مجاراة ضيوفها، والخوض مع الخائضين فتورطت في الحديث الصريح عن عواطفها علي غير عادة الشاعرات العربيات بخاصة في المشرق – كما تورطت في بعض الشعر الذي يدخل في باب الأدب المكشوف والذي كان أغلبه كما ذهب د/هيكل يأتي في مقام الهجاء الذي وجدت نفسها مسوقة إليه ، وفي كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون لعبة أدبية أما عن البيتين اللذين طرزت بهما ثوبها وكشفت فيهما عن مدي اللامبالاة ، والتي قالت فيهما : " من الوافر " [٢]

١- أنـــا والله أصـــلح للمعـــالى ∴ وأمشـــى مشـــيتى وأتيـــه تيهـــا
٢- وأمكن عاشقى من صحن خدى ∴ وأعطـــى قبلتـــى مـــن يشـــتهيها

فالصحيح عندي هو ما ذهب إليه د. الشكعة حين قال: " إن ولادة لم تكن من الانحراف بحيث يكون بعض شعرها قرينة على سوء بها ، وإنما طبيعة ندوتها وجمالها وحسبها ، وذكاؤها كل ذلك دفعها إلى مجاراة طبيعة زمانها ، والاستجابة إلى المناخ العام في منتداها" [٣].

وهناك أدلة أخرى تؤكد لنا على مدى استقامة ولادة و عفافها منها ما ورد في " نزهة الجلساء " إذ يقرنونها بإحدي الأميرات العباسيات وهي «علية بنت المهدى» التي توصف بجمالها ومواهبها الأدبية التي جعلت منها شاعرة جديرة بالتقدير وأيضاً بتصاونها وعفافها [٤] ، إلى جانب ما قالته ولادة هي عن نفسها في بيتين شهيرين أيضاً إذ قالت " من الكامل "

١- إني وإن نظر الأنام لبهجـــــتي كظباء مكة صيدهن حـــــرام
٢- يحسبن من لين الكلام فواحشا ويصدهن عن الخنا الإسلام [٥]

أضف إلى ذلك ربما قالت ولادة البيتين - اللذين طرزت بها ثوبها - تحريضاً لغيرة من تحب ، أو رغبة منها في لفت الانتباه إلى كونها مسترسلة في الحرية والانطلاق ، وإن كانت ولادة بهذين البيتين قد تحدث المجتمع والناس تحدياً مستهجناً لم يغفره لها أحد من قبل ولا من بعد ". [٦]

---

[١]) ابن بسام : الذخيرة ، ج١ ، ص ٣٧٧
[٢]) المقري : نفح الطيب ، ج٥ ، ص ٣٣٦ ، والذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص ٣٧٩ -٣٧٦
[٣]) مصطفي الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، طبعه دار العلم للملايين ، ط ، السادسة ، ١٩٨٦ ، ص ٣١٩
[٤]) السيوطي : نزهه الجلساء في اشعار النساء ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، طبعة دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ص ٦٠.
[٥]) المقري : النفح ، ج ٥ ، ص ٢٣٧
[٦]) سلمي الحفار الكزبري : اثر ولادة في حياة ابن زيدون زفنه . من مجله الكتاب العراقية ، العدد الحادي عشر – والثاني عشر ، ١٩٧٥ ، السنة التاسعة ، ص ٣٠٢

لقد ملأت شهرة ولادة الآفاق ، وتركت لنا في التاريخ الأدبي أخباراً وأشعاراً واقترن اسمها بابن زيدون الوزير الشاعر ، نعم قد أعجبت ولادة به كما أعجب بها ابن زيدون ، وسرعان ما تحول هذا الإعجاب إلى حب ، وأخذ هذا الحب شكل الهيام الحار ، وكيف لا تهيم ولادة بابن زيدون ، وقد أمسي من رواد ندوتها ، والشاب الوسيم النبيل الشاعر صاحب المكانة المرموقة ، والسياسي الطموح ، والوزير في حكومة بني جمهور يتسلق قمة المجد وهو بعد في مقتبل العمر ، وكيف لا تأسره ولادة وتستهويه بفتنتها وظرفها ويؤثر قلبها سحراً وهي الأميرة الحسناء الفاتنة التي أسرت كل القلوب من حولها ، وهي حسبما قال عنها ابن خاقان : " كانت من الأدب والظرف ، وتنعيم السمع والطرف ، بحيث تختلس القلوب ، والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ".[١]

أحبت ولادة ابن زيدون ونراها حين تهيم به تكتب إليه تخبره بموعد زيارتها تقول:" من الطويل "

١- ترقب إذا جن الظلام زيارتـــــــــــــــــــي فإني رأيت الليل أكتم للســـــــــر

٢- وبي منك، ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع بالليل لم يسر [٢]

ويلتقي الاحبة ، وما كاد يفترقان حتي أنشدها يقول :

١- ودع الصبر حب ودعـــــــك ذائع من سره ما استودعـــــــك

٢- يقرع السن علي أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك

٣- يا أخا البدر سناء وسنـــــــــا حفــظ الله زماناً أرجعـــــــــــــك

٤- أن يطل بعدك ليلي فلكـــــم بث أشكو قصر الليل معـــــك [٣]

ولكم ترجمت ولادة عن مشاعر الحب تجاه ابن زيدون في غزل رقيق يجمع ما بين الصبابة ، والشكوي جرياً علي عادة الشاعرات الأندلسيات اللائي أعطين لأنفسهن الحرية الكاملة في التغزل بالرجل كغزل الرجل بالمرأة ، ومن ذلك قولها حينما تشكو فراق الحبيب تقول:" من الوافر ".

١- ألا هل لنا من بعد هذا التفـــــــــرق سبيل فيشكو كل صب بمـــــــا لقي

٢- وقد تركت أوقات التزاور في الشتا أبيت علي جمر من الشوق محرق

٣- فكيف وقد أمسيت في حال قطعة لقد عجل المقدور ما كنت أتـــــــقي

٤- تمر الليالي لا أري البين ينقــضي ولا الصبر من رق التشوق معتــقي

٥- سقي الله أرضاً قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبـــــل مغدق [٤]

---

[١]) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، طبعه القاهرة ، ١٢٨٣ ه ، ص ١١٧

[٢]) المقري : النفح ، ج٥ ، ص ٣٣٦

[٣]) ابن بسام : الذخيرة ، ج١، ص ٣٧٧ ، والمقري : النفح ، ج د٥ ، ص ٢٣٧ ، وقد نسب المقري هذه الأبيات لولادة في نفحة ، بينما ، في الذخيرة ومصادر أخري لابن زيدون

[٤]) المقري : النفح ، ج٥ ،ص ٢٣٧.

كانت ولادة إلي جانب حبها لابن زيدون تقدر فنه وشاعريته ، وتعتبره أستاذاً لها ، وكثيراً ما كانت تطلب إليه أن يراجع ما في شعرها من هنات ، وأن بلفت نظرها إلى ما قد يكون فيه من مآخذ ، ولهذا حينما بعثت إليه بأبياتها السابقة نراه يرد عليها برأيه ناقداً لبيتها الأخير .
وبعد أن قرأ ابن زيدون أبياتها التي أفصحت فيها عن مكنون عواطفها في بساطة ويسر ، نراه يرد عليها من نفس البحر والقافية بأبيات تشعرك وأنت تقرأها بدفء العاطفة وصدق النبرة ، حين قال : " من الوافر "

١- لحي الله يوماً لست فيه بملتقي محياك من أجل النوي والتفرق
٢- وكيف يطيب العيش دون مسرة وأي سرور للكئيـــــــــــب المؤرق[١]

وتتكرر اللقاءات بين الأحبة ، وكثيراً ما كان يتخلل هذه اللقاءات العديد من ألوان السمر ، كعزف الجواري ، والغناء ، كما كان مجلسها عامراً بالموسيقي والشعر ، وكانت ولادة نفسها تشارك أحياناً بالغناء أو الضرب علي العود ، ومما روي عن منتداها الذي كان يضم من بين رواده ابن زيدون ، أن جارية سوداء كانت لها تسمي " عُتبة " تتمتع بحلاوة الصوت ، وبراعة العزف ، غنت ذات ليلة في وجود ابن زيدون تقول :

١- أحبتنا إني بلغت مؤملـــــــــــي وساعدني دهري وواصلني حبي
٢- وجاء يهنيني البشير بوصله فأعطيه نفسي وزدت له قلبي [٢]

ويبدو أن الجارية قد أحسنت الغناء فأطربت ابن زيدون مما جعله يلتمس منها إعادة اللحن والغناء مرة أخرى، وفاته أن يستأذن مولاتها ، فثارت ولادة واحتدت - ربما لغيرة الأنثى بداخلها والمرأة المحبة، فزجرت جاريتها وضربتها وأمرتها بالإنصراف وإذا بها تنسحب من المجلس دامعة العين وفي هذا يقول ابن زيدون:

١- وما ضربت عتبى لذنب أتت به ولكنما ولادة تشتـــــــهي ضربي
٢- فقامت تجر الذيل عاثرة به وتمسح طل الدمع بالعنم الرطب

- إلا أن ولادة قبل ،ن تنصرف من المجلس نراها ترد على ابن زيدون بأبيات تثأر فيها لنفسها وتدافع عن جمالها وكبريائها ، وهي الأميرة ذات الحسب والمال والجمال . ومعنفة لابن زيدون الذي أخل بآداب المجلس ، ووضع نفسه موضع صاحبة المجلس متخطياً وجودها ، وهذه الحادثة تدلنا أبلغ دلالة على آداب السلوك التي كانت سائدة في المجتمع الأندلسي آنذاك , فلقد ثأرت ولادة - ربما - لحرصها أن يحترم زوار مجلسها أصول اللياقة ، ومن ناحية أخرى لأن الغيرة والأوهام جعلتها تظن أن ابن زيدون يستملك جاريتها، ويميل إليها فقالت تستعتبه (من الكامل) :

١ - لو كنت تتصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخـــــــــير
٢- وتركت غصناً مثمراً بجمالـــــــــــــــه وجنحت للغصن الذي لم يثمر
٣- ولقد علمت بأنني بدر السمـــــــــــــا لكن دهيـت لشقوتي بالمشتري [٣]

---

[١] ابن زيدون : الديوان : تحقيق علي عبد العظيم . ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٧
[٢]) ابن بسام : الذخيرة ، ج ١ ، ص ٣٧٨
[٣]) ابن بسام : الذخيرة : ج١ ، ص ٣٧٨

وولادة في هذه الأبيات تشبه نفسها بالغصن المثمر ، كما جعلت من نفسها نداً للبدر ، وقد زينت أبياتها بالطباق حينما طابقت ما بين البدر والمشتري ، فهذا مشرق منير ، وتقصد نفسها وذاك مظلم آفل وتقصد به الجارية ، كما طابقت بين الإثمار وعدمه في الغصن ، وإذا كانت ولادة في هذه الأبيات قد عبرت عما بداخلها من الغيرة والتذمر والاحتجاج إلا أننا نشتم من خلالها أن ولادة تحب نفسها أكثر من ابن زيدون ، فهي حينما تعاتب حبيبها لا تنسى أن تتصرف كأميرة . فيملأها الغرور والصلف، فكيف يترك الغصن المثمر بالجمال ويميل للغصن الذي لم يثمر بعد ، فولادة كانت دائماً مفتونة بجمالها وحبها ، ونسبها ، وناديها شغوفة بتعلق القلوب بها ، أو كما يرى بعض المستشرقين بأنها كانت سادية " [١]

وهناك من رفض هذه الرواية برمتها ، ولا يرى فيها إلا " قصة ملفقة من أولها وآخرها ،وأن هذه الأبيات جمعت من شعرها لتكون دليلاً على صحة الرواية " [٢] .

ولا أقبل برفض هذه الرواية أو تكذيبها ، ودليل صحتها عندي أن الذي ذكرها هو أحد المؤرخين الثقاه [٣] ، والمشهود له بالمصداقية من قبل المؤرخين والباحثين قدامي ومحدثين .

علي الرغم مما صدر عن ولادة إلا أننا نرى ابن زيدون يزداد هياماً بالأميرة الحسناء ، ويصبح عاشقاً بعد أن كان معشوقاً ، وتصبح ولادة هي المعشوقة ذات الدلال ، وهو العاشق الذي يشكو السهر والبعد والجفاء، فبعد أن كانت ولادة تمني النفس بلقائه ، أصبحت هي التي تملك زمام قلب الشاعر ، فمما لا شك فيه أنه نشأ حب كبير ما بين الحبيبين والنجمين المتألقين في سماء قرطبة ، جعلهما من أشهر العشاق في تاريخ الأندلس ، فوهبا لتراثنا العربي أجمل شعر الغزل الأندلسى.

هذا وقد ظل العاشقان ينهلان من معين متدفق لم ينضب ، قد أعرب عنه ابن زيدون حين أنشدها يقول:

١- أما هواك فلم نعدل بمنهله شرباً ، وإن كان يروينا فيظمينا [٤]

وإذا استعرضنا تاريخ العشاق في العالم قلما نجد حباً كتبت له الديمومة كالذي عصف بابن زيدون وولادة ، لقد هزت الأميرة الجميلة كيان الشاعر هزاً عميقاً لا عابراً ، فظل أسيراً لهذا الحب الكبير، وفيّاً له حتى نهاية حياته ولاشك أن ولادة بادلت ابن زيدون حباً بحب، وكان من الممكن أن تستمر العلاقة بينها مادامت حياتهما، لولا الغيرة التي لازمت حبهما وعكرت صفو حياتهما . وتأثير خصومه اللذين وجدوا الفرصة مواتية لإيغار صدر الحبيبة عليه ، فلقد استغل ابن القلاس ، وابن عبدوس فرصة أول خصام نشب بين الحبيبين أبشع استقلال ، ولم يكفا عن تحريضها عليه حتى أخذت تتحرل عنه وتنظر إليه بعين جديدة، أخذت ترى فيه الصلف والغرور والأنانية والعقوق ، كما ثارت غضبتها عناما مر بخاطرها نقده لشعرها ذات مرة ، وإعجابه بجاريتها فظنت أنه بها مستخف ، وبمقامها مستهتر، وإن كنت أرى أن قصة إعجاب ابن زيدون بجاريتها ما هي إلا حادثة عابرة ضخمها خيال ولادة، وكان من الممكن أن ينتهي الخصام بينهما بالمصالحة

---

[١]) ابن زيدون : الديوان : ص ٢٩

[٢]) د. محمود صبح : ابن زيدون شاعر قرطبة . طبعة منشورات المعهد الاسباني العربي بمدريد ، ١٩٨٥ ، ص ٥٦

[٣]) ابن بسام : الذخيرة . ق١ ، ج١ ، ص ٣٧٦-٣٧٩.

[٤]) ابن زيدون : الديوان ، ص ٢٤ .

لولا تدخل منافسي الشاعر في حبها، وكان قد اعتذر إليها ابن زيدون اعتذاراً ما أظن أن شاعراً جاء بمثله في رقة العاطفة وصدق النبرة، قال :

١- أنت الحياة فإن يقدر فراقك لـــــــــــي فليحفر القبر أو فليحضر الكـــــفن
٢- والله ما ساءني أني جفيت ضنـــــــــي بل ساءني ان سري بالضنى عـلن
٣- لو كان أمري- في كتم الهوي- بيدي ما كان يعلم ما في قلبي – البـــدن [١]

وقوله :

١- أغار عليك من عيني ، ومني ومنك ، ومن زمانك ، والمكان
٢- ولو أني خبأتك في عيونـــــــــي إلي يوم القيـــــــــــــامة ما كفاني [٢]

إلا أن ولادة صدت عنه ، وأوصدت دونه قلبها وقصرها ، عندئذ لجأ الشاعر المتيم إلى هجو منافسيه ، فزجر ابن القلاس بقصيدة لاذعة انسحب علي إثرها من الميدان، وهدد ابن عبدوس بقصيدة أخرى ، ولكن ابن عبدوس بالغ في التقرب إلى ولادة ، وأرسل إليها من تزكيه عندها طمعاً في الفوز بها ، وما إن علم ابن زيدون بهذه الوفادة حتى دفعه الغيظ إلى كتابة رسالته الهزلية وأرسلها إلى الوزير ابن عبدوس يقول فيها :" ألست تأوى إلى بيت قعيدته لكاع، إذ كلهم عزب خالي الذراع ... وكم بين من يعتمدنى بالقوة الظاهرة ، والثروة الوافرة ، والنفس المصروفة إلى ، واللذة الموقوفة على ، وبين آخر قد نضب غديره. ونزحت بيره ، وذهب نشاطه ...» [٣] .

وتغضب ولادة بعد ساعة الرسالة وما جاء فيها ، وكيف لا تغضب وقد أصبحت هي موضع نقد الناس ، وتندرهم ، ولاسيما وقد شهّر بها ابن زيدون في الرسالة ، ومس كرامتها ووصفها بالبغى ظلماً وتجنياً ، فبقدر ما كان ابن زيدون عزيز النفس سريع الغضب ، بقدر ما كانت ولادة معتدة بنفسها غيورة على كرامتها وكبريائها ، سريعة الانفعال ، وبقدر ما يكون الحب متمكناً من القلب مترسخاً فيه بقدر ما تكون ردود فعل المحبين عنيفة وموجعة ، ولعل هذا ما حدا بولادة أن تنقلب عليه وتهجوه ، فقد قالت ولادة شعراً في الهجاء ، وإن لم تكن صفة الهجاء مرتبطة باسمها أو شعرها ، ومع هذا هناك من ذهب على أنها " أهجي من نزهون القلاعية ". [٤]

لقد هجت ولادة ابن زيدون ، هجت الرجل الذي هام بها وقال فيها أروع ما قيل من شعر في الغزل ، والذي ما زال يردد إلى يومنا هذا ، فمن بين قصائدها التسعة التي حفظتها لنا كتب الأدب توجد أربعة قصائد منهم في الهجاء، هجت ابن زيدون بثلاثة منهم والرابعة كانت في هجاء من يسمى بالأصبحي . وهناك من ذهب على أنها تشابهت مع مهجة القرطبية الشاعرة الأندلسية - في اعتمادها على الإشارات الجنسية كأساس للهجاء ، فبعد أن تغيرت على ابن زيدون لقبته بالمسدس وهجته بهذه الابيات (من الوافر)، قالت :

---

[١] ديوان ابن زيدون : ص ١٧

[٢]) ديوان ابن زيدون : ص ١٧٠ ، وهناك من نسب هذين البيتين لحفصة الركونية ، انظر : المقري : النفح ، ج٤ /١٧٦ .

[٣])) ابن نباته : سرح العيون ، ط . الاميرية ، القاهرة ، ص ٧

[٤]) المقري : النفح ، ج ٥ / ٣٤١ . منزهون القلاعية القرناطيه : شاعرة من اهل المائة الخامسة . ذكرها الحجاري في " المسهب " ووصفها بخفه الروح ، وانطباع النادرة ،والحلاوة ، وحفظ الشعر ، والمعرفه بتصريف الامثال . مع حمال بخفه الروح ، وحسن رائق : انظر السيوطي ، النزعه ، ص٧٤.

١- ولقبت بالمسدس وهو نعت تفارقك الحياة ولا يفـــــــارق
٢- فلوطـــــــى ، ومأبون ، وزان وديوث ، وقرنان ، وسارق [١]

كما رمته بأنه على علاقة مع فتاه "على" قالت تهجوه "من السريع":

١- إن ابن زيدون على فضله يغتابني ظلماً، ولا ذنب لـــــــي
٢- يلحظني شزرا اذا جئتـــــــه كأنني جئت لأخصى «على»[٢]

كما هجته "من السريع" ، قالت :

١- أن ابن زيدون له ..... تعشق ..... السراويل
٢- لو أبصرت ..... على نخلة صارت من الطير الأبـابيل [٣]

كما هجت ولادة من كان يسمى بالأصبحي قالت "من السريع":

١- يا أصبحى اهنأ فكـــــــم نعمة جاءتك من ذي العرش رب المنن
٢ - قد نلت ... ابنك ما لم ينل ..... بوران ابوها الحسن [٤]

ومرت يوماً بالوزير ابن عبدوس ، وهو جالس أمام بركة تتولد من مياه الأمطار ويسيل إليها شيء من الأوساخ فأنشدته " من الكامل "

١- أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكـــــــما بحر [٥]

لقد هجت ولادة ابن زيدون يمكن أن يصدر عن رجل لم يستح من ترديد بعض الألفاظ التي يتحرج المحتشمون عن ذكرها ، أما أن يصدر عن أميرة فهذا لا يمكن تصديقه، إذ بلغ هجاؤها من الفحش ما لم يمكن أن يغفره لها أحد.

وإن كنت أرى أن السبب وراء هذا الهجاء بهذه الألفاظ الموجعة إنما يرجع إلى أنه لا شك أن ولادة وابن زيدون قد تقابلا بعد شيوع " الرسالة الهزلية " التي أذيعت في المجتمع القرطبي ، ولا شك في أنهما تعاتبا عتاباً شديداً مريراً دفعهما في النهاية إلى ثورة من ثورات الغضب الجنونية ، مما دفع ابن زيدون إلى ضربها، وندم بعد ذلك علي ما صدر منه ندماً كبيراً عبر عنه في قصيدة اعتذار لها قال :

١- إن تكن نالتك بالضرب يدي وأصابتك بمـــــــــــــا لم أرد

٢- فقد كنت – لعمري – فاديـــاً لك بالمال ، وبعض الولد

٣- فثقي مني بعهد ثـــــــــــــابت وضمير خـــــالص المعتقد

---

[١]) محمد شاكر الكتبي : فوات الوفيات والذيل عليها : تحقيق د. احسان عباس ، طبعه دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ج٤ ، ص ٢٥٣

[٢]) السابق نفسه : ج٤ ، ص ٢٥٣

[٣]) المقري : النفح ، ج٥ ، ص ٢٣٧

[٤]) محمد شاكر الكتبي : الوفيات والذيل عليها ، ج٤ ، ص٢٥٣ ، وعن الحسن بن سهل وابنته بوران التي تزوجت الخليفة العباسي المأمون عام (٨٣٥هـ) ، انظر : مانويلا مارين ، مبوران البورانية " محلة القنطرة ، العدد الثاني ، ١٩٨١ . ص ١٩٣-٢٠٧

[٥]) هذا البيت قاله ابو نواس في الخصيب والي مصر ، وليس لو لادة ، وهي تستشهد به في موقف بعينه .

٤-ولئن ساءك يوم فاعلـــــــــــمي أن سيتلوه ســــــــــــرور بغد [١]

ربما من هذا الموقف اندفعت ولادة وراء ثورتها وغضبها ، وراحت تهجو ابن زيدون بعد أن قطعت حبال الود بينها وبينه ،وأوصدت دونه قلبها وقصرها ولم تفلح اعتذارات ابن زيدون وتوسلاته في أن تثنيها عما أرادت ، فظل الشاعر المحب يهيم بحبها وينشدها أرق الشعر وأعذبه سواء أكان حراً طليقاً أو سجيناً أو منفياً مغترباً ، وهو الذي قد عادى الأقوياء من الحكام بسببها أمثال الوزير " ابن عبدوس " وابن القلاس ، وبني جهور ، وعاش غريباً صداحاً حتى لقي ربه.

وهناك من المؤرخين من يرى أن علاقة ابن زيدون وولادة كانت سبباً مباشراً وقوياً في إدخاله السجن ، كما اتهموه بعدم الإخلاص لبني جهور ...

والظاهر أن ابن زيدون كان يحيا حياة مضطربة تثير حوله الشبهات ، فهو من جهة قد هام بحب ولادة بنت الخليفة المستكفي ، وكانت قد ظهرت في مجتمع قرطبة ببهوها الأدبي الذي يزينه جمالها ، وشعرها الرائق ، وأحدث هيامه بها وشعره المتيم فيها حول سيرته الوزارية نوعاً من الفضيحة الغرامية، ومن جهة أخرى فإنه سيبدو أن خصومه في الحكومة وفي المجتمع قد استطاعوا أن يصوروه لدى بني جهور بأنه ناقص الولاء يجيش بمشاريع لا تتفق مع أهدافهم ، هذا ما ذكره د.عنان في معرض حديثه عن ابن زيدون ". [٢] .

والذي ارجحه أن علاقة ابن زيدون بولادة لم تكن السبب المباشر والقوي في ادخاله السجن ، أو في محنته ذلك أن مثل هذه العلاقة لم تكن عملاً شاذاً ، أو غريباً في تلك البيئة ، وفي تلك الفترة ، كما أنها لم تتطور لتورط صاحبها في فضيحة غرامية كما يرى د.عنان ذلك لأن مجلس ولادة والتعلق بها ارتبط به عدد غير قليل من كبار الشخصيات الأدبية والسياسية في قرطبة، ولم يحدث لهم مثلما حدث لابن زيدون ، ولو أن هذه العلاقة كانت سبباً مباشراً في محنته لتغيرت علاقة ابن زيدون بها ، ولرأينا شعره فيها بعد المحنة يختلف اختلافاً واضحاً مما قبلها و فضلاً عن أن هذه العلاقة ربما كانت تفتر , أو تخبو ، ولكن شعره في ولادة بعد المحنة ، وجدناه لا يقل صدقاً وإخلاصاً وارتباطاً بهذا الحب عما كان عليه قبل المحنة وإن لم يزد والدليل على هذا نونيته الشهيرة ، والتي أرسلها إليها بعد أن فر من السجن بمساعدة صديقه ولى العهد " أبي الوليد بن جهور "، والتي قال فيها:

١- لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيـــــــــــــــا ولم نتقلد غيره دينـــــا
٢- والله ما طلبت أرواحنـــــــا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانيا [٣]

---

[١]) ديوان ابن زيدون : تحقيق علي عبد العظيم ، ص٢٨
[٢]) د. محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، طبعه الخانجي بالقاهرة ، ط ، الثانية ، ص ٢٥
[٣]) ابن زيدون : الديوان ، ص ١٤١ -١٤٨

فمما لاشك فيه أن حب ولادة ظل ملازماً لابن زيدون حتى آخر لحظة من حياته وقد أثّر فيه تأثيراً واضحاً ، حيث فجّر ينابيع عبقريته تفجيراً صاخباً ، استفاد منه تراثنا الفني ، بما صاغه من روائع شعرية ، ونثرية ، فما من قصيدة في ديوانه إلا ونجد فيها أثراً لولادة ، فقد كتب المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال Levi-Provencal يقول : " ابن زيدون هو المتغني بالحب الذي لا يبارى ، وأن اتصاله بولادة أوحي إليه قصائد رائعة تتميز بخلوها من البريق المتكلف ، ونتوء معانيها . وعذوبة موسيقاها ". [١]

ويؤيد هذا الرأى المستشرق الاسباني الكبير E.G. Gomez وهو من الذين أفردوا لابن زيدون العديد من الدراسات والأبحاث ، وترجم للإسبانية بعضاً من قصائده ، وبعض ما وصلنا من شعره في ولادة أذ يقول : " عرف الشعر العربي اتجاهاً كلاسكياً جديداً على يد شاعرين من أعظم شعراء العربية هما المتنبي وابن زيدون ". [٢]

كذلك لم يكن مغالياً المستشرق الكبير «[Nuk* عندما قال: « لولا تأثير ولادة في حياة ابن زيدون لفقد الشعر العربي أنفس جواهره ".[٣]

ويبقى بعد ذلك معلومات قليلة عن ولادة فوفقاً لرواية ابن بشكوال [٤] توفيت يوم قتل الفتح أبى نصر بن المعتمد ، وهو يدافع عن قرطبة ضد المرابطي يوم الأربعاء لليلتين خلتا من صفر سنة ٤٨٤ ه/ ٢٦ من مارس ١٠٩١م، أي بعد أبيها بما يقارب السبعين عاماً، إذ أن المستكفي مات سنة ٤١٦ه ، فتكون قد عاشت ما يناهز التسعين عاماً لأنها كانت شاعرة أديبة على عهد أبيها ، أي في ريعان الشباب . ولم تتزوج ولادة ، وربما يرجع ذلك إلى الشائعات التي ولدت لديها عدم الاهتمام بالرأى الآخر، وقد ظلت على علاقتها بابن عبدوس، وإلى هذا أشار ابن بسام يقول: " أن كليهما قد عاش لسنوات طويلة أكثر من ثمانين عاماً ، وقد حافظ ابن عبدوس على صداقته للأميرة الذي أخذ وضعها في التقهقر مع مرور الأعوام ، وأصبح ابن عبدوس متكفلاً بها قدر إمكانياته التي توصف على أنها قليلة ". [٥] .

ومهما يكن من أمر فقد أنجبت قرطبة في القرن الخامس الهجرى شاعرة أديبة تناولها العديد من المؤرخين ، وإن بخلوا علينا بالنصوص الكافية التي تساعدنا على إصدار أحكام على شعرها ، بحيث يكون الحكم أقرب إلى العدل ، وأدني إلى النصفة .

ابن زيدون وولادة :

شغف ابن زيدون بولادة ملبياً بذلك دواعي قلبه ، فمن هي هذه المرأة وما هي أطوار هذا الحب الذي فتن قلب الشاعر العربي وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولادة هذه هي بنت المستكفي بالله الخلفية الذي جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس ، وقد كانت يبعته سنة ٤١٤ه ، ولم يدم حكمه إلا سنتين في فترة مضطربة. وكان ماجناً

---

[١]) ليفي بروفنسال ، الحارة العربية في اسبانيا ، ص ٣٥ La clvllzacion de arabes en Espana " E . levl provencal

[٢]) اميليو غرثيا : اشعار عربية اندلسية ، ص١١، الطبعه الرابعه ، مدريد

[٣]) كارلوس كيروس رودرينيت : شعراء عرب واسبان ، مدريد

[٤]) النفح : ج٥ ص ٢٨٣-٢٣٩

[٥]) ابن بسام الذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص٣٧٩

كما يحدثنا عنه ابن بسام فيقول : " لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص " [١] وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة ولادتها ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقري وفاتها كانت سنة ٤٨٠ او سنة ٤٨٤ ه [٢] وقالوا أنها عمرت طويلاً ، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالي ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاتها والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام ، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتثقيفها فأحضر لها المعلمين والمؤدبين.

ولم تلبث أن تفتحت مواهبها .وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٤١٦ه) حتي تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة . وقد خصها المقري بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها . وأورد لها شيئاً من الشعر . وقال ابن بسام في ذخيرته [٣] أنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتّاب علي حلاوة عشرتها ، وكان مجلسها في قرطبة منتدي لأحوار المصر ، ولعله لم يبتذل حجابها إلا بعد وفاة أبيها ، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول : " ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف ". [٤] وإذا صح ما روي عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأنس فإن الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة العربية في الأندلس تفوق ما ألفه المشرق ، وقد ذكر ابن بسام في ذخيرته أن ولادة علي علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها أطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذلتها، فكتبت فيما زعموا على أحد عاتقي ثوبها مطرزاً بالذهب :

أنـــــــا والله أصلح للمعـــــــــــالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت علي الآخر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها [٥]

وهكذا كان لها أن تعبث ، وكان لها جمالها وشعرها تغنيه ويغني لها في مجلسها الأدبي الذي كان يضطرم فيه الهوى والقن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة في الحرية والجرأة في التعبير عن عواطف الحب أو اللهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج ، من أشراف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثنائِي علي تلك الثنايا لأَنَّني أقولُ علي عِلْم وأنطِق عن خُبر

وأُنصفـــــــها لا أَكذِبُ الله إنَّني رشفت بها ريقاً أرقَّ من الخمـــــر [٦]

وهكذا نري أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كنت مولعة بالحب مستلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أولع بها ابن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره .

---

[١]) الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ص ٣٨٧

[٢]) المقري ج ٢ ص١٠٩٨

[٣]) القسم الاول ، المجلد الاول ص ٣٧٩-٣٨٧

[٤]) سرح العيون ص٧.

[٥]) الذخيرة ص ٣٧٦

[٦]) المقري ١٠٩٧/٣

لا شك في أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداها الأدبي ، وهو في ميعة الشباب ، وفي هذا المنتدي تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع في أشراك حبها. علي أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول والذي تطارحا فيه الغرام. وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا علي لسان ابن زيدون:

قال أبو الوليد كنت في أيام الشباب وغرة التصابي هائماً بغادة تسمي ولادة فلما قدم اللقاء وساعد القضاء كتبت إليَّ :

ترقب إذا جن الظلام زيـــــــــارتي فإني رأيت الليل أكتم للســـــــــــــــر

وبي منك مالو كان بالبدر مابدا وبالشمس لم تطلع وبالبدر لم يسر

وذهب إلى الموعد المضروب ، ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة علي لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التي أحبها ، فتنساب علي شفتيه الأوصاف التقليدية ويقول " فلما طوى النهار كافوره ونشر عنبره [١] ، أقبلت بقد كالقضيب وردف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المقل علي ورد الخجل ، فملنا إلى روض مدبج [٢] وظل سجج [٣] ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، وجيب الراح مزرور ، فلما شبينا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه وشكا إليه بقلبه ، وبتنا بليلة نجني أقحوان الثغور .... " .[٤] هل كان هذا هو اللقاء الأول ، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التي كانا يتبادلانها في مجلسها الأدبي؟ علي أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجري فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط ، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه علي جانب كبير ونري أن هذه الكلمات التي نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصف حار أو صدق عاطفة، بل هي كلمات يطغى عليها فن الكاتب النثري وتأنقه اللفظي الذي يسود أساليب العصر ، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب متهتك. ويضيف ابن زيدون بعدما وصف من اللقاء قوله :

" فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً " :

ودع الصبرَ محبٌّ وَدَّعَـــك ذائعٌ من سِرِّه ما اسـتّوْدَعَكْ

يقرعُ السِّنَّ على أنْ لم يكن زادَ في تلك الخُطَا إذْ شيَّعَكْ

يا أخا البدرِ سَنـَـــــاء وسَنى حفظ اللهُ زَمَانَـــــــــــــاً اطْلَعَكْ

إنْ يَطُلْ بعدَك لَيْلي فلكـــــمْ بِتُّ اشكُو قِصَرَ الليل مَعَكْ "

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون ، إلا أن المقري نسبها لولادة ، فقال : " وَوَفت بما وَعدَتْ ، ولما أراد الانصراف ودعته بهذه الابيات ".

ونفضل نحن نسبها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقري ، والديوان الذي بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً.

---

[١]) كافوره : بياضه ، عنبره : شواده ، وهنا استعارتان .

[٢]) مدبج : مزين بالازهار .

[٣]) سجج : الهواه الممتدل اللطيف .

[٤]) الذخيرة ، المجلد ، الاول ص ٣٧٧

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لحبهما وفي خمائلها أخذا يتساقيان كؤرس الهوى ويعبان من شذي النعيم تغمرها ظلال الحب ودفؤه .
علي أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً علي ما يظهر ، ويذكر بعض من أرخ لابن زيدون أن جفوه حصلت بين الشاعر وصاحبته ، فكتبت اليه :

ألا هل لنـــــــا من بعد هذا التفرق سبيل فيشـــكو كل صب بمـــا لقى
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا أبيت علي جمر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في حال قطعة لقد عجل المقـــــدور ما كنت أتقي
تمر الليالي لا أري البين ينقضـي ولا الصبر من رق التشـوق معتقي
سقي الله أرضاً قد غدت لك منزلا بكل سكوب هاطل الوبـــــل مغدق

فأجابها بقوله :

لحا الله يوماً لست فيـــــه بملتق محياك من أجل النوى والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة؟ وأي ســــــــرور للكئيب المؤرق [1]

ذكرى وحنين : " قصيدة أضحى التنائي "

١. **أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينـــــا وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا**
٢. **أَلّا وَقَـد حـانَ صُـبحُ البَـينِ صَـبَّحَنا حَـينٌ فَقـامَ بِنـا لِلحَـينِ ناعينـــــــــــا**
٣. **مَن مُبلِغُ المُلبِسينا بِانتِزاحِـــــــــــــــهِمُ حُزنـاً مَعَ الدَهرِ لا يَبلى وَيُبلينا**
٤. **أَنَّ الزَمانَ الَّذي مازالَ يُضحِكُنـــا أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينـــــــــــا**
٥. **غيظَ العِدا مِن تَساقينا الهَوى فَدَعَوا بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينـــــا**
٦. **فَانحَلَّ ما كانَ مَعقوداً بِأَنفُسِنـــا وَانبَتَّ ما كانَ مَوصولاً بِأَيدينـا**
٧. **وَقَد نَكونُ وَما يُخشى تَفَرُّقُنـــــــا فَاليَومَ نَحنُ وَما يُرجى تَلاقينـــا**
٨. **يا لَيتَ شِعري وَلَم نُعتِب أَعادِيَكُم هَل نالَ حَظّاً مِنَ العُتبى أَعادينـا**

---

[1]) النفح ١٠٩٨/٣

٩. لَـــم نَعتَقِـــد بَعـــدَكُم إِلّا الوَفـــاءَ لَكُـــم رَأيـــاً وَلَـــم نَتَقَلَّـــد غَيـــرَهُ دينـــــــــــــــــــــــــا

١٠. ما حَقَّنا أَن تُقِرّوا عَينَ ذي حَسَدٍ بِنا وَلا أَن تَسُرّوا كاشِحاً فينـــــــــا

١١. كُنّا نَرى اليَأسَ تُسلينا عَوارِضُهُ وَقَد يَئِسنا فَما لِليَأسِ يُغرينـــــــــــــــا

١٢. بِنـــتُم وَبِنّـــا فَمـــا اِبتَلَّـــت جَوانِحُنـــا شَـــوقاً إِلَـــيكُم وَلا جَفَّـــت مَآقينـــــــــا

١٣. نَكادُ حينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا يَقضي عَلَينا الأَسى لَولا تَأَسّينـــا

١٤. حالَت لِفَقدِكُمُ أَيّامُنا فَغَدَت سوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَيالينـــــــــا

١٥. إِذ جانِبُ العَيشِ طَلقٌ مِن تَأَلُّفِنا وَمَربَعُ اللَهوِ صافٍ مِن تَصافينا

١٦. وَإِذ هَصَرنا فُنونَ الوَصلِ دانِيَةً قِطافُها فَجَنَينا مِنهُ ما شينا

١٧. لِيُســـقَ عَهـــدُكُمُ عَهـــدُ السُـــرورِ فَمـــا كُنـــتُم لِأَرواحِنـــا إِلّا رَياحينـــــــــا

١٨. لا تَحسَبوا نَأيَكُم عَنّا يُغَيِّرُنا أَن طالَما غَيَّرَ النَأيُ المُحِبّينـــا

١٩. وَاللَهِ ما طَلَبَت أَهواؤُنا بَدَلاً مِنكُم وَلا اِنصَرَفَت عَنكُم أَمانينا

٢٠. ياسارِيَ البَرقِ غادِ القَصرَ وَاِسقِ بِهِ مَن كانَ صِرفَ الهَوى وَالوُدُّ يَسقينا

٢١. وَاِسأَل هُنالِكَ هَل عَنّى تَذَكُّرُنا إِلفاً تَذَكُّرُهُ أَمسى يُعَنّينـــــــــــــــا

٢٢. وَيا نَسيمَ الصَبا بَلِّغ تَحِيَّتَنا مَن لَو عَلى البُعدِ حَيّا كانَ يُحَيّينا

٢٣. فَهَل أَرى الدَهرَ يَقضينا مُساعَفَةً مِنهُ وَإِن لَم يَكُن غِبّاً تَقاضينا

٢٤. رَبيبُ مُلكٍ كَأَنَّ اللَهَ أَنشَأَهُ مِسكاً وَقَدَّرَ إِنشاءَ الوَرى طينا

٢٥. أَو صاغَهُ وَرِقاً مَحضاً وَتَوَّجَهُ مِن ناصِعِ التِبرِ إِبداعاً وَتَحسينا

٢٦. إِذا تَأَوَّدَ آدَتهُ رَفاهِيَةً تومُ العُقودِ وَأَدمَتهُ البُرى لينا

٢٧. كانَت لَهُ الشَمسُ ظِئراً في أَكِلَّتِه بَل ما تَجَلّى لَها إِلّا أَحايينا

٢٨. كَأَنَّما أُثبِتَت في صَحنِ وَجنَتِه زُهرُ الكَواكِبِ تَعويذاً وَتَزيينا

٢٩. ما ضَرَّ أَن لَم نَكُن أَكفاءَهُ شَرَفاً وَفي المَوَدَّةِ كافٍ مِن تَكافينا

٣٠. يا رَوضَةً طالَما أَجنَت لَواحِظَنا وَرداً جَلاهُ الصِبا غَضّاً وَنَسرينا

٣١. وَيا حَياةً تَمَلَّينا بِزَهرَتِها مُنىً ضُروباً وَلَذّاتٍ أَفانينا

٣٢. وَيا نَعيماً خَطَرنا مِن غَضارَتِهِ في وَشيِ نُعمى سَحَبنا ذَيلَهُ حينا

٣٣. لَسنا نُسَمّيكِ إِجلالاً وَتَكرِمَةً وَقَدرُكِ المُعتَلي عَن ذاكَ يُغنينا

٣٤. إِذا اِنفَرَدتِ وَما شورِكتِ في صِفَةٍ فَحَسبُنا الوَصفُ إيضاحاً وَتَبيينا

٣٥. يا جَنَّةَ الخُلدِ أُبدِلنا بِسِدرَتِها وَالكَوثَرِ العَذبِ زَقّوماً وَغِسلينا

٣٦. كَأَنَّنا لَم نَبِت وَالوَصلُ ثالِثُنا وَالسَعدُ قَد غَضَّ مِن أَجفانِ واشينا
٣٧. إِن كانَ قَد عَزَّ في الدُنيا اللِقاءُ بِكُم في مَوقِفِ الحَشرِ نَلقاكُم وَتَلقونا
٣٨. سِرّانِ في خاطِرِ الظَلماءِ يَكتُمُنا حَتّى يَكادَ لِسانُ الصُبحِ يُفشينا
٣٩. لا غَروَ في أَن ذَكَرنا الحُزنَ حينَ نَهَت عَنهُ النُهى وَتَرَكنا الصَبرَ ناسينا
٤٠. إِنّا قَرَأنا الأَسى يَومَ النَوى سُوَراً مَكتوبَةً وَأَخَذنا الصَبرَ تَلقينا
٤١. أَمّا هَواكِ فَلَم نَعدِل بِمَنهَلِه شُرَباً وَإِن كانَ يُروينا فَيُظمينا
٤٢. لَم نَجفُ أُفقَ جَمالٍ أَنتِ كَوكَبُهُ سالينَ عَنهُ وَلَم نَهجُرهُ قالينا
٤٣. وَلا اِختِياراً تَجَنَّباهُ عَن كَثَبٍ لَكِن عَدَتنا عَلى كُرهٍ عَوادينا
٤٤. نَأسى عَلَيكِ إِذا حُثَّت مُشَعشَعَةً فينا الشَمولُ وَغَنّانا مُغَنّينا
٤٥. لا أَكؤُسُ الراحِ تُبدي مِن شَمائِلِنا سِيَما اِرتِياحٍ وَلا الأَوتارُ تُلهينا
٤٦. دومي عَلى العَهدِ ما دُمنا مُحافِظَةً فَالحُرُّ مَن دانَ إِنصافاً كَما دينا
٤٧. فَما اِستَعَضنا خَليلاً مِنكِ يَحبِسُنا وَلا اِستَفَدنا حَبيباً عَنكِ يَثنينا
٤٨. وَلَو صَبا نَحوَنا مِن عُلوِ مَطلَعِهِ بَدرُ الدُجى لَم يَكُن حاشاكِ يُصبينا
٤٩. أَبكي وَفاءً وَإِن لَم تَبذُلي صِلَةً فَالطَيّفُ يُقنِعُنا وَالذِكرُ يَكفينا
٥٠. وَفي الجَوابِ مَتاعٌ إِن شَفَعتِ بِهِ بيضَ الأَيادي الَّتي ما زِلتِ تولينا
٥١. عَلَيكِ مِنّا سَلامُ اللهِ ما بَقِيَت صَبابَةٌ بِكِ نُخفيها فَتَخفينا

تحليل النص : -
تُعد نونية ابن زيدون من القصائد الشهيرة له والتى أرسلها إلى ولادة بعد خروجه من السجن ويُقال أنه بعث بها إليها من أشبيلية , وبالنظر إلى معانى القصيدة وجدنا أنها تدور حول إثبات الشاعر لحبه وإخلاصه لولادة فلا ينتظر منها سوى أن ترق وتلين وتعطف عليه فليس لها إلا أن ترق له وتعود إلى أيام الحب الأول حيث أنها استمعت لكلام الحساد والوشاه فى حين أن ابن زيدون لم يرتكب فى حقها ما يسمح لها بهذه القطيعة فهو مازال يذكرها لأنه فى حنين دائم إليها , فالأبيات تمثل لنا حرقة الشاعر وانكساره ورجاءه فى حب جديد يجنى فيه سعادة النعيم الآفل .
* لاشك أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجادة وعبرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها , فعارضها صفى الدين الحُلى ثم الصفدى وأخيراً شوقى فى قصيدته التى يحن فيها إلى وطنه .
يا نائـح الطلحِ أشباهٌ عوادينا نشْجى لواديك أم نأسى لوادينا
← أقسام القصيدة :-
١_تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية واحدة لا يخرج منها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم ولكننا يمكننا أن نتبين بعض الفواصل ، ففى الأبيات الأولى :
" أضحى التنائى بديلاً.... " ... حتى نصل إلى قوله " والله ما طلبت أهواءنا بدلاً منكم"

فى هذه الأبيات يصف الشاعر حاضره وأيضاً ماضيه ويتخلل هذه الأبيات أبيات تؤكد الوفاء العظيم والتجلد على الواقع الأليم .
٢_ نجد الشاعر فى معظم الأبيات يناجى الطبيعة وإشراكها فى إحساسه ونجد ذلك متمثلاً فى قوله :
" يا سارى البرق غاد القصر واسقِ به .....
" ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا .....
" يا روضة طالما أجنت لواحظنا .....
" يا جنة الخلد أُبدلنا بسدرتها .....
فنراه فى هذه الأبيات يناشد البرق الذى يمر على سكن الحبيبة وينادى نسيم الصبا ثم يصفها بالروضة الغناء ثم بجنة الخلد , وفى قول الشاعر " يا جنة الخلد .... بسدرتها " نجده متأثر بالقرآن الكريم فى قوله تعالى " عند سدرة المنتهى " وهى شجرة نبق كثيرة الظل (السدرة) , وأيضاً فى قوله : "الكوثر العذب" , وهو اسم نهر من أنهار الجنة , أما الزقوم والغسلين الذى ذكرهما الشاعر فهما طعام أهل النار وهنا نلحظ فى هذا البيت لمحة قرآنية فى قوله (الكوثر العذب) (زقوم وغسلين) (سدرة) .
٣_يعود الشاعر مرة آخري إلى المناجاة من قوله :
يا جنة الخلد (حتى) قوله : عليك منى سلام الله ....

فهنا يعقد مقارنة ما بين الحاضر والماضى مؤكداً على أنه مازال على وفائه لها ثم تنتهى الأبيات بالإستعطاف والإستسلام فى هدوء الليل .
← افتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد وقذف بنا فى جو آلامه بوثبة وقفزة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه فلقد أصبح قربه بعداً وفى قوله (التنائى – التدانى) طباق , وكان الهجر والموت سواء فى نظره ويود أن يقول للذى ألبسه ثوباً من الحزن الراكد بسبب بعده عن حبيبته يود أن يبلغه أن ضحكه تحول إلى بكاء وفى قوله : " يضحكنا ويبكينا) طباق , ويريد هنا أن يقول لنا أن الدهر قد استجاب لدعوة الأعداء وحقق لهم ما أرادوا بسبب القطيعة والفتنة بين الحبيبين فلم يعودا يرجوان التلاقى بعد أن كانا لا يخشيان الفراق .
وهذه الأبيات الأولى فى القصيدة من أكثر الأبيات التى اشتملت على فنون من البيان والبديع كما أنها لم تأت متكلفة بل جاءت لتأكيد المعنى وإعطاءه نوعاً من التجسيد مثلما فى قوله : (أن الزمان الذى مازال ...) وأيضاً الطباق فى (يضحكنا ويبكينا) .
٤_ثم ينتقل الشاعر فى الأبيات التى تليها ليعرض لنا ما يكنه من وفاء لولادة ويبثها آلامه ولوعته ويوضح لنا فى صورة جميلة أن الحزن لولا تأسيه (صبره) لكان يقضى عليه , وفى قوله : " يكاد يحيينا – الأسى- "
ثم يعود مرة أخرى إلى وصف أيام الهنا والأنس ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً فى ذلك بالصناعات اللفظية التى يُمليها عليها الفن قدر ما يمليها القلب , فأيامه الحاضرة أصبحت (سوداً) بينما كانت معها (بيض) .
ونلمحُ من خلال الأبيات أن هذه الحسرة لم تجعله ساخطاً عليها بل نراه يؤكدُ فى ذلٍ وانكسار أن البعد والنأى لن يغيره مهما طالت الأيام بل إنه مازال باقياً على العهد ولم ينسى ذلك العهد الرطب مهما تغير المحبين وخبت (تلاشت) جزور الحب فى قلوبهم , فما كانت بالنسبة له إلا بمثابة الرياحين للأرواح بل ومازالت وستظل تلك الريحانة التى يحن إليها مهما باعدت الأيام بينهما .
ثم انتقل مرة اخرى إلى مناجاة الطبيعة ويطلب منها أن تشاركه فى إحساسه فيخاطب (سارى البرق) أن يُباكِر قصرها فتجود بالغيث اعترافاً منها على ما أعطاه من حب ومودة كما يحمل نسيم الصبا تحيته لتلك الحبيبة التى يحييه سلامها عليه ويذكر لنا فى خلال ذلك صورة جميلة لماضى قد رحل وعهد قد ولى .
ثم نراه فى غمرة هذا الوصف لما فى جوانحه يتلهف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب الجنة التى أُبعد عنها ويحن إلى ذلك الكوثر العذب الذى أُبدل به ماءً آجناً وغسلينا , وتأتى خاتمة الأبيات فى القصيدة ويبدو أن الشاعر يلهث . إلا أنها جاءت خاتمة منطقية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام , وفيها يؤكد الشاعر على الوفاء فهو يطلب منها أن تدوم على العهد المبرم بينهما كما يطلب ذلك من نفسه بل لعله لا يستطيع التخلى عن هذا الوفاء وهذا الحب لأنه سبب من أسباب بقاؤه .

" الموشحات الأندلسية "

الموشحات الاندلسية
تعريف بالموشح :

الموشح فن من فنون الشعر العربي السبعة وهي كما أوردها الأبشيهى في المستطرف: " الشعر القريض ، والموشح ، والدوبيت ، والزَجل ، والمواليا ، والكان كان ، والقوما".([1])
وكلمة موشح اشتقت على الأرجح من لفظة الوشاح ومعناها حلى النساء" جاء في " لسان العرب" مادة " وشح " : الوشاح: كله حلي النساء، كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر ...".
وفي الاصطلاح تفيد كلمة موشح: قصيدة أو قطعة شعرية موضوعة للغناء فالموشح، يتنوع أوزانه وقوافيه ، أقرب إلى قطعة موسيقية منه إلى قصيدة شعرية.[2]
وقد كان للغناء الأثر الأبرز في تطور فن الموشحات وازدهار ، لأن الأندلس يومذاك ، كانت عرفت انتشار مجالس اللهو والطرب في قصور الأمراء وعلية القوم، وفي الجنائن، وعلى ضفاف الأنهر . كما عرفت ازدهار للغناء , لا سيما بعد حلول المغني العربي الشهير زرياب في رحابها , فرفع من شأن الغناء ,"وأولارث , علي قول ابن خلدون بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف , وطما منها بإشبيلية بحر زاخر "[3]
ويظهر تأثير الغناء جلياً في الموشحات التي خرجت عن بحور الشعر التقليدية، واستقلت بأوزانها الجديدة لأن الوشاح كان في كثير من الأحيان، يضع اللحن أولاً، ثم يعمد إلى نظام الكلام عليه ، يقول ابن سناء الملك : " والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين: قسم يستقل به التلحين ولا يمشي إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمغني ...."[4]
وهكذا جاءت لغة الموشحات موافقة للغناء لما فيها من السهولة واللين والتزيين، ولاعتمادها أحب الألفاظ سماعاً، وأبلغها في النفوس وقعاً، وهي ألفاظ الحب والطبيعة، والخمرة والطبيعة، كذلك أنس المغني والسامع بمعانيها الخفيفة المألوفة والتي تبلغ إلى النفس دون أن تجهد الفكر، أو يتحكم بها المنطق، إلا أن هذه اللغة في لينها وضعفها قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة فكانت الموشحات قفزة من القفزات التي أدت إلى ظهور الزجل أي "الشعر العامي" [5]

نشأة الموشح :

مهما قيل في نشأة الموشح واختلف الدراسون والمستشرقون حولها , فردت بعضهم إلى أصول عربية مشرقية , والآخر إلى تأثيرات أجنبية فرنسية وإسبانية أو إلى تسبيحات يهودية [6]، فالموشح

---

[1])المستطرف ٢: ٢٦٧.
[2])الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه , الدكتور مصطفي عكاشة , دار العلم للملايين , ط٥,١٩٨٣.
[3])جاء في * نفح الطيب" لاحمد المقري (ج٣:١٣٠):"اول من دخل الاندلس من المغنين علون وزرقون , دخلا في ايام الحكم بن هاشم فنفقا عيله وكانا محسنين –لكن غناءها ذهب لغلبة غباء زرياب عليه ".
[4])دار الطراز :٨٣.
[5])في الادب الاندلسي , دكتور جودت الركابي , دار المعارف بمصر , ١٩٦٦,ص٣٠٦
[6])راجع في هذا الموضوع :
- اثر الاندلس علي اوروبا في مجال النظم والايقاع , الدكنور عباس الجرادي (عالم الفكر , ابريل , مايو , يونيو ١٩٨١, المجلد الثاني عشر ,,١ص٣٣-٣٥) . – تاريخ الادب العربي , الدكتور عمر فروخ , دار العلم للملايين , بيروت ,١٩٨١.ص٤٢٢-٤٢٦.

فن تفرد به عرب الأندلس وامتازوا به علي عرب الشرق وتوسعوا في فنونة وأكثروا من أنواعه [١]

يقول ابن خلدون :" وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذيب مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح ".
وأول من ابتدع هذا الفن الذي نشأ في أواخر القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) , محمد محمود القبري . كما يقول ابن بسام في الذخيرة [٢] أو مقدم بن معافي القبري , وفق ما يذكر ابن خلدون في المقدمة[٣] ، أما شاكر الكتبي مؤلف " فوات الوفيات" فيعتبر أن ابن عبد ربه هو أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات , غير أن المصادر لم تورد أيه موشحات من تلك التي نظمها القبري محمد أو القبري مقدم , أو من تلك التي نظمها ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد , الأمر الذي يرجح قول القائل أن الواضع الفعلي لفن الموشحات هو عبادة بن ماء السماء , الذي يقول فيه ابن بسام: [٤]
" كان أبو بكر في ذلك العصر , شيخ الصناعة , وإمام الجماعة , سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً , وكانت صنعه التوشيح التي نهج الأندلس طريقها ووصفوا حقيقتها , غير مرقومة البرود , ولا منظومة العقود , فأقام عبادة هذا منآدها , وقوم ميلها وسنادها , فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه , واشتهر بها اشتهاراً غلب علي ذاته وذهب بكثير من حسناته ".

وما كاد القرن الرابع الهجري (رالقرن العاشر الميلادي) ينقضي , حتي أصبح فن الموشح من الفنون الذائعة الرائعة في دنيا الأدب الأندلسي [٥] ، ولمعت أسماء لوشاحين كبار في المغرب , وفي المشرق فيما بعد وأولهم ابن سناء الملك حامل راية هذه الصناعة والناس عليه فيها عيال .[٦]

تركيب الموشح :
عرف ابن سناء الملك الموشح فقال : "الموشح كلام منظوم علي وزن مخصوص , وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام , وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع , فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدي فيه بالأبيات " [٧]
هذا يعني أن بناء الموشح له شكل خاص متفق عليه ، ويتركب من أجزاء اصطلح الدراسون عليها وعلي تحديدها وتسميتها وهي : المطلع أو المذهب ، والدور، والسمط ، والقفل ، والبيت ، والغصن ، والخرجة .

---

[١])توشيع الترشيح :٢٠.
[٢])الذخيرة ٢:١
[٣]) المقدمة:٥٨٤.
[٤])الذخيرة ٢:١/١
[٥]) الادب الاندلسي :عكاشة :ص٣٧٤.
[٦])توشيع التوشيح :٣٢.
[٧]) دار الطراز : ٢٥ .

فلنأخذ موشح ابن زهر " أيها الساقي " مثلاً ونثر عملياً إلى أجزاء الموشح المذكور آنفاً :

أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
وندیم همتُ في غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق إليـــــــــــه واتكا وسقاني أربعـــــــاً في أربع

١- المطلع او المذهب :

وكلاهما اصطلاح يطلق علي مطلع الموشح التام ويتكون عادة من شطرين أو غصنين، كما هو الحال في المثال :

أيها الساقي إليك المشتكي قد دعوناك وإن لم تسمع

وقد يتألف من ثلاثه أجزاء أو أربعة ..... حتي يصل إلى اثني عشر جزءاً. [١]

٢- الدور :

هو مجموعة الأبيات التي تلي المطلع، أو التي يستهل بها الموشح إذا كان أقرع (أي دون مطلع) ويتكون من مجموعة من الأجزاء لا تقل عن ثلاثة ، كما هو الحال في الموشح المثل :

وندیم همتُ في غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

وقد يتكون من أكثر من ثلاثة ، شرط أن يتكرر بالعدد نفسه في بقية الموشح وأن تتكون من وزن المطلع ، ولكن بقافية مختلفة .

٣- السمط :

هو كل شطر من أشطر الدور ، وقد يكون الشطر مفرداً ، كالشطر في مثالنا : " وندیم همت في غرته " أو مركبا من جزئين او ثلاثة او أربعة : مثال علي المركب من جزئين :

دن بالهوى شرعاً ما شعت يا صاح [٢]

وعلي المركب من ثلاثة أجزاء :

---

[١] توشيع التوشيح :٢٤.
[٢] منن موشحة " اد لنا اكواب .. " لابن بقي .

هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا [1]

وعلي المركب من أربعة أجزاء :

يأبى ظبي حمي يكنفه أسد غيل [2]

٤- القفل:

هو ما يلي الدور مباشرة ، وهو شبيه بالمطلع وزناً وقافية وتركيباً ، القفل في الموشح المثل هو:

جذب الزق إليـــــــــــه واتكا وسقاني أربعـــــــاً في أربع

٥- البيت :

يتألف في الموشح من الدور والقفل.

٦- الغصن :

هو كل شطر من أشطر المطلع أو القفل أو الخرجة، وتتساوي الأغصان في الموشح عدداً وتركيباً وقافية.

٧- الخرجة :

هي القفل الأخير في الموشح ، وتكون إما معربة وإما عامية أو أعجمية التي تتردد في بعضها ، لا تعني بالضرورة أن الشاعر يتغزل بعشيق مذكر [3] ، ولعل أجمل ما في الغزل الأندلسي هو هذه النغمة المحزنة التي يبكي فيها الوشاح أيام سعادته بالقرب من الحبيبة ، ويحن إلى أيامه الآفله التي قضي الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم .

وفي طور لاحق اتبع الوشاحون بالغزل والخمرة ووصف الطبيعة، المدح لأن أبهى مجالس الغناء كانت تعقد في قصور الملوك والأمراء والتغني بمناقبهم عدة التكسب للشاعر والمغني معا ، ثم توسعوا في الموشحات إلى سائر الأغراض كالهجاء والرثاء والزهد والتصوف . [4]

إن الموشحات ظاهرة أدبية فريدة قل نظيرها في الأدب العربي وتعود فرادتها إلى أنها جاءت في مبناها ومعناها، كما شاء لها الوشاحون أن تكون تلبية لتطورات العصر العربي الأندلسي ، الاجتماعية منها والثقافية والعمرانية أي أن الموشحات كانت وليدة طبيعية للبيئة الاندلسية ، المكانية والزمانية ، ولعل ذلك كان سبب أهميتها ، وبالتالي سبب بقائها كأبرز ما ابدعه الوجود العربي في الأندلس وربما فاقت ما خلفه العرب هناك من قصور ومبان قيمة وروعة .

---

[1] من موشحة " ما للموله .... " لابن زهر .

[2] من موشحة " بابي ظبي حمي .... " لابن القزاز .

[3] الموشحات الاندلسية ، د. محمد زكاريا عناني ، عالم المعرفه ، بوليو (تموز) ، ١٩٨٠، ص٥٢.

[4] أدباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ، بطرس البستاني ، دار مارون عبود ، ص١٧٢ .

والموشحات هي في الوقت عينه برهان ساطع علي إمكانية تحديث الشعر العربي من غير أن نخرج على أصالته المتمثلة بتركيبه وايقاعه ، فالوشاح الأندلسي عرف كيف يبدع موشحه مستخدماً إما تفعيلة الشعر التقليدية وإما تفعيلة جديدة حسب مقتضيات اللحن ، يتم التناغم بينه وبين الموشحات التي وإن خالف بعضها أوزان العرب أبقت على إيقاع وموسيقى نبعاً من أوزان هي بنت الحياة.

ولا يغرب عن البال اعتماد الأسلوب الأندلسي للتجديد في الأدب العربي من قبل الشعراء، لاسيما شعراء النهضة والأمريكتين ، الذين نظموا موشحات وقصائد شبيهه بها كالتوأم . [1]

* الألفاظ : (في كتابنا لم نورد أية خرجة عامية أو أعجمية) .

أغراض الموشح :

كان من الطبيعة أن تكون موضوعات الموشحات في بدايتها ومعظمها في ما بعد ألصق بالثالوث الذي لا انفصال له عن الوشاح : الغزل والخمرة والطبيعة، وهي الموضوعات التي تدع المشاعر تنطلق علي سجيتها دون تكلف أو تصنع .

يقول الدكتور جودت الركابي: " ويظهر أن الموشحات خلقت لتصف حياة الدعة والأنس والهناء ، ولهذا كلما تعرضت لهذه الأغراض بدا تأثيرها وظهرت جدتها وكانت أعلق بالنفوس ، ولاسيما عندما تتعرض لوصف الطبيعة ، وما أكثر ما تتعرض فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلابلها ، وأزهارها وأشجارها وجداولها وعبيرها ، ويتجلي لنا حب الأندلسي لوطنه ، واختلاط الطبيعه بروحه ، وكيف أنها ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ومبعث السلوان والحنين " . ([2])

ومما لا شك فيه أن الغزل يحتل مركز الصدارة في الموشحات ، لأن الوشاح إذا شرب الخمرة فمع الحبيبة وإذا وصف الطبيعة فالمرأة صورتها.

قال المقري عن شعراء الأندلس : " إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ، ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً . ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ، ومن قلوب اللوز وسر التفاح مباس ، ومن ابنه العنب رضاباً " . إلى ذلك نجد عند الوشاحين نوعين من الحب :

الحب العذري المعذب ، والحب الماجن ، وقلما عرفت الموشحات غزلاً خاصاً بالمذكر لأن صيغة التذكر .

يقول شفيق المعلوف ([3]) : لم نخل الآداب العربية من مخرج يبلغ منه المجددون غايتهم فلدينا الأسلوب الأندلسي ، وإذا كان شعراؤه ومن جاء بعدهم لم ينظموا به الملاحم ، فقد تنبهت إلى ذلك فئه في هذا العصر ، منها العلامه المرحوم سليمان البستاني معرب الالياذة، وما كانت الالياذة لتنقل شعراً إلى اللغة العربية لو لم تقسم أناشيدها إلى موشحات وقصائد متنوعه البحور والروي " كذلك لا يخفي أثرها علي الأغنية العربية ، إذ أن الموشحات لا تزال حتي اليوم " تشق علي سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب ".

---

[1]) راجع " موشحات لشعرء معاصرين " في اخر الكتاب .

[3]

يقول غرسية غومس وهو على حق فيما قال:
قدمت إسبانيا للإسلام الموشحات والأزجال، وقدم الإسلام للأندلس الشعر القديم الذي نشأ في الصحراء ، ويصور لنا هذه الحقيقة الأخيرة ما تذكره المراجع العربية من أن عبدالرحمن بن معاوية الأندلسي عندما دخل الأندلس قادما من الشام نظر إلى نخلة مفردة في " منية الرصافة " بقرطبة وقال:

يا نخل أنت غريبة مثلي في الغرب نائية عن الأهل

ولم يكن الأمير ونخلته فحسب هما الغريبين عن الأندلس ، بل كان الشعر الذي خاطب به النخلة غريباً أيضاً.[1]

فالموشحات فن أندلسي أصيل، أغرى كثيراً من النقاد والدارسين ببحثه، وعلى الرغم من ذلك – لا يزال المجال فسيحاً لمزيد من الدراسات وسنحاول أن نتحدث عن :

ما تمتاز به الموشحات مضموناً وشكلاً:

تناولت الموشحات جميع أغراض الشعر : الغزل ووصف الخمر والطبيعة والمديح والرثاء والزهد والتصوف وإن كان الفن الجوهري الذي يكاد يستقل بها هو الغزل أولا ثم الخمر ثانياً، مع امتزاج كل منهما بالطبيعة يستمدان منها الصور والأخيلة، والمعاني أيضاً.[2]

هذا من حيث المضمون أما من حيث الشكل فالموشح تجديد وتطوير للأوزان والقوافي يقوم على الالتزام أكثر من قيامه على التحلل والانطلاق والخروج على الأوزان التقليدية.

ولبيان ذلك، ولتصور الأحكام والسمات التي تمتاز به الموشحات نعرض لموشحات ابن زمرك الغرناطي :

<u>* يسل من لحظه سيوفا *</u>

باللهِ يا قامَةَ القَضِيبِ

ومُخْجلَ الشَمْسِ والقَمَرْ

مَنْ مَلَّكَ الحُسْنَ في القلوبِ

وأَيَّدَ اللَّحْظَ بالحَوَرْ

مَنْ لَمْ يَكُنْ طَبْعُهُ رقيقَا

لم يَدْرِ ما لَذَّةُ الصِبّا

[1] (الشعر الاندلسي – لغرسية غومس – ص٧

[2] (الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه ص ٥-٤: ٤٤٣

فرب حُرٍّ غدا رقيا

تملكُهُ نفحَةُ الصَّبا

نَشْوانَ لم يشربِ الرحيقَا

لكنْ إِلَى الحُسْنِ قد صَبَا

فَعَذَّبَ القَلْبَ بالوَجيبِ

وَنَعَّمَ العَيْنَ بالنَظَرْ

وَبَاتَ والدمعُ في صَبيبِ

يقدحُ من قَلْبِه الشَرَرْ

عجبْتُ من قلْبيَ المُعَنَّى

يَهْفُوّ إِذَا هَبَّتِ الرِّيَاحْ

لَوْ كَانَ لِلصَّبِّ ما تَمَنّى

لَطَارَ شَوْقاً إِلَى البِطاحْ

وبُلْبُلُ الدَّوْحِ إِنْ تَغَنَّى

أَسْهَرَ ليلي إِلى الصّبَاحْ

عَسَاكَ إِنْ زُرْتَ يا طَبيبي

بالطَّيْفِ في رقْدةِ السَّحَرْ

أَنْ تَجْعَلَ النَّومَ من نَصيبي

والعَيْنَ تحمي من السَّهَرْ

كَمْ شادنٍ قَادَ لي الحُتُوفَا

بمربعِ القَلْبِ قَدْ سَكَنْ

يَسُلُّ من لَحْظِهِ سُيُوفَا

فالقَلْبُ بالروعِ ما سَكَنْ

خُلِقْتُ من عادتي أَلُوفَا

أَحِنُّ للأِلْفِ والسَّكَنْ

غَرنَاطَةٌ مَنْزلُ الحبيبِ

وقُربُها السُؤُلُ والوَطَرْ

تبهُرُ بالمنّظرِ العَجيبِ

فلا عَدَا رَبْعَها المَطَرْ

---

* كم لي عشيق *

مَا للغَمَامْ يَبْكِي بمَاءِ المُزْنِ مِنْ غَيْرِ حُزْنِ

***

دَمْعُ السَّحَابْ يَنهلُ من أُفْـــــــقِ

قَوْلِي صَــوَابْ يا مَعْشَرَ الخَلْقِ

حُبُ الشَّـــــراب فامَلأ لنـــا واسْقِ

وبالمُدَام نَجْنِي الذي نَجْنِي في لَيْلِ دَجْنِ

***

يـــومٌ عَجِيبْ يَلَّذُ لي لُقياه

غَاب الرقيبْ لا ردَّه الله

وَجْه الحبيبْ بالقلبِ مَا أحلاه

بدرُ التمام يميلُ كالغصن بكلِ حُسن

***

كيفَ السبيلْ وبي هَوَى الأَحْوَر

طرفٌ كحيلْ وشاربٌ أخضر

وجهٌ جميلْ مُدَبَّجاً أحمر
أيُّ حسامْ نَضَاه في جَفَنِ بكُل جَبنِ
***

ظَبْيٌ رَشِيقْ ليسَ بِذي مِثْلِ
كَم لِي عَشِيقْ ليسَ له مُسْلِ
ولا يُطِيْقْ صبْراً على الوَصْلِ
طولُ الدَوامْ يشكو الهوى المُعنِي وذا التَّجَنِي

****